التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

(١٣)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الأول

دكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

بجامعة أم القرى

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء

للنشر والتوزيع

جدة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شـــارع منشـــا - محـــرم بـك - الإســـكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضــــراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد: فقد سبق نشر الكتاب الأول من سلسلة « **التاريخ الإسلامي / مواقف وعبر** » وموضوعه « **السيرة النبوية** » والكتاب الثاني وموضوعه « **الخلفاء الراشدون** » وهذا هو الكتاب الثالث وهو يشتمل على المواقف والعبر من تاريخ الأمويين والعباسيين والعثمانيين والدويلات المستقلة المعاصرة لهم .

وليس المقصود بهذا التاريخ رصد كل مادونه المؤرخون من تاريخ هذه الدول ، وإنما المقصود ذكر مايوافق عنوان هذا الكتاب وهو المواقف والعبر .

وقد سرت في ترتيب هذا الكتاب على التنظيم الجِهَوِي ، وذلك بذكر أحداث كل جهة في عنوان واحد مرتبة على الترتيب الزمني، ماعدا المواقف من سيرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى فإن موضوعاتها تختلف عن بقية موضوعات هذا الكتاب .

وقد بدأت بذكر جهاد المسلمين مع الروم وذلك في عهد الأمويين والعباسيين ومن أُلحِق بهم والعثمانيين ، ثم ذكرت جهاد المسلمين في بلاد السند والهند في عهد الأمويين والعباسيين وفي عهد الدويلات الإسلامية في الهند ، ثم ذكرت جهاد المسلمين في المغرب وفي الأندلس ، وكذلك الفتوح في المشرق في العهود المذكورة أو بعضها.

أما مواقف عمر بن عبد العزيز فقد استوعَبتْ جزءاً كاملا وهو الجزء الخامس عشر .

ويشتمل هذا الكتاب على موضوعات جهادية وإدارية وأخلاقية وتربوية .

مصادر الكتاب :

لقد اعتمدت في الكتابة عن هذه العهود على عدد من الكتب من أبرزها « تاريخ الرسل والملوك » للطبري ، و« البداية والنهاية » لابن كثير و « الكامل في التاريخ » لابن الأثير و« سيرة عمر بن عبدالعزيز» لابن عبد الحكم .

وقد سبقت ترجمة موجزة للطبري وابن كثير في الكتاب السابق «الخلفاء الراشدون » ،وسأذكر ترجمة موجزة لابن عبد الحكم وابن الأثير.

عبد الله بن عبد الحكم :

هو عبد الله بن عبد الحكم بن أعْيَن بن ليث المصري، الإمام الفقيه مفتي الديار المصرية ، وهو صاحب الإمام مالك بن أنس، ولد سنة خمس وخمسين ومائة .

وثقه أبو زرعة ، وقال ابن واره : كان شيخ أهل مصر، وقال أحمد العجلى : لم أر بمصر أعقل منه ومن سعيد بن أبي مريم .

توفي رحمه الله تعالى في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومائتين،

وذُكر له من المؤلفات كتاب « الأموال » وكتاب « سيرة عمر بن عبدالعزيز » [1] .

وقد اعتمدت في كثير مما نقلته من سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى على هذا الكتاب .

ابن الأثير :

هو المؤرخ العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني .

من أشهر مؤلفاته « الكامل في التاريخ » و « أُسْد الغابة في معرفة الصحابة » .

قال عنه الحافظ الذهبي :كان إمامًا علامة أخباريًا أديبًا متفننًا رئيسًا محتشما .

وقال عنه ابن خلكان : كان بيته بالموصل مجمع الفضلاء ، اجتمعت به بحلب فوجدته مكمَّلًا في الفضائل والتواضع وكرم الأخلاق.

توفي في شهر شعبان من سنة ثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٢٠ - ٢٢٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٥٣ - ٣٥٦ ، البداية والنهاية ١٣/١٤٩ - ١٥٠ .

مواقف وعبر

فى

جهاد المسلمين مع الروم

الجهاد مع الروم

فى

عهد الأمويين

تقدم الكلام على مواقف فتوح الشام في عـهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وبقي الإشارة بإيجاز إلى المواجهات القتالية المستمرة بين دولة الإسلام في الشـام ودولة الروم منذ عهد عمر رضي الله عنه ، فإن الحرب لم تهدأ لبقاء دولة الروم في كثير من ممالكها.

وبعـد استـقرار حكم المسلـمين في الشام في أواخـر عهـد أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه فإن الروم أيسوا من عودة الشام إليهم فلم يفكروا في غزوه إلا في فترات اخـتلاف المسلمين وحدوث الفتن بينهم كما هو الحال في عهـد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، حيث عزم ملك الروم على غزو الشـام فهدده معـاوية رضي الله عنه بالعزم على الصلح مع علي رضي الله عنه ثم التوجه نحوه لتأديبه .

وكذلك في عـهد عبـد الملك بن مروان حـينما كان في قـتال مع مصعب بن الزبير .

أما فيما عدا ذلك فـإن المسلمين كانوا ينظِّمون الغزوات ضد الروم في أكثر السنوات صـيفًا ويسمونها الصوائف ، وكـان القصد من هذه الصوائف إضـعاف دولة الروم وحمـاية دولة الإسلام، وكانوا أحـيانا يطيلون الغـزو ويتـوغلون في بلاد الروم ويشتُّـون بهـا ، وقد بلغـوا القسطنطينية عدة مرات .

جهاد الروم في عهد معاوية

الغزوات الأولى :

غزا المسلمون بلاد الروم في عهد معاوية رضي الله عنه عدة غزوات قبل الغزوة الكبرى التي كانت بقيادة يزيد بن معاوية .

وقد ذكر المؤرخون هذه الغزوات باختصار، فمن ذلك أنهم ذكروا أن المسلمين غزوا بلاد الروم سنة اثنتين وأربعين، فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم .

ثم غزوهم في سنة ثلاث وأربعين بقيادة بسر بن أرطأة .

ثم غزوهم في سنة ست وأربعين بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأقاموا فيها فصل الشتاء .

ثم غزوهم في سنة ثمان وأربعين بقيادة أبي عبد الرحمن القيني وأقاموا في الشتاء في أنطاكية [1].

غزوة القسطنطينية :

وبعد أن قام أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه بإرسال عدد من الجيوش في عدة سنوات رأى أن الفرصة مناسبة لبعث جيش كبير لغزو القسطنطينية بعد أن أضعف دولة الروم وبث الرعب في قادتها وجنودها، فبعث جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه يزيد في سنة تسع وأربعين ، وفيه عدد من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو ابن العاص وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم،

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ١٧٢-٢٣٢ ، البداية والنهاية ٨/ ٢٥-٣٤ ، تاريخ ابن خلدون/ ٩ .

وقد قال رسول الله ﷺ « أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم » أخرجه الإمام البخاري (١) وكان ذلك الجيش أول من غزا القسطنطينية .

ومما جرى في هذه الغزوة ماأخرجه الإمامان أبو داود والترمذي من حديث أسلم أبي عمران التجيبي قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد (٢) والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو فقال الناس : مه ، مه ، لا إله إلا الله ، يلقى بيديه إلى التهلكه، فقال أبو أيوب : إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله تعالى نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا : هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ [البقرة: ١٩٥] فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد .

قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية (٣).

فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد في

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٢٩٢٤ ، الجهاد (٦/ ١٠٢) .

(٢) يعني بذلك الجماعة الذين غزوا من المدينة ، وفي رواية الترمذي : وعلى الجماعة فضالة بن عبيد .

(٣) سنن أبي داود ، رقم ٢٥١٢ ، الجهاد (٣/ ٢٧) ، سنن الترمذي ، رقم ٢٩٧٢، التفسير ٥/ ٢١٢ .

سبيل الله تعالى ، وأن الهلاك الحقيقي هو هلاك الآخرة بسبب التهاون في واجبات الإسلام .

ولقد قاتل المسلمون أعداءهم حول أسوار القسطنطينية، واستشهد أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه هناك ، وقد أوصى قبل موته أن يقربوه ما استطاعوا من أرض الروم فدفنوه قريبا من السور [1].

ولم يتمكن المسلمون من فتح القسطنطينية هذه المرة لقوة أسوارها ومتانتها واستعداد الروم لتحمل الحصار لمدة طويلة ، فعاد المسلمون إلى بلادهم،ولكنهم كسبوا من وراء ذلك إظهار قوة دولة الإسلام وأن باستطاعتها أن تغزوهم في عقر دارهم ، وهذا يجعل الروم يرتدعون عن محاولة غزو بلاد الإسلام في حال ضعف الدولة الإسلامية .

* * *

(١) انظر تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٢ ، البداية والنهاية ٨/ ٣٤-٦١ .

جهاد الروم في عهد عبد الملك وابنه الوليد

الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك :

إن أهم المعارك الحاسمة بين المسلمين والروم في هذا العهد ماذكره المؤرخ ابن أعثم الكوفي قال: وتحركت الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم فاجتمعوا في خلق عظيم وعزموا على مفاجأة المسلمين في دارهم وأخذ الشام من أيديهم ، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فنادى في أهل الشام فجمعهم في المسجد الأعظم ، ثم صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن العدو قد كلَب عليكم وطمع فيكم وَهُنتم عليه لتركّكم العمل بطاعة الله تعالى واستخفافكم بحق الله ، وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله ، ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأي ؟

قال : فأجابه الناس بأحسن الجواب ورغبوا فيما رغبهم فيه من الجهاد وعزموا على ذلك .

قال : فعندها أمر عبد الملك بن مروان فكُتِب له أربعة كتب، كتاب منها إلى أبان بن عثمان - وهو عامله على الحجاز - أن يوجه إليه برؤساء أهل الحجاز وفرسانهم ، وكتاب إلى علقمة بن مرداس الخولاني - وهو عامله على اليمن - أن يوجه إليه بفرسان أهل اليمن، وكتاب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان - وهو عامله على بلاد مصر - أن يشخص إليه بنفسه في أجناد مصر ، وكتاب إلى الحجاج ابن يوسف أن يوجه إليه بأجناد أهل العراق .

ثم كتب أيضًا إلى أخيه محمد بن مروان وإلى ابنه مسلمة وهما

يومئذ في بلاد أرمينية وأذربيجان فأشخصهما إليه في جميع من معهما من أجنادهما (١) .

هذا وإن كثرة هذه الجيوش التي حشدها عبد الملك بن مروان من أنحاء بلاد الإسلام دليل على ضخامة الجيش الرومي الذي عمل الروم على تجهيزه لغزو بلاد المسلمين .

وإن ماجاء في خطبة عبد الملك هذه من التذكير بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته والاهتمام بالجهاد في سبيله ، وأن ذلك حصن الأمة الحصين وسبب رهبة الأعداء منهم ، وأن الإخلال بذلك سبب هوان أمة المسلمين على أعدائهم . . إن اهتمام عبد الملك بذلك يدلنا على الوجه الآخر لخلفاء المسلمين في عصورهم الذهبية الذي عَتَّم عليه بعض المؤرخين ولم يبرزوه بالدرجة الكافية بينما أبرزوا خلافات الولاة وحروبهم الداخلية وأنماط حياتهم التي تميل أحيانًا إلى مظاهر الدنيا بقدر كبير من البسط والتفصيل .

إن هذه الخطبة وأمثالها تعتبر امتداداً لما اشتهر به عبد الملك من التفوق في العلم الشرعي حيث كان من أكابر طلاب العلم الذين تعمقوا في العلم على علماء المدينة النبوية ، كما تعتبر امتداداً لما

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٢ ، وهذا الكتاب للمؤرخ أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، وقد قال عنه ياقوت الحموي : « الإخباري المؤرخ وهو عند أصحاب الحديث ضعيف» – مقدمة الفتوح لابن أعثم /ب – وقد ذكرت في هذا الجزء جملة من أخبار الجهاد الإسلامي في بلاد الروم ، ولايؤثر في هذا القدر المنقول عنه كونه ضعيفا عند أهل الحديث لأن هذا المنقول لايترتب عليه أي حكم شرعي وإنما هو بيان لمواقف بعض التابعين الجهادية .

اشتهر به في شبابه من العبادة حيث كان وإخوة له يرابطون في المسجد النبوي بين الصلوات للصلاة والذكر والتلاوة .

إننا لاننكر أن من المؤرخين من يذكر ما للولاة من بعض المحاسن وماعليهم من المآخذ ، ولكن الاهتمام في ذلك كان في ذكر جوانب الاصلاح التي تتعلق برفاهية الأمة وتقوية أمنها ورخائها .

والذي ينبغي لفت النظر إليه إلى جانب ذلك الإشارة إلى مدى فهم أولئك الولاة للإسلام وتطبيقهم لأحكامه وآدابه، ومدى صلتهم بالله تعالى وتذكرهم لعوامل النصر وعوامل الانهزام ، وعوامل التمكين في الأرض وعوامل الانهيار الحقيقية التي تقوم على تطبيق الإسلام في الأرض أو الإخلال بشيء من ذلك .

ومما ينبغي الإشارة إليه أخيراً الإشادة بدقة الرصد الحربي لدى المسلمين في عصورهم الأولى ، حيث علم عبد الملك عن عزم ملك الروم على غزو بلاد المسلمين بجيش كبير فأعد للأمر عدته واستعد لدفع البلاء قبل حلوله بما يتناسب مع حجمه وفي الوقت المناسب للقضاء عليه .

قال ابن أعثم في روايته المذكورة :

فلما اجتمع الناس من جميع الأمصار قام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم قد علمتم ماذكر الله عز وجل في كتابه من فضل الجهاد وما وعد الله عليه من الثواب ، ألا وإني قد عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة إلى « أليون » صاحب الروم فإنه قد طغى وبغى وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعًا كثيرة وعزم على

غزوكم ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومُبَدِّدٌ شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه ، وقد جُمِعتم من كل بلد ، وأنتم أهل البأس والنجدة والشجاعة والشدة ، وأنتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته وهذا ابني مسلمة وقد أمَّرته عليكم فاستمعوا له وأطيعوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور ، قال فقال الناس : سمعًا وطاعة ياأمير المؤمنين ، قال : فأمرهم عبد الملك بن مروان فعسكروا خارجًا عن مدينة دمشق في خلق عظيم .

قال : وخرج إليهم عبد الملك بن مروان فعبأهم هنالك فجعل على كل قبيلة من القبائل من ساداتهم يقتدون برأيه ، وينتهون إلى أمره، ثم قال لابنه : يابني إني قد نَدَبْتك لهذا الأمر وشرفتك بهذا الجيش فجعلته لك شرفًا وذكرا إلى آخر الأبد ، فكن يابني للمسلمين بارًّا رحيما وأميرًا حليما ، ولاتكن عنيدًا كفورًا ولامختالاً فخورا ، واعلم يابني أن الروم سيلقونك بجيش كثير وجمع كبير ، فثق بالله واستعن به وتوكل عليه ، فكفى به وليا وناصرا ، وانظر يابني لايَهُولَنَّك ماترى من جمع الروم وكثرة عددهم فإن الله تبارك وتعالى بفضله ومنِّه مهلكهم وضارب وجوههم ومرعب قلوبهم ومزلزل أقدامهم ، ومعك يابني بحمد الله خلق كثير ، فإن عزمت على حرب عدوك فاجعل عمك محمد بن مروان على ميمنتك ، واجعل ابن عمك محمد بن عبد العزيز على ميسرتك ، واجعل محمد بن الأحنف بن قيس على طلائعك، وعبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان على جناحك واعتمد في حربك على البَطَّال بن عمرو فإنه

بطل شجاع مقدام [شياع] (1) وانظر يابني لاتكسل ولاتفشل ولاتجزع ولاتهلع ، فإنك إن لم تفعل ذلك وتعديت ماأوصيتك به استوجبت من الله المقت ، ومن عباده البغض، ومن ملائكته اللعن فإن الله تعالى يقول ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦] .

قال : ثم أقبل عبد الملك بن مروان إلى الناس فقال: أيها الناس المسلمون أنتم إخواني وأعواني، وهذا ابني مسلمة وهو سيفي ورمحي وسهمي ، وقد رميت به في نحر العدو ، وبذلت دمه ومهجته لله عز وجل ، ورجوت أن يقضي الله به على جيش الروم فأعينوه واعضدوه وقوموا معه ، وانصروه إذا كسل ، وشجعوه إذا فشل، وأيقظوه إذا غفا ، وفهموه إذا هفا ، فإن أصيب فالأمير بعده عمه محمد بن مروان ، فإن أصيب فابن عمه محمد بن عبد العزيز فإن أصيب فاختاروا من أحببتم الأفضل فالأفضل ، والخيار في ذلك إليكم، والسلام .

ثم دعا مسلمة فعانقه وقبَّل بين عينيه وقال : السلام عليكم ياولدي وقرة عيني وثمرة فؤادي ، فإن نفسي تحدثني أني لا أراك ولاتراني بعد هذا أبدا ، ثم بكى ، وبكى الناس لبكائه ، وودع الناس بعضهم بعضا ، ورحلوا من عسكرهم يوم الجمعة ، وذلك في أول

---

(1) هكذا وردت في الرواية ولم أجد لها معنى يناسب السياق إلا أن تكون « مُشَيَّع» بمعنى شجاع ولكن هذا الوصف ذكر قبل ذلك ، والبطال اسمه عبد الله بن عمرو الأنطاكي.

يوم من رجب بعد صلاة الجمعة [١] ، وعبد الملك بن مروان يشيّعهم إلى أن نزلوا على فرسخين من مدينة دمشق ، فأقاموا يومهم ذلك هناك ، فلما كان من الغد ودعهم عبد الملك بن مروان ورجع إلى دمشق في نفر من أصحابه .

قال : وسار القوم في الآلة والسلاح الكامل والزيّ الحسن والخيل العتاق والبراذين المُطهَّمة حتى نزلوا بموضع يقال له «مرج دابق » [٢] .

قال : فلم يزل مسلمة هنالك نازلا والناس يخرجون إليه ويتلاحقون به من كل موضع راغبين في الجهاد حتى صار في عسكر عظيم ، ووافاه الفتية المدنيون التائبون [٣] ، وسيأتي خبرهم بإذن الله تعالى .

هذا وإن في خطبة عبد الملك هذه ووصيته لولده ولجنده مثلا لما قدمت ذكره عنه من قوة ارتباطه بالله تعالى وإدراكه العميق لعوامل النصر المعنوية ، ولاغرابة عليه في ذلك فهو من التابعين الذين نهلوا من علم الصحابة رضي الله عنهم وتلقوا التربية على أيديهم ، ففي خطابه لجيش المسلمين يبين ماجمعه الروم لهم من الجموع الكثيرة ثم يحكم على نتيجة المعركة معهم بحسن الظن بالله تعالى وقوة الأمل في نصره لأوليائه وإهلاك أعدائه ، وهذه بداية طيبة لتلك المعارك التي

---

(١) يعني من سنة ست وثمانين كما سيأتي في سياق مواقف المعركة، وانظر الكامل٤/١٠٦ .

(٢) هي قرية قرب حلب بينها وبينها أربعة فراسخ - معجم البلدان ٤/ ٣ .

(٣) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٣ - ١٢٥ .

سيخوضها معهم المسلمون ، حيث لم يَعْتَدَّ عبد الملك بقوة جنده وحسن استعدادهم المادي ، بل جعل الأمر كله بيد الله تعالى .

وفي وصيته لابنه مسلمة نجده يوصيه بحسن السياسة مع جنده حيث يذكِّره بالالتزام بمكارم الأخلاق التي تجعله محبوبا لدى جنده فأوصاه بالبر الذي يصله بجنده ، وبالرحمة التي تحجزه عن الظلم، وبالحلم الذي يملك به غضبه فلايتصرف إلا بعقله السليم ، ونهاه عن مساوئ الأخلاق التي تجعله مُبغَضًا لدى جنده ، حيث نهاه عن العناد الذي يدفعه إليه الاعتداد بالرأي وعدم قبول مشورة أهل الخبرة ، ونهاه عن كفر النعمة الذي يتمثل بعدم تقدير أهل الفضل ، والإمساك عن شكرهم ، وذلك يحجب عنه طاقاتهم الفعالة وقدراتهم المؤثرة فيضعُف إنتاجهم ويكون الفشل سبيلَه وسبيلهم ، ونهاه عن الخيلاء والفخر ، لأن هذا الخلق السيء يطمس من فكر الإنسان محاولة إدراك عيوبه والطموح نحو الكمال ، حيث يكون الفكر مشغولا بتلمس مايرضي غرور النفس وإن كان سرابا لاوجود له في الواقع ، إلى جانب كونه يحجب عن القائد نِتاج فكر المفكرين من أتباعه ، ويحدد علاقتهم به بنوع من المجاملة ، والاكتفاء بأداء الواجبات الضرورية الظاهرة بشيء قليل من الكفاءة والطاقة .

إلى آخر هذه الوصايا التي من أبرزها نهيه ابنه القائد عن الكسل والفشل والجزع والهلع ، وتذكيره بأنه إن وقع في شيء من ذلك فقد استوجب المقت من الله تعالى ، والبغض من عباده واللعن من ملائكته، وهو تأكيد مرة أخرى على لزوم الصلة بالله تعالى وتذكُّر

عظمته ورقابته ، وأن المعوَّل عليـه في جميع الأمور هو طلب رضوانه واجتناب سـخطه ، وعلى ذلك يترتب طلب رضـوان الملائكة والمتقين من عباد الله جل وعلا .

ومن أبرز تلك الوصايا تذكير الجند بنصر القائد إذا كسل وتشجيعه إذا فشل ، وإيقـاظه إذا غفا ، وتفـهيمه إذا هفـا ، فالقائد لاكـيان له ولاقوة إلا برقابة جنـده ونصحهم إياه ، وبذلهم كل طاقتـهم معه في خدمة الهدف الأعلى الذي يجاهدون من أجله .

هذا وقد حصل ماتوقعه عبد الملك من عدم لقائه بابنه مسلمة بعدَ ذلك اليـوم حـيث توفي عبـد الملك بعـد ذلك بشـهـرين ونصف في منتصف شوال من عام ستة وثمانين [١] .

* * *

(١) الكامل ٤/١٠٢ .

خبر الفتية التائبين :

ذكر المؤرخ أحمد بن أعثم الكوفي - في سياق أخبار غزو المسلمين لبلاد الروم - خبر الفتية العشرة الذين كانوا في المدينة على شيء من المعاصي واللهو ثم تابوا إلى الله تعالى توبة نصوحا وخرجوا مجاهدين في سبيل الله تعالى ، وقد ذكر أسماءهم وماهم فيه من اللهو المحرم والمعاصي من روايته عن عيسى بن دأب إلى أن قال : وكان هؤلاء الفتية العشرة في كل نعمة سابغة لايأتي عليهم يوم من الأيام إلا وهم أشد سروراً وأطول حبورا من يومهم الذي مضى إلى أن وقع الخبر إليهم بأن عبد الملك بن مروان قد وجه جيشًا إلى بلاد الروم .

قال : وأراد الله عز وجل ماأراد من الخير ، وأحب الله عز وجل أن ينقذهم مما هم فيه من ظلمة المعاصي إلى نور الطاعة .

قال : فأول من ارتدع منهم عما هو فيه ودعته نفسه إلى التوبة والإنابة إلي الله تعالى يحيى بن عمرو القرشي ، فعزم على ذلك وجعل يُسِرّه في نفسه ولايذكر لإخوانه شيئًا مما قد عزم عليه، وهو مع ذلك يجالسهم ويحادثهم .

قال : فبينما هم ذات يوم على شرابهم ولهوهم إذ أخذوا شيئًا من تناشد الأشعار التي قد أحدثوها بينهم فجعل كل واحد منهم يقول شيئًا ، ويحيى بن عمرو القرشي ساكت لاينطق بشيء حتى فرغوا من نشيدهم ، فأحب أن يلقي إليهم شيئًا مما قد عزم عليه من أمر التوبة ونزوعٍ عما هو عليه فأنشأ يقول :

قالت سلوتَ فقلت لست بجاهد أنا والمهيمنِ ذي الجلال الواحد
وسلختَ ودَّك عن فؤاديَ مثلما سُلخَ النهارُ من الظلام الراكد
قالت فَعُدْ فالعود عندي أحمدُ فأجبتها هيهات لست بعائد
إني أخاف عذاب رب سرمدٍ تبدو فضائحه ولست ببائد

قال : فلما سمع القوم من يحيى بن عمرو القرشي هذه الأبيات أنكروا ذلك منه إنكاراً شديداً بليغا ، ثم إنهم عَضُّوه بألسنتهم وعذلوه فأكثروا فيه من عذله ولومه ، ثم قالوا : ياهذا قد سمعنا منك شيئًا نخاف أن يكون فيه تفريق جماعتنا وتشتيت أُلفتنا ، وإننا نناشدك في ذلك .

قال : فتبسم يحيى بن عمرو القرشي ثم حرك رأسه وأنشد :

إن في اللهو ماعلمت سرورا لايُرى في حوادث الأقدار
غير أني تركت ذلك خوفا وحِذاراً من شرِّ عارٍ ونار
فأنيبوا إلى الإله وتوبوا كم إلى كم نقيم في الإصرار

قال : فلما سمع القوم ذلك أقبل عليه سليمان بن عمرو - يعني أخاه- فقال : والله ياأخي ماعدا جميعُ تكلمت به سويداء قلبي ولقد أخذ بمجامع قلبي وعقلي حتى لقد غلب على سمعي وصدري وحال بيني وبين لذتي ، ولقد علمت أن الأمر كما ذكرت وأن الرغبة فيما رغبتَ ، قال : ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول :

يامن يلوم موفَّقا يدعو إلى إسعاده
أبدى النصيحة إذ دعا لم يأل في إجهاده

لاتـنـكروا مـاقـالـه مِـنْ بَـذلِه لـرشاده

فلـقد أتـى بنصيحة مـوصـولـة بسـداده

قال : فلمـا سمع القوم كلام سليـمان بن عمرو وميلـه إلى أخيه جعل بعضهم يقول لبعض : هذا ماكنا نحذره من تفريق الألفة وتكدير العيش ، فعند الله نحتسب مافُجعنا به منكما !

وهكذا استجاب لنداء الجهاد أحد هؤلاء الـفتية العشرة وهو يحيى ابن عمرو القرشي ، ودبَّ الإيمان في كيانه ، وسَرتْ في جسمه الحياة كما يسري الماء في العـود اليابس ، وتحوَّل في لحظات إلى مؤمن تقي يتذكر ببالغ الأسى والحسرة ماضيه المظلم فيزيده ذلك إيمانًا وعزما على المضي في طريق الهداية .

ولكن أنَّى له أن يَنْعم بنوم أو يهـدأ براحة وأصـحابه الذيـن كان معهم في طريق الغواية مازالوا مرتكسين في هذا الطريق المعوجٍّ، ففكر كثيرًا في أمر هدايتهم ، وجعل هذا الأمر هو قضيته المهمة في حياته، وكان الأمل في هدايتهم يَحْدُوه إلى العمل على اجتذابهم ، وهو على يقين بأن الله تعـالى الذي حوَّل قلبـه إلى الهداية قادر عـلى أن يحول قلوب أصحابه . . فقرر أن لايقاطع مـجالسهم ، وأن يحضرها بروح الداعية المنقذ لابروح المستمتع المداهن .

وإذا بإيمانه القوي يدفـعه إلى قول كلمـة الحق التي سيغـضب لها جمـيع أصحابه ، ولـم يُبَـال بما سينتج عن ذلك من احـتمال تعـرضه للأذى على أيديهم ، أو على الأقل محاولة هجره وإبعاده عنهم .

قال : ثم انصرف القوم من مجلسهم يومهم ذلك وهم مغمومون

بأمر يحيى بن عمرو وأخيه سليمان ، فلما كان في الليلة المقبلة اجتمعوا أيضًا فجلسوا ،فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم يحيى بن عمرو فقال : ياإخوتي وياأخلائي ومن تقر عيني بصلاحهم واجتماع كلمتهم، إنه ينبغي للراقد أن يستيقظ من رقدته ويستجلي عن غشوته،ومهما شككتم في شيء فلا تشكوا في الموت،إنه نازل بي وبكم،وأسأل الله تعالى العصمة والتوفيق والتسديد لي ولكم، والسلام ،ثم أنشأ يقول :

دعوتكمُ للرشد والنصح جاهدا   ومازلت للإخوان مُذْكنت ناصحا

فإن تقبلوا نصحي تنالوا سعادة   وتأتوا طريقا بيِّنَ القصد واضحا

ومن يترك القصد المنيرَ طريقَه   يلاقي غدًا نارًا ويخلد كالحا

وهكذا تبين لنا في هذا الخبر المؤثر الذي عاد فيه هؤلاء الفتية إلى رشدهم بعد أن ارتكسوا في الغواية أن هداية رائدهم إلى الحق وهو يحيى بن عمرو القرشي كانت بعد سماعه نداء الجهاد ، حيث أحيى الجهاد ضميره ونبهه من غفلته ، فتحول إلى داعية هدًى يحاول إنقاذ أحبته من الهلاك الذي كان مشاركا لهم فيه .

وبهذا نلمس فائدة مهمة من فوائد إحياء الجهاد في سبيل الله تعالى ، حيث يتنبه الغافلون والسادرون في لهوهم إلى ماتعانيه أمتهم، ومايُحدق بها من خطر الهلاك والذلة على يد الأعداء، فَتَحيَى في نفوسهم معاني التحدي للأعداء ، والحفاظُ على مجد الأمة وعزها المتمثل في بقاء دينها ودولتها .

وحينما يقارن اللاهون العابثون بين وضعهم المزري وقد تعجلوا

نصيبهم من النعيم في حياتهم الدنيا ونسوا آخرتهم ، وبين وضع المجاهدين الذين طلقوا الدنيا ورفضوا متاعها الزائل ، غيرةً على آخرتهم ، وحرصا منهم على رفعة درجاتهم في الجنة . . حينما يقارنون بين هذين الوضعين تسري في كيانهم روح قوية تعصف بهم، فتجعلهم يترفعون عن الدنايا التي كانوا يعتبرونها قوام الحياة وبهجتها، وتطمح عقولهم نحو رضوان الله تعالى ونعيم الجنة ، فيرون أن أقرب الطرق إلى ذلك أن يُقدِّموا أرواحهم فداء لدينهم وإخوانهم المسلمين.

وهكذا فعل هؤلاء الفتية بعدما هداهم الله تعالى ، حيث شاركوا في معركة فتح« طوانة »وكانوا عاملا مهمّاً في الفتح،وقدموا أرواحهم جميعًا شهداء في سبيل الله تعالى .

هذا ولو نظر السادرون في غيهم اللاهون عن حماية أمتهم ومستقبلها. . لو نظروا إلى مصلحتهم الدنيوية المستقبلية فضلاً عن الآخرة لهبُّوا سراعا للدفاع عن بلادهم ودولتهم لأن التمتع الذي يعيشون فيه في ظل الأمن والرخاء القائمين على استقرار الدولة وانتصارها على الأعداء سينقلب رأسا على عقب حينما يستولي الأعداء على دولة الإسلام ويتخذون المسلمين عبيدًا لهم .

إن هؤلاء الذين يستمرون في لهوهم ولايشاركون أمتهم في البناء والحماية والدفاع يشبهون من يعيش في بستان يَجْني منه مالذَّ وطاب وهو يشاهد حريقا هائلا على مسافة منه ويتوقع عقلاً أن يصل إليه ليحرق في بستانه الأخضر واليابس ، وهو مع ذلك غارق في متعته ولهوه ولايشارك في صد هذا الحريق الذي أفنى ما حوله .

فهل يُعتبر هذا من العقلاء ؟

فكيف الحال إذا كان بالجهاد في سبيل الله تعالى مستقبل الدنيا والآخرة ؟ وهل تُوضع الدنيا بكل مافيها من نعيم في ميزان مع الآخرة؟ ! هذا وإننا لنجد في الأسلوب التربوي الذي سلكه يحى بن عمرو القرشي دلالةً على تفوق ذلك المجتمع من الناحية التربوية . . هذا التفوق الذي كان نتيجة لِعلوٍّ كعب العلماء آنذاك في الدعوة والتربية ، فهو لمَّا هداه الله جل وعلا لم يقاطع رفاقه الذين تحولوا في عينه بعد الهداية إلى رفاق سوء ، بل جعل أكبر همه أن يحاول إنقاذهم من مواطن الهلاك وأسباب الشقاء .

وبالرغم من كونهم لاموه وعنَّفوه وشدَّدوا النكير عليه . . وبالرغم من هفوتهم الظاهرة حيث ناشدوه الله تعالى أن يقرهم على باطلهم وأن يسكت عن دعوة الحق فإنه لم يغضب، ولم يُشغِل نفسه في رد باطلهم أو الدفاع عن نفسه ، وإنما ركز في أبيات من الشعر على إيقاظ ضمائرهم التي لايزال فيها بقية من حياة ، وذلك بتذكيرهم بمصيرهم بعد الموت ، وكان لهذا المنهج القويم أثر ظاهر في هداية من اهتدى منهم ، ثم سلك إخوته الذين هداهم الله تعالى نفس هذا المنهج مع بقية المجموعة كما سيأتي .

قال عيسى بن دأّب راوي الخبر : ثم أقبل عليهم سليمان بن عمرو فقال : ياإخوتي ومن قد عظمت حقوقهم عليَّ ، وابيضَّت أيديهم عندي ، إنكم قد علمتم ماافترقنا عليه في ليلتنا الماضية، ومادعاكم إليه أخي يحيى بن عمرو الناصح لكم الشفيق عليكم، فإن تجيبوا إلى التوبة والنزوع عما أنتم عليه فحظَّكم أصبتم، وإلى الخير

أجبتم، وإن تقيموا على ماأرى من لغطكم واتباعكم أهواءكم فإني أسأل الله لكم التوفيق - والسلام .

ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول :

سألت إلهي أن يؤلف بيننا على الخير كالتأليف في سائر الدهر

فقد عشتمُ عصراً وعصراً وإننا لفي غمرة جهلاء نهوي وماندري

نُلَجلج في بحرٍ سكارى بِحَيرة فحتّى متى لسنا نفيق من السكر

وتوبوا تنالوا جنة الخلد إنما ينال جنان الخلد من كان ذا صبر

قال : فلما سمع بشر بن مطر الأزدي مقالة يحيى وسليمان بن عمرو واستحكم قولهما في قلبه أعجبه ذلك ، ثم قال : لقد علم من أُعِين عقلا وأَحضرهَمّا أين موضع الحق - والسلام .

ثم أنشأ يقول :

لعمري لئن بعت الهداية بالعمى وآثرت غير الحق إني لخاسر

أأترك حظي بعد إذ أنا قادر على أخذه والحق فيه بصائر[1]

سأُجبر نفسي عن هواها وغيها بصبر قويٍّ الحزم والحر صابر

قال : فلما سمع القوم مقالة بشر بن مطر الأزدي غمَّهم ذلك غما شديداً ، ثم أقبل هارون بن الحصين على أصحابه فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون، ماأعظم الرَّزية بفرقتكم، وأجلَّ المصيبة بتباعدكم! والله ماأظن هذا الأمر إلا مشتِّتًا جماعتنا ، مكدرا علينا صفو عيشنا،

---

(١) يعني هل أترك حظي من نعيم الآخرة وأنا قادر على أخذه بالعمل الصالح في الدنيا؟

لأن الذي دعوتنا إليه من مزايلة مانحن فيه شديد ، وهو أثبت وأرسخ من أن يزيله العظات أو يقلعه الصفات .

قال : ثم افترقوا أيضًا ليلتهم مغمومين .

وهكذا وجدنا هؤلاء الثلاثة الذين هداهم الله حريصين على هداية رفاقهم بالكلام المؤثر نثرًا وشعرًا مع التركيز على ترغيبهم بالجنة وترهيبهم من النار ، وآخرين من المجموعة كانوا يقومون بدعوة مضادة للبقاء على ماهم فيه من اللهو والمعاصي .

ولكن الله تعالى أعان دعاة الخير منهم بالرُّؤَى الصالحة التي أراها اثنين من رفاقهم كان لها الأثر في هدايتهم .

يقول عيسى بن دأب في سياق روايته : فلما كان في الليلة الثالثة اجتمعوا فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم محمد بن زرعة العبدي فقال: ياإخوتاه اسمعوا عني كلامي وتدبَّروا بعقولكم فقد أتيتكم بأعجوبة، فقالوا : هات مابدا لك ، فقال: اعلموا أني فارقتكم الليلة وصرت إلى منزلي [فأرقت] (١) أرقًا شديدًا ، حتى إذا كان قبيل الصبح أغفيت إغفاءة فإذا أنا بآت قد أتاني في منامي وهو يقول هذه الأبيات :

ياتارك القصد بعد معرفة ... وسالكًا غيره من الطرق
يحيى وأصحابه على رشدٍ ... كما جلا الليلَ ساطعُ الفلق
فلا تكونَنَّ كالمقيم على ... دَحْضٍ مَزَلٍّ أشفى على غرق

---

(١) ليست في الأصل .

قال : فلما سمعت ذلك استيقظت فزعًا مرعوبا حتى كاد الخفقان أن ينزع قلبي حتى سكّنني من كان بحضرتي .

قال : فأقبل عليه يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري، فقال: ياأخي فكأني والله وإياك إنما كنا على أمر واحد غير أن الألفاظ مختلفة، وذلك أني قمت عن المجلس حين افترقنا بالأمس وبي من الحرقة[1] والأسف لتشتيت الفرقة ما لاأبلغ وصفه حزنا على إخواني، ومارأيت من مفارقتهم لنا ونقضهم علينا مانحن فيه من الألفة والمودة، فأتيت إلى منزلي ، وظللت عامة ليلي أدير عيني على الغمض فلا أقدر على ذلك فبينا أنا كذلك بين النائم واليقظان إذ أنا بهاتف يهتف بي وهو يقول :

ياخائضًا في غمرة الجهل	وحائدًا عن واضح السُّبُل
لستَ على شيء فلاتكذِبَنْ	في راجع التوبة في مهل
من قبل يوم معظَمٍ هائل	يُشيب رأسَ المرضِع للطفل

فلما سمعت ذلك استيقظت ومامعي شيء من عقلي، فهذا والله ياإخوتي مارأيت .

فلما سمع القوم ذلك عجبوا وجعل بعضهم يقول لبعض: كيف حتى خُصَّ محمد بن زرعة ويعقوب بن عبد الكريم بهؤلاء الهواتف من بيننا ؟ هذا سيكون لنا نبأ .

قال : ثم أقبل سعيد بن إسماعيل الأسدي على محمد بن زرعة

---

(١) في الأصل الفرقة .

وهو يقول :

لـولا الذي أضمرتَ من غدرةٍ ... ماراعَكَ الهاتـف إذ يهتـف
خُصصتَ بالهاتـف مـن بيننا ... مالك في قولك لاتنصـف
والله رب العرش يـاإخـوتـي ... فـإنني مجتهداً أحلـف
لاخنت مـن أهوى ولاشتَّمته ... جهرا ولامثلي بـه يـوصـف

قال : ثم أنشأ هارون بن الحصين التميمي هو يقول :

أَبِالأحلام أسلو عـن هواي ... لأقـوام أَتَوْا بالـترَّهـات
أتـونـا يزعمـون بـأن آتٍ ... أتى بنصيحةٍ عـند البيات
يحضُّهمُ عـلى هـجـر وغـدر ... وقطع الحبـل منا والشتـات
فمن يك راغبا عن وصل إِلْفٍ ... فلست براغب حتى الممات

قال : وتـفرق القـوم أيضًا ليلتـهم تلك وقد وفق الله عـز وجل للتوبة خمـسة نفر ابني عمرو وبشر بن مطر الأزدي ومـحمد بن زرعة الأزدي ويعقـوب بن عبـد الكريم الأنصاري، وبقـي منهم خمـسة : هارون بن الحـصين وأحمد بن الحـصين وعبـد الله بن عمـرو الطائي وسعيد بن إسماعيل الأسدي وأحمد بن محمد اليشكري [1] .

وهكذا رأينا مثـالا من المعركة الدائـرة بين العقول السليـمة وهي تنادى أصحابهـا بالعودة إلى طريق الهداية ، وبين العواطف المتـأججة وهي تنادي بالبـقاء على طريـق الغواية ، حـيث بات اثنان من هؤلاء الـفتية بشرٍّ ليلـة مـن القلق والأرق، حـتى مـنَّ الله تعالى عليهما بمن

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٧ - ١٣٠ .

أنقذهما من حيرتهما ، وحسم تلك المعركة لصالح العقول السليمة .

ولاريب أن البقية - وإن أظهـروا بشيء من التعصب بقاءهم على غـوايتـهـم - يعـانون من هذه المعـركـة ، ولكن لم يكن حـان وقت هدايتهم وانتصار عقولهم السليمة على عواطفهم المنحرفة .

ولـم ييـأس هؤلاء الذين تابـوا من هداية أصـحـابهم ، بل ظلوا يدعون الله تعالى لهم ويحاولون مـعهم ذلك بشيء من الجهد المنظم، حيث تولى كل واحـد منهم الكتابة لواحـد من أولئك إلى أن هداهم الله تعالى .

يقـول عيـسى بن دَأْب : وجعل هـؤلاء الخمـسة الذين قـد تابوا يدعون الـله ويتضرعـون في أن يَرجع[1] بقلوب إخوانـهم إلى ماهم عليه من التوبة، فلم يزالوا كذلك إلى أن استجاب الله منهم دعاءهم في إخوانهم وأقبل بقلوبهم إلى طاعته .

قال : وكـتـب هارون بن الحـصين إلى يحيى بن عـمرو القـرشي بهذين البيتين :

نفسي الفداء لمن جلَّى الإله بــه   عنَّا العمى ووقاه مـورد التــلف

قد كان مابيننا في الدين مختلفا   فاليوم نحن جميعا غيرُ مختلف

قال : ثم كـتب أخوه محمـد بن الحصين إلى سليمان بن عـمرو أيضًا بهذين البيتين :

أتتـني مـنـك مــوعـظـة   يـقــومٌ نـصحــهـا أودي

فجـئتك تـائبا فـي اليـو   م خـوفًـا من عـقـاب غد

---

(١) في الأصل يراجع .

قال : ثم كتب أحمد بن محمد اليشكري إلى محمد بن زرعة العبدي بهذين البيتين :

لقد قرأت كتابًا منك هيَّجني يدعو إلى الله إسرارًا وإعلانا

أجبته ودعوت الله مجتهدا كيما[1] نكون على الخيرات أعوانا

قال : ثم كتب سعيد بن إسماعيل الأسدي إلى يعقوب بن عبدالكريم الأنصاري بهذين البيتين :

أتاني كتاب منك فيه مواعظ تحضُّ على خير وتدعو إلى رشد

فأبصرت مافيه من الحق والهدى وفارقت من أهوى على أجهد الجهد

فلما وصلت هذه الأبيات من هؤلاء الخمسة إلى إخوانهم فرحوا لذلك واستبشروا ، واشتدَّ سرورهم ، ثم إنهم ابتهلوا إلى الله عز وجل في أن يُقَوِّي عزمهم على ماعزموا عليه من التوبة ، فاستجاب الله لهم ذلك .

قال : ثم إنهم تواعدوا أن يجتمعوا في مشربة لهم فيكلم بعضهم بعضا ، فاجتمعوا في مشربتهم تلك ، قال : وهي مشربة معروفة بالمدينة يقال لها مشربة التوبة،وهي مشربة على العطَّارين بالمدينة ، قال: فلما اجتمعوا هنالك [تعانقوا] [2] وبكى بعضهم إلى بعض لطول الفرقة وماكانوا عليه من التباعد ، وحمدوا الله تعالى على ماألَّف بينهم من التقوى وسألوه التوفيق والعصمة مما هم فيه .

---

(١) في الأصل كما

(٢) في الأصل اعتنقوا .

وهكذا تمت توبة هؤلاء الخمسة ، واجتمع شمل الفتية العشرة على الهدى وطاعة الله تعالى، بعدما كانوا يجتمعون على الضلال ومعصية الله جل وعلا .

ولقد كان أولئك الخمسة الأوائل أوفياء لإخوانهم، حكماء في دعوتهم حيث قاطعوا مجالس اللهو ، وظلوا على صلة بإخوانهم الذين مازالوا في غوايتهم عن طريق المكاتبة الفردية .

ولاشك أن الإنسان حينما يخلو لنفسه، ثم يتلقَّى في تلك الحال كتابا يخاطب عقله، ويدعوه إلى رشده، فإن النفس تكون أكثر ميلا إلى الهدى وقبولا لنداء الحق ، ذلك لأن العاطفة آنذاك تكون خامدة، وليس لدى الإنسان ما يُثير كَوَامن النفس في اتباع الهوى، لبعده عن مجالس اللهو ورفقة السوء، فينفرد العقل بتدبير النفس، فإذا كان لدى الإنسان بقية من إيمان وقابلية لسلوك طريق الخير فإن العقل يقود النفس إلى رشدها .

وكم للرسائل الخاصة في تاريخ الدعوة من أثر بالغ، ونتائج مثمرة في مجال الهداية والالتزام بالطريق المستقيم !

وهل كان إسلام بطل الإسلام خالد بن الوليد إلا من أثر كتاب بعثه إليه أخوه الوليد،يَذْكر فيه إشادة النبي ﷺ به ورغبته في إسلامه؟

ثم لاننسى دعاء أولئك الشباب الخمسة لإخوانهم في ظهر الغيب، حيث كان بعضهم يوصي بعضا بالدعاء لهم بالهداية .

ولاشك أن وضعهم وهم يحترقون أسًى على إخوانهم إذا تصوروا الجنة وحرمان إخوانهم من نفح نعيمها وتصوروا النار وتعرضهم للفح

جحيمها . . لاشك أن قلوبهم والحال هذه ستكون حاضرة مع الله تعالى بكل مداركها وتصوراتها ، والله سبحانه وتعالى كريم رحيم، لايرد دعوة صادقة صادرة من قلب متلهف عظيم الرجاء قوي الأمل بعطفه وكرمه .

أوليست قلوب العباد بيد الرحمن جل جلاله يصرفها كيف يشاء؟ ثم أليس الدعاء الصادق سببا في تحويل القلوب من الغواية إلى الهداية؟ إن الدعاء الخالص وسيلة اتصال عُظمى تقطع حجب الليل البهيم وتجاوز طبقات الفضاء العالية لتصل إلى مدبِّر الكون جل جلاله فيكون بهذا الدعاء هداية الحيارى ، ونصر المظلومين ، وكشف الكربات ، وغير ذلك من صنوف القضاء، المترتبة على الدعاء .

فهذا الخبر نموذج صالح للدعوة إلى الله تعالى،ويشتمل على فوائد جليلة :

منها أن من كمال الهداية أن يسعى المهتدي لإنقاذ أصحابه الذين كان معهم لأن أمر هدايتهم متعين عليه، حيث إنه أعرف الناس بحالهم، وأقدر الناس على مخاطبتهم والتأثير عليهم .

ومنها أن المهتدي عليه أن لاينظر إلى الذين مازالوا على الغواية نظرة استعلاء واستخفاف ، بل عليه أن ينظر إليهم نظرة رحمة وعطف، وأن يحاول إنقاذهم من الهلاك الذي وجَّهوا أنفسهم نحوه.

ومنها أن لايكتفي الداعية بمحاولة واحدة في هذا المجال، بل عليه أن يكرر المحاولات ، وأن ينوع الأساليب التي يستخدمها في سبيل الوصول إلى هدفه السامي .

هذا وبعد اجتماع أولئك الفتية على الهدى وجَّههم رائدهم يحيى ابن عمرو القرشي إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، وخرجوا إلى الشام استجابة لنداء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الذي أمر بجمع الجيوش من بلاد الإسلام لغزو الروم كما سبق .

ووصل هؤلاء الفتية إلى جيش المسلمين المرابط بمرج دابق بقيادة مسلمة بن عبد الملك .

ولما سار الجيش الإسلامي لجهاد الروم سار معهم هؤلاء الفتية، وشاركوا في معركة طُوَانة التي تم بعدها فتح هذه المدينة، وقد ذُكِر من أخبار هؤلاء الفتية أنهم كانوا في مقدمة من برز لأبطال الروم،وقد جاء بالتفصيل ذكر ماجرى من بعضهم كما جاء في رواية عيسى بن دأب حيث قال عن جهاد أحمد بن الحصين التميمي :

ثم حمل على العلج - يعني الرومي - فضربه ضربة على فخذه فقطعها فسقط العلج ميتا ، قال: وإذا بعلج آخر يقال له بولص قد بدر إلى أحمد بن الحصين ، قال : فنظر إليه أحمد فقصد نحوه وهو يقول :

دونك حربًا لاتقيه تُرسي   صبرًا على المكروه مني نفسي
كيما أنال منزلا في القدس   فإنما الدنيا كيوم أمس

قال : واختلفا بطعنتين ، طعنه العلج في خاصرته فجَنْدَلَه قتيلا -رحمه الله - .

قال: فلما قُتل هارون بن الحصين [1] ، وأخوه أحمد خرج من

(١) يعني التميمي وهذا دليل على أنه استشهد قبل أخيه أحمد .

بعدهما سعيد بن إسماعيل الأسدي نحو ذلك العلج وهو يقول :

يابولِصَ الـــروم إليك نفسي قد طال في ظلّ الخطايا حبسي

اليوم أحمى إخوتي بالحمسي كيما يــكون بطن سبْع رمسي(١)

قال : والتقيا بضربتين ، ضربه الأسدي ضربة جندله قتيلا .

قال: وخرج من بعده علج آخر يقال له قسطنطين الأصغر، قال: فقصده الأسدي وهو يقول :

يا أيها الـداعـي إلـى الجـــلاد فـي حـومـة الأبـطال والأنجاد

أتـــاك لـيــث سَلِسُ الـقـيـاد ذِو صـولـة يكـرهـها الأعـادي

ثم تطاعنا برمحـيهما فلم يصنعـا شيئا، وتضـاربا بسيفيهـما فلم يصنعا شيئًا ، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه حتى سقطا عن فرسيهما إلى الأرض ، فشد عليه العلج بخنجر كان معه فوجأه في نحره فقتله - رحمه الله - .

قال : وخــرج من بعده يعقـوب بن عبد الكريم الأنصــاري نحو قسطنطين هذا العلج وهو يقول :

لَـتـذهَبَنَّ الـيـوم نفــسي أسـفا إذ كـنـت بـعـد خـمـسة مخلَّفا(٢)

قد نلت من لذة عيشي ماصفا حَسْبِي الَّذي عانيت حسبي وكفى

---

(١) يعني أحميهم بالقوة لأستشهد فيكون جسدي في بطون السباع .

(٢) هذا يدل على أنه قد استشهد خمسة من هؤلاء الفتية ، وقد ذُكر منهم هارون بن الحصين التميمي وأخوه أحمد وسعيد بن إسماعيل الأسدي وهذا يدل على سبق استشهاد يحيى بن عمرو القرشي وأخيه سليمان .

ثم حمل الأنصاري على قسطنطين العلج فقتله، ثم وقف ودعا إلى البراز فلم يخرج إليه أحد ، وكاعت الروم بعد قتل قسطنطين .

قال: وجعل مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين يتعجبون من إقدام هؤلاء الفتية على الموت، وصبرهم على الحرب، وكل واحد منهم يتلو صاحبه .

قال : والتفت بشر بن مطر الأزدي إلى إخوته الذين بقوا معه : يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري، وأحمد بن محمد اليشكري، ومحمد بن زرعة العبدي، فقال: ياإخوتي إنه قتل منا خمسة ومضوا لسبيلهم ، ونحن ههنا أربعة ، ونرجوا أن نلحق بهم عن قريب إن شاء الله [1] ، ولكن هل ترون ماأرى ؟ فقالوا: وماترى يرحمك الله؟ فقال : وَيْحكم إني رفعت رأسي إلى السماء أنظر إلى هذه الغمامة التي قد أظلت هذا العسكر فرأيت عجبا عجيبا ، وذلك أني رأيت رجالا لم أر مثلهم ولامثل صورتهم ساعة قط، ومعهم خيام بيض لم أر على حسنها شيئًا ، ونظرت إلى نسوة يطلعن علينا من هذه الغمامة ويضحكن إلى إخواننا هؤلاء الذين قُتلوا ، فهذا مارأيت .

قال : فعند ذلك اقشعرت جلود القوم، ووقفت شعورهم واشتاقوا إلى ماشوَّقهم إليه صاحبهم بِشْر بن مطر الأزدي، ثم غلبتهم أعينهم بالبكاء والترحم على إخوانهم ، وجعل بعضهم يقول لبعض:

---

(١) يقصد بالخمسة يحيى وسليمان ابني عمرو القرشي وهارون وأحمد ابني الحصين التميمي وسعيد بن إسماعيل الأسدي ، وبقي العاشر لم يذكر وهو عبد الله بن عمرو الطائي فلعله مات قبل المعركة .

إنه يجب علينا الآن أن لانقصرِّ في جهـاد هؤلاء القوم الكفار، فعسى الله أن يجمعنا مع إخواننا في مستقر رحمته .

قال : فكان أولَ من تقـدم منهم إلى الحرب يومئـذ بشر بن مطر الأزدي ، وهو الذي رأى مارأى ، فجعل يرتجز ويقول أبياتًا مطلعها :

من كان في شك وفي تَعَامِي فـقـد رأيت الحـور فـي الخيام

صبرًا لـهـذا يـابني الـكـرام حـتـى تحلُّوا سـاحة الســلام

قال : ثم تقدم محمد بن زرعة العبدي وهو يقول :

إن كان لابـد مصيري للفنا فـما مـقـامـي بعـد خمس ههنا

إن نلت ماأبغي فقد نلت المُنَى جناتِ عدن ليس فيها مِـنْ عَنَا

قال : ثم تقدم أحمد بن محمد اليشكري وجعل يرتجز ويقول :

لاخير في العيشة بعد صحبي حسبي من العيشة حسبي حسبي

لأرجع اليوم وأقـضي نحبي ثـم أحُلُّ فـي جنان ربي

قال : ثم حمل هؤلاء الفتية فقاتلوا قتالا شديدًا ، وجعل يعقوب ابن عبد الكريم الأنصاري يرتجز ويقول :

هيهات مـني سفـهي وطيشي أقـصـد للحصن أمـام جيشي

قد ذهب السادة مـن قريش[1] لاخير لي من بعدهمْ في العيش

قال : ثم حمل يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري حملة يريد باب الحصن قال: ولحقه إخوته الثلاثة حتى صاروا إلى باب حصن طوانة،

---

(١) يعني بذلك يحى وسليمان ابني عمرو القرشي .

فجعلوا يقاتلون أشد القتال ، قال: وصاح مسلمة بالمسلمين فحملوا، وانكشفت الروم من بين أيديهم كشفة قبيحة .

قال : وجعل قوم يقاتلون ، وقوم ينقبون السور نقبا واسعًا، وبادر يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري فدخل الحصن من ذلك النقب وجعل يقاتل أهل الحصن وحده، فلم يزل كذلك حتى قطعت إحدى قدميه، ووثب قائما على تلك الحالة يقاتلهم على فرد قدم وهو يقول:

أضرب بالسيف على فردِ قَدَمْ والحرُّ لايجزع من وقع الألم
والموت بعد الإلف أشفى للقَرِم مع الذي أرجوه من باري النَّسَم
أرجو جنانا حققت كل النعم معْ فتية كانوا لعمري كالبَهَم[1]
في مجمع الحرب إذا الحرب اضطرم خوفا من الله العزيز ذي النِّقم

قال : فلم يزل الأنصاري يقاتلهم وحده ويدفعهم عن ذلك حتى دخل إليه إخوته الثلاثة ، فأعانوه ودفعوا الروم عن ذلك النقب، ثم إنهم كبَّروا وصاحوا بأصحاب مسلمة ، فدخل الناس من ذلك النقب وفتحوا باب الحصن، والأنصارى ينزف الدم من رجليه حتى مات رحمه الله وقُتل الثلاثة الذين كانوا معه - رحمة الله عليهم أجمعين[2].

وهكذا ضرب هؤلاء الفتية المدنيون أمثلة رائعة في الشجاعة

---

(١) يعني أنهم كانوا صغارا ، شبههم بصغار الغنم .

(٢) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٥ - ١٣٤ ط دار الكتب العلمية ، و٣/ ٦٥ ٧٥ ط دار الفكر.

والإقـدام والتضـحيـة ، فـشاركـوا في المبـارزة التي هي أخطر أنواع الحرب، وكل واحـد منهم يتعـرض للشهـادة ويتمناها، ولما ظفـر بها بعضهم قصد الباقون مواقع الخطر ليلحقوا بإخوانهم ، فكانوا أول من دخل في ذلك النقب الذي يُفـضي إلى داخل حصن الروم، والـغالب على من يقتـحم ذلك المضيق أنه يُقتل لأن الأعداء يكونـون قد أعدوا العدة له ، فظفر هؤلاء الفتـية بالشهادة جميعـا بعدما أثخنوا في الروم وفتحوا الطريق للمسلمين ليدخلوا من ذلك النقب .

وتمَّ فتح مديـنة « طوانة » وكان لهؤلاء الفتـية مشاركة فـعالة في ذلك الفتح، وطُوي ذكرهم في الدنيا ولكن فُتحت لهم صفحة جديدة في الآخرة ، حيث انضـموا إلى قافلة الشهداء، فتـجددت لهم الحياة الخالدة بعدما فقـدوا الحياة الفانية ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

* * *

فتح عمورية :

لما انتهى المسلمون من فتح طوانة سار مسلمة بن عبد الملك بالجيش الإسلامي إلى عمورية، وبلغ ذلك أميرها « شمعون » فوجه إلى المسلمين قائدًا من قادته يقال له « وَرْسيب » ومعه أربعون ألفا، وأقبل شمعون من ورائه ومعه ثمانون ألفا ، وبلغ ذلك مسلمة فوجه قائده البطَّال بن عمرو في مقدمته ومعه عشرة آلاف بكامل تجهيزهم، فالتقى بمقدمة جيش الروم ، واقتتلوا ، وأسرع القتل في المشركين، وحمل « ورسيب» على البطال وهو لايعلمه، وعلم البطال أنه ورسيب فضربه على رأسه فقدَّ البيضة والهامة وخر ورسيب قتيلا وانهزم جيشه .

وعلم بذلك شمعون فزحف بخيله ورَجله يريد لقاء المسلمين وأرسل البطال بن عمرو إلى مسلمة فخبَّره بذلك، فأقبل مسلمة بجماعة المسلمين ، فالتقوا بأعدائهم واقتتلوا قتالا شديدًا، وترجَّل مسلمة فنزل عن فرسه ونزل الناس معه ، وصاح صائح المسلمين: أيها الأمير البشرى فقد قتل الله شمعون ، فكبَّر مسلمة وكبر المسلمون معه، وإذا بالبطال قد أقبل وفي يده رأس شمعون حتى ألقاه بين يدي مسلمة .

فعند ذلك وثب مسلمة واستوى على فرسه واستوى الناس معه على خيولهم ، ثم حمل وحمل الناس معه ، وانهزم الروم وولوا الأدبار، وأسرع المسلمون إلى باب عمورية فدخلوها بالسيف عنوة، فقتلوا مقاتلتها وغنموا أمتعتها وأموالها .

وكان للمسلمين أشعار حماسية في تلك المعركة منها قول عبدالرحمن بن صعصعه بن صوحان العبدي :

أنا ابن عبد القيس جدِّي صعصعة ذو البأس والإقدام عند المعمعة

إذا التقى الأبطال وسْط المعمعة والروم قد سارت إلينا مجمعة

ومن يخاف الله فاللهُ معه

ومنها قول عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي :

أنا ابن ذي الفضل فتى بجيله جرير شيخي وله فضيله

فضيلة عظيمة جليله من النبيِّ صاحب الوسيله (1)

وفي هتين المعركتين أظهر المسلمون بسالة عالية وثبتوا لأعدائهم ثباتًا عظيما، فقد انتصرت مقدمة جيش المسلمين المكونة من عشرة آلاف بقيادة البطال بن عمرو على مقدمة جيش الروم المكونة من أربعين ألف مقاتل بقيادة ورسيب ، وكان للبطال بن عمرو الأنطاكي أثر كبير في المعركتين حيث قتل قائد المقدمة ورسيب وقائد جيش الروم أمير عمورية شمعون ، ومعلوم أن قتل قادة العدو يوقع الفشل في صفوفهم ويقودهم إلى الهزيمة كما تقدم لنا أمثلة لذلك .

* * *

(1) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٥ - ١٣٦ .

فتح نقفورية :

ثم سار مسلمة بن عبد الملك من عمورية يريد مدينة نقفورية فلما أشرف المسلمون عليها إذا هم بنقفور الأكبر قد خرج إليهم في زهاء سبعين ألف فارس سوى الرجالة ، فلما نظر إلى جيش المسلمين صاح بأصحابه : أن احملوا ، وحمل معه أصحابه، فانكشف المسلمون أمامهم وقتل منهم جماعة ، فنادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته: ياأهل الشام لاشام لكم ، وياأهل العراق لاعراق لكم ، وياأهل مصر لامصر لكم ، إن أنتم ولَّيتم الأدبار ، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين .

ونادى محمد بن مروان وقال : ياأهل الإسلام أما تستحيون أن ينهزم أهل الدين والقرآن من بين أيدي الكفرة وعبدة الصلبان ! أما ترغبون فيما رغبكم فيه ربكم وأتاكم به نبيكم [من] النصر، والله ينصركم ويثبت أقدامكم .

فعند ذلك صدقت عزائم المسلمين وتراجعوا إلى الروم ، والتحم القتال، وحمل نقفور على مسلمة بن عبد الملك فضربه ضربة على بيضته [والبيضة مايلبس على الرأس من الحديد للوقاية] فنكَّسه إلى الأرض ، ثم صاح بالروم فحملوا على المسلمين حملة كادوا أن يزيلوهم عن مواقفهم غير أنهم ثبتوا للروم وأشرعوا الرماح في وجوههم، ورشقوهم بالسهام ، ورجعت الروم إلى ورائها، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه ثم نادى بأعلى صوته : أيها الناس إليّ إليّ، أنا مسلمة بن عبد الملك : يوجب الله لكم الرضوان ، فاجتمع

عليه الناس ثم تواصوا بالصبر، ووعظ بعضهم بعضا، وحملوا على الروم كحملة رجل واحد ووضعوا فيهم السيوف، وكان نقفور أول قتيل.

وعلمت الروم بمقتل نقفور فولّوا الأدبار والسيف يأخذهم حتى صارت القتلى بينهم كالتلول بعضهم على بعض.

وسبق البطال بن عمرو وجماعة من المسلمين إلى باب مدينة نقفور، فهجموا على أهلها فقتلوا من قدروا عليه، وأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين حتى أحاطوا بالمدينة فاجتمعوا عليها، وغنموا مافيها [1]

وبعد: فهذه معركة كبرى من معارك المسلمين التي خاضوها ضد الروم، وقد كاد المسلمون فيها يتعرضون للإبادة مرتين، لأنهم لو انهزموا انهزاما كليا فلن يبقى منهم أحد حيث لاحصون لهم إلا ظهور الخيل.

وإن أبرز مواقف هذه المعركة قوة المسلمين الفائقة في الصبر واحتمال الشدائد، وسرعة الإفاقة بعد الصدمة الهائلة المباغتة، ففي تراجعهم الأول أمام هجوم الأعداء الصاعق ناداهم القائد مسلمة بن عبد الملك وذكرهم بأن مسئولية بقاء بلاد الإسلام بيد المسلمين معلقة بأعناق ذلك الجيش لأن الروم لن يكتفوا بهزيمة ذلك الجيش المنتخب بل سيتقدمون لاستعادة الشام وغيرها، وهذه لفتة جيدة حيث اعتبرهم حماة المسلمين وحراس دولة الإسلام، فعظَّم في نفوسهم

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٧ - ١٣٨.

الشعـور بالمسئولـية ، وانطلقوا في هجـومهم على الأعـداء بطاقاتهم الكاملة، كـما ذكَّرهم مـحمـد بن مروان بما وعـده الله تعالى لعـباده المجاهدين في سبيله من النصر والتمكين ، فكان لذلك أثره في ربطهم بالله تعالى واستمدادهم النصر منه جل وعلا .

ومن دلائل ثبات المسلمين وإخـلاصهم لدينهم أنهم لم يتزعـزعوا لما سقط قائدهم على الأرض، بل ثبتوا لهجوم الروم حتى ردوهم على أدبارهـم، وهذا مثل لإدراك المسئولية وحسن التصرف عند المفاجآت.

وفي قيام مسلمة بعد ذلك وإعـلانه عن موقعه ونداء المسلمين إليه دلالة على شجاعته حيث إن هذا الإعلان والنداء سيلفت أنظار الأعداء إليه .

* * *

فتح السماوة الكبرى :

وقد استمر المسلمون في سيرهم وفتوحاتهم وتوغلوا في بلاد الروم، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن أعثم الكوفي: وسار المسلمون نحو مدينة « السماوة الكبرى » وبها يومئذ بِطْريق من البطارقة الرومية يقال له « إفريطون » في ثمانين ألفا من الروم ، وقد حصَّن السماوة قبل ذلك، ونصب على سورها عشرين منجنيقا وثلاثين عرادة (١) ، قال: فنزل مسلمة والمسلمون على السماوة ، ثم أمر بمجانيقه فنُصبت عليها من كل جانب وترامى الفريقان رميا متداركا ، ودامت الحرب بينهم أربعين يوما لايفترون عن ذلك ليلا ولانهارا .

فلما كان بعد ذلك أقبل بطريق من بطارقة الروم يقال له : «قرطس» إلى مسلمة بن عبد الملك حتى وقف بين يديه في جوف الليل فكفَّر له (٢) وقال : أيها الأمير إن السماوة حصن حصين، وفيها خلق كثير ، وليس يتهيأ لك أن تفتحها إلا أن يُفتح لك من داخلها فتدخلها ، وإنْ أفريطون هذا صاحب السماوة قد أساء إليّ ، وغصبني على ابنة لي فأخذها مني قهرا ، وقد عزمت على أن أفتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك ، فإذا أصبحت فعبئ أصحابك ، واقترب من باب المدينة ، والْقَ الحرب بينك وبين الروم ، وقدِّم أبطال عسكرك بين يديك فإني فاتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك .

قال : فقال له مسلمة : إن أنت فعلت ذلك حملتك وكسوتك وبررتك بعشرين ألف درهم وخلطتك بأصحابي .

---

(١) هي نوع من آلات الرمي أصغر من المنجنيق .

(٢) يعني وضع يده على صدره وطاطأ رأسه تعظيما على عادتهم .

قال : فقال له قرطس : أيها الأمير إذا دخلت المدينة فافعل من ذلك ماأحببت ، قال : ثم رجع قرطس إلى المدينة .

فلما كان من غد عبّى مسلمة أصحابه كما كان يعبيهم قبل ذلك، ثم دنا من باب المدينة - وهي السماوة - وبين يديه البطال بن عمرو في فرسان من أصحابه ،قال :ثم عَطْعَطَت الروم[1] ، وكبَّر المسلمون فاختلط الفريقان ،واشتبكت الحرب على باب المدينة ، وفتح ذلك البطريق الباب ، واقتحم المسلمون معه ، فجعلوا يقتلون ويأسرون.

قال : وفتح أفريطون بابًا آخر من أبواب السماوة وخرج هاربا على وجهه ومعه خلق كثير من أصحابه حتى صار إلى مدينة من مدن الروم يقال لها المسيحية [2] .

وبعد : فإن في هذا الخبر مثلا من استعداد المسلمين الجيد، وذلك من ناحية إعداد القوة لقتال الأعداء بما يتناسب مع عصرهم، حيث كانوا يحملون معهم عدداً من المجانيق التي تعادل المدافع في العصر الحاضر ، وقد كان عددها وافرًا حيث أحاطوا بها على المدينة المحاصرة، وهكذا يجب علي المسلمين أن يطبقوا قول الله تعالى **﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾** [3] ليكونوا في ذلك

---

(١) يعني نادوا بالحرب على طريقتهم .

(٢) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٩ - ١٤٠.

(٣) سورة الأنفال / ٦٠ .

على الأقل مثل أعدائهــم، إلى جانب مايتفوقــون به على جميع الأمم من السلاح المعنوي .

وفي هذا الخبــر مثل حَيّ لأثر العدل ومكارم الأخــلاق في كسب القلوب والظفر بولائهــا ونصرتها ، بغضٍّ النظر عن العــوامل الأخرى التي تقتــضي الولاء والنصرة ، والتي أبرزها الاتفــاق في الدين ، ثم الاتفاق في اللغة والوطن والروابط الدنيوية .

كمــا أن فيــه مثــلا حيــا لأثر الظلم ومســاوئ الأخلاق في نــفرة القلوب ومــيلهــا إلى الانتقــام ، والتــشفي مــن الظالمين ، بالرغم من الاتفاق في العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة .

فهذا القائد الــرومي الذي كان من عظماء ذلك البلد والذي أعلن ولاءه للمسلــمين واستعــداده لنصرتهم ، ثم قــام بتنفيــذ ذلك حسب اتفاقه مع المــسلمين ، إنما دفعه إلى ذلك اعتــباران : الأول أنه تعرض للظلم وانتــهاك العرض على يد أمــير تلك المدينة ، فنفــر منه وتربص الفرصة المناسبة للانتقام منه ، ولاشك أن النفــوس الأبية تتحمل كثيراً من أنواع الظلم ولكنها لاتتحمل انتهاك أعراضها .

والاعتبار الثاني : ملاحظة ماشتهر به المسلمون من العدل ومكارم الأخلاق ، حيث كانت أخبارهم الطيبة في ذلك تسبقهم إلى كل مكان يريدون فتحــه ، فتكون نفوس الشعــوب مهيأة لقــبول حكم المسلمين والاستنصار بهم على الظلمة الجبارين .

فلو كان المسلمــون المحاصرون لتلك المديــنة من جملة الأمم التي تريد الهيمنة على الأرض لبــسط جبروتها وظلمها لَمَــا كان هناك فرق

بينها وبين ذلك الجبار المسيطر على تلك المدينة ، وإذًا فتحمُّل جبروت القريب أولى من تحمل جبروت البعيد، ولكن لما سَبَقَتْ أخبار المسلمين وسيرتهم الحميدة في فتوحاتهم كان ذلك مشجعا لكل من مال إلى تقدير مكارم الأخلاق أو تعرض لظلم من طغاة قومه وجباريهم إلى أن ينحاز إلى صف المسلمين وأن يُظهر نصرتهم .

وفي هذه الحادثة عبرة لأصحاب المسئولية ، كي لايستهينوا بمن تحت ولايتهم ، وأن لايغتروا بما في أيديهم من القوة والسلطان ، فإن النفوس الأبية تصبر على الضيم مادامت تحت الغلبة والهيمنة ، فإذا لاحت لها فرصة للتشفي والانتقام سارعت إلى اغتنامها، وهذا الشعور سائد في عموم البشر ، ولكن المسلمين خاصة يتقيدون في كل تصرفاتهم بشرع الله تعالى ، حيث يغلِّبون جانب المصالح العامة على المصلحة الخاصة ، ويراعون جانب الإبقاء على دولة الإسلام والحفاظ على عزة المسلمين .

هذا وإن ماسخَّره الله تعالى في هذه المعركة من خروج ذلك الرومي الذي أبدى استعداده لنصرة المسلمين يعتبر مثلا من أمثلة تأييد الله تعالى لأوليائه المؤمنين لَّما كانوا أهلا لذلك ، ولَمَا يريد الله سبحانه بهم من إعزاز الإسلام ، فقد كانت تلك المدينة من المناعة بحيث يصعب على المسلمين فتحها من خارجها فقيض الله للمسلمين من يفتحها لهم من الداخل بدون تدبير منهم .

* * *

فتح مدينة المسيحية :

قال ابن أعثم الكوفي : واقترب المسلمون من المسيحية ، وبلغ ذلك إفريطون صاحب السماوة ، فنادى في جميع النصرانية فاجتمعوا إليه ، فخرج بهم من المسيحية ، وبين يديه بطريق يقال له : شمس في ثلاثين ألفا ، وإفريطون من ورائه في أربعين ألفا .

قال : فدنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالا شديدًا وحملت الروم بأجمعها على عساكر المسلمين حملة فهزموهم حتى ألحقوهم بالسماوة ، وقد قُتل منهم جماعة ، ثم رجع المسلمون عليهم فهزموهم حتى ألحقوهم بالمسيحية ، واشتبكت الحرب على باب المسيحية .

قال : وجعل « شماس » البطريق يحمل على المسلمين حملة بعد حملة فيقتل ويرجع إلى أصحابه ، حتى قتل نفرا من المسلمين .

قال : وحملت قبيلة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المؤمنين ، وتقدم أفريطون صاحب السماوة في جمهور بطارقة الروم ، فجعل يكافئ المسلمين .

قال : وقصده محمد بن عبد العزيز [يعني بن مروان] على فرس له أصدى [(١)] وهو يرتجز ويقول :

قد علم الروم ومن والاها ... وكل علج أقلف ساواها

أنّي إذا الحرب خَبَتْ لظاها ... ألقيتُ أخراها على أولاها

---

(١) يطلق الصَّدَى على لطافة الجسم .

قال : واختلفا بطعنتين ، طعنه إفريطون طعنة فقتله، قال: فاغتمَّ المسلمون لقتل محمد بن عبد العزيز غمّا شديدًا ، وتقدم البطال بن عمرو حتى وقف حذاء إفريطون وهو يقول :

لابد من عرض ومن مقام على مليك صمَدٍ منعْام
فجاهدي يانفس لاتُلامي بكل عَضْبَ ذكَرٍ حسام

ثم حمل البطال على إفريطون ، والتقيا بطعنتين ، طعنه البطال طعنة جدَّله قتيلا ، ثم نزل فاحتز رأسه ورفعه على رمحه ، ثم كبَّر وكبر المسلمون معه .

قال : ونظرت الروم إلى رأس إفريطون وقد رفع فانكسروا لذلك انكسارا ، وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب ، فولَّوا الأدبار وكَبَسَتْهم خيل المسلمين ، وأخذتهم السيوف ، فقُتل منهم خلق كثير وانهزم الباقون على وجوههم ، وسلَّموا مدينة المسيحية بجميع مافيها . فدخلها المسلمون عنوة فقتلوا من قتلوا ، واحتووا على غنائمها (١).

هذا وإن في هذه المعركة ثلاثة مواقف نعلق عليها بإيجاز :

الموقف الأول في مقدرة المسلمين الحربية التي تمثلت في سرعة عودتهم إلى القتال بعد الانهزام ، وهذا يدل على أن ماحصل لهم إصابة مؤقتة بسبب حرب مفاجئة لم يُعدُّوا لها أو بسبب تقصير في تطبيق بعض عوامل النصر ، ثم عادوا بعدها أقوى مما كانوا ،ودحروا قوة أعدائهم .

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٤٠ - ١٤١ .

والثانـي موقف محمد بن عبد العزيز بن مروان لما أقدم على مبارزة ذلك الرومي الشجاع ، وإن محط الإعجاب في ذلك ليس في مجرد المبارزة ، وإنما هو في كون أبناء الأمراء آنذاك ينافسون غيرهم في خوض غمار أقسى مراحل الحرب ، ويغامرون بأنفسهم في موقف يكونون فيه أقرب إلى الموت ، وهذا دليل على علو التربية الجهادية التي كان الأمراء آنذاك يأخذون بها أبناءهم .

أما الموقف الثالث فهو في شجاعة البطال بن عمرو وإقدامه على مبارزة ذلك الرومي الذي قضى قبله على صاحبه محمد بن عبدالعزيز، وإن مظاهر الشجاعة تبدو في هذا الموقف في مقدرته على الاحتفاظ بمعنويته وإقدامه ، مع ماشاهده من مصرع صاحبه ، وعدم تهيُّبه من ارتفاع معنوية ذلك الرومي بسبب ماأحرز من نصر . ثم إن عظمة هذا البطل المقدام تبدو في سرعة استحضاره لعظمة الله تعالى في ذلك الموقف ، وماسيُقدم عليه هو وغيره من العرض على الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب ، وإن هذا الذكر القلبي واللساني يعطي المجاهد أقوى دفعة من الطاقة والثبات وتجاوز الأهوال، وبهذه المعنوية العالية التي اكتسبها من ذكر الله تعالى استطاع أن يقضي على مبارزه العنيف في أسرع وقت .

* * *

فتح مدينة « بدروق » :

ذكر ابن أعثم أن المسلمين قضوا فصل الشتاء في مدينة «المسيحية» ثم زحفوا منها إلى « بدروق » فلما علم بذلك أميرها « لبوس» استنجد بملك الروم فأمده بخمسين ألفا إضافة إلى جيشه البالغ ثلاثين ألفا .

ولما دنا منهم المسلمون كبَّروا ثلاث تكبيرات فامتلأت قلوب الكفار رعبًا وخوفا ، وتقدم قائدهم « لبوس» أمام جيشه ، فنظر إليه البطال ابن عمرو وقد انبرى من بين أصحابه ، فاستأذن مسلمة بن عبد الملك في الخروج إليه فقال له مسلمة : أذنت لك ولكن انظر أين تضع رمحك، فقال البطال بن عمرو : كُفيتَ أيها الأمير ، ليس مثلي يحتاج إلى الوصية في مثل هذا الوقت .

ثم جعل البطال بن عمرو يرتجز ويقول:

قل للأمير ذي الصِّيال مسلمة   وابن الكرام السادة المكرَّمة
ومُقعصي الأبطال يوم الملحمة   إني أنا البطال جدي علقمة
كم ساعدٍ وبيضةٍ وجمجمة   طرحتها عند هياج الغمغمة
وأسْمَر روَّيته من غلصمة   وأنت محمود بكل مكرمة

ثم رفع رأسه وخرج من الصف ، فجال جولة ثم حمل على قلب الروم ، وأمكنته الفرصة من « لبوس» فحمل عليه فضربه بسيفه ضربة فلق تاجه وهامته فخر قتيلا ، وانهزم الروم بغير قتال، فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وفرَّ الباقون على وجوههم

لايعرِّجون على شيء حتى لحقوا ببحر القسطنطينية واقتحم المسلمون مدينة بدروق فاحتووا غنائمها وكانت كثيرة .

ثم انشأ البطال بن عمرو يقول :

لقد علم الروم الأراجس أننا قتلنا لدى الهيجاء منها رئيسها

تركنا لبوسا في القتام مجدَّلاً فَقَبَّح ربي ذو الجلال لبوسها

ونحن أبَدْنا في العجاج كُماتَهم ونحن هزمنا جيشها وخميسها

ونحن إذاماالحرب شبت وأرهجت

نخوض لظاها عنوة ووطيسها

ونحن قسمنا فيئها ونساءها ببدروق لما أن أثرنا شريسها

وكان لبوسٌ كهفها وعمادها وكان لعمري ليثها وهموسها

وكانت له الأبطال تسطو لأنه إذا ناب أمر لم تجده حَسيسَها

وسوف نُكِرُّ الخيل فينا شوازبا عنّا جِيجَ تبدي في الغبار جَسيسَها

نريد بها «أليون» كيما نثيره

ونشفي لدى الحرب العوان نفوسها[1]

وهكذا عمل البطال كما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يصنع حينما كان يختطف قادة الأعداء فتنهزم جيوشهم في الحال، فكم أنجبت الأمة الإسلامية من أبطال عظماء كفوا جيوشهم كثيراً من المواجهات القتالية وأحرزوا النصر العظيم لأمتهم .

---

(١) الفتوح لابن أعثم بتصرف ٧/ ١٤١ - ١٤٣ .

- جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك -

محاصرة القسطنطينية :

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث بشر بن سحيم رضي الله عنه : أنه سمع النبي ﷺ يقول : لتفتحنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش .

قال : فدعاني مسلمة بن عبد الملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية(١) .

وقد ذكر الحافظ الذهبي خبر حصار القسطنطينية من رواية سعيد ابن عبد العزيز قال: أخبرني من أدرك ذلك أن سليمان بن عبد الملك همّ بالإقامة ببيت المقدس، وجمع الناس والأموال بها، وقدم عليه موسى بن نصير من المغرب، ومسلمة بن عبد الملك ، فبينما هو على ذلك إذ جاءه الخبرُ أن الروم خرجت على ساحل حمص فسبَتْ جماعةً فيهم امرأة لها ذِكْر، فغضب وقال: ماهو إلا هذا، نغزوهم ويغزونا، والله لأغزونَّهم غَزوة أفتح فيها القسطنطينية أو أموت دون ذلك. ثم التفت إلى مسلمة وموسى بن نصير فقال: أشيروا عليّ. فقال موسى : ياأمير المؤمنين ، إن أردت ذلك فسر سيرة المسلمين فيما فتحوه من الشام ومصر إلى إفريقية، ومن العراق إلى خراسان، كلّما فتحوا مدينة اتخذوها دارًا وحازوها للإسلام، فابدأ بالدُّرُوب فافتح مافيها من الحصون والمطامير والمَسالح ، حتى تبلغ القسطنطينية وقد هُدِّمت حصونها وأوهيتْ قوتها، فإنهم سيعطون بأيديهم . فالتفت إلى

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٣٥ .

مسلمة فقال :ماتقول؟ قال: هذا الرأي إن طال عُمرٌ إليه أو كان الذي يأتي على رأيك ولاينقضه رأيتُ أن تعمل منه ماعملت ولايأتي على ماقال خمس عشرة سنة ، ولكنّي أرى أن تُغْزِيَ جماعةً من المسلمين في البرّ والبحر القُسطنطينية فيحاصرونها ، فإنَّهم مادام عليهم البلاء أعطوا الجزية أو فتحوها عَنْوة ، ومتى مايكون ذلك فإنّ مادونها من الحصون بيدك . فقال سليمان : هذا الرأي . فأغزى جماعة أهل الشام والجزيرة في البرّ في نحو عشرين ومائة ألف، وأغزى أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب، عليهم عمر بن هُبيرة الفَزَاريّ، وعلى الكُل مسلمة بن عبد الملك .

قال الوليد بن مسلم : فأخبرني غيرُ واحد أن سليمان أخرج لهم الأعطية ، وأعلمهم أنّه عزم على غزو القسطنطينية والإقامة عليها : فاقدروا لذلك قدْره، ثم قدم دمشق فصلّى بنا الجمعة، ثم عاد إلى المنبر فكلم الناس ، وأخبرهم بيمينه التي حلف عليها من حصار القسطنطينية : فانفروا على بركة الله تعالى ، وعليكم بتقوى الله ثم الصبر، وسار حتى نزل دابقًا ، فاجتمع إليه الناس، ورحل مسلمة.

قال الذهبي : وأما مسلمة فسار بالجيوش ، وأخذ معه إليون الرومي المرعشي ليدله على الطريق والعوار، وأخذ عهوده ومواثيقه على المناصحة والوفاء ، إلى أن عبروا الخليج وحاصروا القسطنطينية، إلى أن برَّح بهم الحصار ، وعرض أهلها الفدية على مسلمة ، فأبى أن يفتحها إلا عنوة ، قالوا : فابعث إلينا إليون فإنّه رجل منا ويفهم كلامنا مشافهةً ، فبعثه إليهم، فسألوه عن وجه الحيلة، فقال : إن

ملَّكتموني عليكم لم أفتحها لمسلمة، فملّكوه ، فخرج وقال لمسلمة: قد أجابوني أنهم يفتحونها ، غير أنهم لايفتحونها مالم تُنَحِّ عنهم، قال: أخشى غدرك، فحلف له أن يدفع إليه كلَّ مافيها من ذهب وفضَّة وديباج وسبْي، وانتقل عنها مسلمة، فدخل إليون فلبس التاج، وقعد على السرير، وأمر بنقل الطعام والعُلوفات من خارج، فملأوا الأهراء[1] وشحنوا المطامير، وبلغ الخبر مسلمة ،فكرّ راجعًا ، فأدرك شيئا من الطعام، فغلَّقوا الأبواب دونه، وبعث إلى إليون يناشده وفاءَ العهد، فأرسل إليه إليون يقول : مُلك الروم لايبايع بالوفاء، ونزل مسلمة بفنائهم ثلاثين شهراً ، حتى أكل الناس في العسكر الميتةَ ، وقُتل خلق ، ثم ترحل [2].

هذا وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك قد فزع من وصول الروم في غزوهم إلى وسط الشام، فاستشار القائدين الكبيرين موسى بن نصير ومسلمة بن عبد الملك في غزو الروم وفتح القسطنطينية، فكان رأي موسى بن نصير عدم التوجه إلى القسطنطينية أوَّلاً ، وإنما تفتح بلاد الروم شيئا فشيئا فكلما فتح المسلمون مدينة نزل بها طائفة منهم واتخذوها داراً ، فإذا بلغ المسلمون عاصمة ملك الروم كانوا قد ضعفوا فيسهل فتحها، وقد وافقه مسلمة على أن هذا هو الرأي ، لكنه أبان بأن هذا الغزو سيستمر خمس عشرة سنة وأن نجاحه لايتم إلا إذا طال عمر أمير المؤمنين حتى ذلك

---

(١) جمع هُري وهو بيت كبير يجمع فيه الطعام .

(٢) تاريخ الإسلام / حوادث ٨١-١٠٠ص ٢٦٩ - ٢٧١ ، وانظر تاريخ الطبري٦/ ٥٣٠ والكامل لابن الأثير ٤/١٤٦ .

التاريخ أو كان من يأتي بعده على هذا الرأي، ولما كان يعلم أن ذلك لن يتم لحرص سليمان بن عبد الملك على الإسراع في فتح القسطنطينية فإنه قد أشار برأي آخر وهو غزو تلك المدينة بجيش مكثف من البر و البحر ، وقد وافق سليمان على هذا الرأي بالرغم من كونه مخالفا لآراء أهل الخبرة الحربية .

ولقد كان الرأي الذي أدلى به موسى بن نصير هو العمل الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في كل فتوحاتهم ، فلذلك نجحوا في القضاء على المدائن عاصمة الفرس، وبدؤوا طريقهم للقضاء على القسطنطينية عاصمة الروم بفتح الشام كله وتحويله إلى بلاد إسلامية.

ولقد بذل المسلمون جهودا عظيمة في هذه الغزوة حتى بلغوا القسطنطينية وأثخنوا في الروم وكادوا أن يفتحوا عاصمة بلادهم لولا نفاد المؤن التي كانت معهم كما جاء في هذا الخبر، ولو أنهم وصلوا إلى تلك المدينة بعدما فتحوا ماقبلها من بلاد الروم وحولوها إلى بلاد إسلامية لكان أمر تموين الجيش بالغذاء سهلا ميسوراً .

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في خطر وضع الثقة بالأعداء وإن عاشوا فترة طويلة مع المسلمين ، لأنهم لن يعاملوا قومهم بالخيانة ويعاملوا المسلمين بالوفاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وإنما قد يستكينون للمسلمين ويداهنونهم ماداموا تحت قبضتهم، فإذا ملكوا أمرهم بدت عداوتهم في أعنف صورها .

وفي هذا الحصار يقول الحافظ ابن كثير : وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة، وجاع المسلمون عندها جوعا

شديدًا، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، فحلف مسلمة أن لايقلع عنهم حتى يبنوا له جامعا كبيراً بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعا ومنارة ، فهو بها إلى الآن يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة .

قال : وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ومساع مشكورة وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونا وقلاعا ، وأحيى بعزمه قصورا وبقاعا ، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثرة مغازيه وكثرة فتوحه وقوة عزمه وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه [1] .

---

(١) البداية والنهاية ٣٤١/٩ - ٣٤٢ .

- جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك -

مازال المسلمون في جـهاد مع الروم ، ومن أبرز معاركـهم معهم ماجـرى في عهـد أميـر المؤمنين هشـام بن عبـد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومـائة حيث بعث جيشًـا بقيادة ابنه سليمـان بن هشام وكان أمير العسـاكر المرابطين هناك مالك بن شبيب وكـان معه بطل المسلمين في ذلك الزمن عـبد الله البطـال ، فجـاء الخبـر إلى البطال بأن ملك الروم « إليون » قد خرج من القسطنطينيـة في مائة ألف فارس، فأخبر بذلك مالك بـن شبيب وقـال له : المصلحة تقـتضي أن نتـحصن في مدينة حران فنكون بها حتى يقدم عـلينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، فأبى عليه ذلك ، ودهمهم الجيش ،فاقتتلوا قتالا شديداً، والأبطال تحوم بين يدي البطال ولايتـجاسر أحد أن ينوِّه باسمـه خوفا عليه من الروم فـاتفق أن ناداه بعضهـم وذكر اسمه غلـطا منه ، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حـملة واحدة فاقتلعوه من سرجه برمـاحهم فـألقوه إلى الأرض، ورأى الناس يَقْـتُلون ويأسرون وقُـتل الأميـر الكبير مالك بن شـبيب، وانكسر المسلمـون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها .

وأصبـح إليون فـوقف على مكان المعركـة فإذا البطال بآخـر رمق فقال له : ماهذا ياأبا يحيى ؟ فقـال: هكذا تُقتَل الأبطال ، فاستدعى إليون بالأطباء ليـداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقـاتله ، فقال له إليون: هل من حاجة يا أبا يحـيى ؟ قال : نعم ، تأمر مَن معك من

المسلمين أن يَلُوا غسلي والصلاة علي ودفني ، ففعل الملك ذلك ، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى [1] .

وهكذا ختم الله تعالى حياة هذا البطل بالشهادة التي كان يدعو الله جل وعلا بالتوفيق إليها بعدما أثخن في الأعداء ودوخهم وأرعبهم عقودًا من الزمن، فماأعظم تلك الحياة الحافلة بالجهاد ومواجهة الأهوال والمخاطر ! وماأسمى تلك النهاية التي ختمت بها تلك الحياة!!

وقد كان ملك الروم « إليون » يعرفه جيدا لأن « إليون » كان مع المسلمين ، وخرج معهم إلى حصار القسطنطينية ، ثم خدعهم كما سبق، وملّكه الروم عليهم، والظاهر أن حرصه على علاج البطال وبقائه حيا من أجل أن يأخذه أسيرا فيساوم به قادة المسلمين لكون البطال من عظماء المسلمين وأبطالهم .

وقد كانت لهذا البطل مواقف جهادية عالية مرت علينا في عرض مواقف المعارك الماضية ، وكان له - بعد الله تعالى - فضل في انتصار المسلمين أكثر من مرة .

وبالرغم من شهرته وقوة أثره في حروب أهل الشام فإن المصادر التاريخية قد اختلفت في اسمه واسم أبيه وكنيته ، فبينما نجد في كتاب الفتوح لابن أعثم أن اسمه البطال بن عمرو ، نجد الحافظ ابن كثير يذكر اسمه عبد الله البطال ويذكر كنيته مرة أبا محمد ومرة أبا يحيى[2] واتفق معه ابن الأثير في تسميته عبد الله البطال ولكنه ذكر أن

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٤٥.

(٢) البداية والنهاية ٩/٣١٧ ، ٣٤٥ .

كنيته أبو الحسين ، واتفقا على نسبته إلى أنطاكيه لأنه كان قد نزلها [١] وذكره الإمام ابن تيمية في مناسبة بيان من نُسجت حولهم الأساطير لشهرتهم بالشجاعة وذكر اسمه عبد الله البطال وذكر أن كنيته أبو محمد[٢] .

ولعل له ابنا اسمه يحيى وآخر اسمه محمد وثالثًا اسمه الحسين فمرة يكنى بيحيى ومرة بمحمد ومرة بالحسين ، ولكنه قد اشتهر في الحروب باسم البطال سواء عند المسلمين أو عند الروم .

أما جيش المسلمين فإن بعضهم قتلوا وبعضهم أسروا ولجأ بعضهم إلى المدينة التي حولهم فتحصنوا فيها ، وقد انطلق إليهم « إليون» بجيشه فحاصرهم، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البُرُد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففرَّ إليون بجيشه إلى القسطنطينية فتحصن بها [٣] .

* * *

---

(١) الكامل ٤/٢٤٨ .

(٢) فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٣٥٢ .

(٣) البداية والنهاية ٩/٣٤٧ .

الجهاد مع الروم

فى

عهد العباسيين

حينما قامت دولة بني العباس عام اثنين وثلاثين ومائة شُغِل خلفاؤها بالحروب الداخلية ، ولم تستقر إلا في أواخر عهد المنصور الخليفة الثاني ، فلم يكن هناك جهاد إلا في عهد الخليفة الثالث المهدي، حيث بدأ الجهاد مع الروم .

ثم استمر الجهاد بعد ذلك مع الأعداء بنسبة قليلة متباعدة، وأغلبه جهاد الدفاع عن دار الإسلام .

وقد كان الجهاد في العهد العباسي موجها ضد ست من الأمم : الروم ، وأهل المشرق وأهل الهند ، والصليبيين ، والتتار ، ونصارى الأندلس .

وكان الجهاد في العصر العباسي الأول موجها من الخلفاء أنفسهم، وذلك إلى نهاية عهد المعتصم ، ثم أصبح موجها من الدويلات التي استقلت بشئون حكمها مع بقاء تبعيتها للدولة العباسية. وإن كان بعضها قد استقلت تماما كالدولة الأموية بالأندلس وماتلاها من دويلات .

علما بأن الدولة العباسية قد انتهت من بغداد في عام ستة وخمسين وستمائة عندما اجتاحها التتار، ولكنها عادت في عام ثمانية وخمسين في مصر حينما بايع الظاهر ببيرس أحد بني العباس بالخلافة كما سيأتي ، غير أنها ظلت خلافة بالاسم وكان الحكم بيد المماليك إلى أن قضى العثمانيون على المماليك فانتهى وجود الخلافة العباسية .

ومازال القتال دائراً بين دولة الإسلام ودولة الروم منذ عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلى أن زالت بلاد الشـام ومصر عن الروم في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ثم زال شمال أفريقية عنهم في عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وفي عهد بني أمية، ودخلت كل هذه البلاد في دولة الإسـلام ، ولكن الحروب ظلت بين الروم والمسلمين من جهة بلاد الشام ، وكـان إنشاء هذه الحروب غالبا من المسلمين ، ولكن دولة الروم كلما آنست من دولة الإسـلام ضعفا أغارت جيوشها على أطراف بلاد المسلمين .

١ - جهاد الروم في عهد المهدي والرشيد -

غزو القسطنطينية :

قام أمير المؤمنين هارون الرشيد بغزو بلاد الروم في عهد أبيه المهدي وبعد توليه الخلافة ، فالغزوة الأولى وجهَّهه فيها أبوه الخليفة المهدي، وفي ذلك يقول الإمام الطبري : ووجهه أبوه - فيما ذُكِر يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة [١] غازيا إلى بلاد الروم ،وضم إليه الربيع مولاه ، فوغل هارون في بلاد الروم،ولِقيَتْهُ خيول « نَقِيطَا » قومس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد [٢]، فأرجل يزيد، ثم سقط « نقيطا » فضربه يزيد حتى أثخنه ، وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم .

قال : وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي عليه القسطنطينية، وصاحبُ الروم يومئذ « أَغُسْطه » امرأة أليون، وذلك أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو في حجرها ، فجرت بينها وبين هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية ، فقبل ذلك منها هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق [٣] في طريقه ، وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفًا على المسلمين ، فأجابته إلى ماسأل .

---

(١) يعني من سنة خمس وستين ومائه .

(٢) هو يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني أمير أرمينية وأذربيجان وكان من الشجعان المشهورين.

(٣) أي المشتملة على ما يحتاجه المسافرون .

قال : وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وسُلِّمت الأسارى[1].

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية، منها موقف يزيد بن مزيد الشيباني حينما بارز قائد الروم « نقيطا » فقتله ، وكان ذلك سببا في انهزام جيشه ، وهكذا كان جهد هذا القائد الشجاع يزيد بن مزيد مغنيا عن جهود كبيرة سيبذلها المسلمون في مقاومة الروم لو ظلوا على إقدامهم ومعنوياتهم الأولى ، ولكن حينما تحطمت معنوياتهم بقتل قائدهم سَهُل على المسلمين هزيمتهم .

ومن المواقف الجهادية العالية وصول المسلمين بقيادة هارون الرشيد إلى القسطنطينية ، وهذا يعتبر مغامرة جريئة لبعد ذلك المكان عن دار الخلافة ، وقد وصلها المسلمون قبل ذلك عدة مرات أهمها وأعظمها وصولهم إليها أول مرة في خلافة معاوية رضي الله عنه بقيادة ابنه يزيد كما تقدم .

فتح هرقلة الأول :

أما جهاد هارون الرشيد في بلاد الروم في خلافته فقد تكرَّر عدة مرات أبرزها ماذكره الإمام ابن جرير الطبري بقوله : فذُكِر أن نقفور لما ملك واستوسقت له الروم بالطاعة[2] كتب إلى الرشيد :

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخّ وأقامت نفسها مقام البيدق[3] ،

(١) تاريخ الطبري ٨/ ١٥٢ – ١٥٣ باختصار .

(٢) أي ثبتت طاعة الروم له .

(٣) هذا تعبير عن ظهورها أمام الرشيد بمظهر الضعف .

فحملت إليك من أموالها ماكنت حقيقا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ماحصل قِبَلَك من أموالها، وافْتَدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

قال: فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ماتراه دون أن تسمعه، والسلام.

ثم شَخَص من يومه وسار حتى أناخ بباب « هرقلة » ففتح وغنم، واصطفى وأفاد، وخَرَّب وحرَّق واصْطَلَم[1]، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرَّقَّة نقض نقفور العهد وخان الميثاق، وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته إليه، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفاقًا عليه وعلى أنفسهم من الكَرَّة في مثل تلك الأيام.

وذكر أنهم احتالوا عليه بإنشاد الشعر المتضمن ذلك، ومنه قول الحجاج بن يوسف التيمي:

نقضَ الذي أعطيته نقفور	وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أميرَ المؤمنين فإنه	غُنْمٌ أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعيه أن أتَى	بالنقض عنهُ وافد وبشير

(١) أي استأصل.

ورجَتْ يمينك أن تعجِّل غزوة تشفى النفوس مكانُها مذكور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى عنك الإمام لَجَاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مُفْلت هبلَتْك أمك ماظننت غُرور

ثم ذكر أن هارون الرشيد لما سمع هذا الشعر قال : أَوَقَدْ فعل نقفور ذلك ! وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك، فكرَّ راجعًا في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه ، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ماأراد [1] .

ففي هذا الخبر مواقف عالية لأمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله تعالى، حيث أظهر عزة الإسلام ودولته لما استهان بذلك ملك الروم ، فكان جوابه بالفعل لا بالقول حيث غزاه بذلك الجيش العظيم الذي خلع فؤاد ذلك الملك فعاد ذليلا يطلب ود هارون الرشيد والصلح معه .

وحينما نقض ذلك الملك الصلح وخان العهد لاستبعاده أن يعود إليه المسلمون في الشتاء ، وعلم بذلك الرشيد فعاد إليه بجيشه رغم قسوة البرد وشدة المؤونة ، حتى لقَّنه درسًا لا ينساه وأخضعه لما يريد.

ولقد كان غزو الروم في الشتاء مشقةً كبيرة ومخاطرة عظيمة على المسلمين ، ولكن هارون الرشيد أراد أن يَعلَم الروم أن باستطاعة المسلمين أن يصلوا إليهم في أي فصل من الفصول، وأن غزوهم بلادهم في الصيف إنما كان باختيارهم لكونه أيسر لهم .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٧ - ٣١٠ باختصار .

فتح هرقلة الثاني وماحولها :

ذكر ذلك الإمام محمـد بن جرير الطبري في حوادي سنة تسعين ومائة، فقال: وفيها فتح الرشيد هرقلة، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم، وكان دَخَلها - فيما قيل - في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق، سـوى الأتباع وسوى المطوّعـة وسوى من لاديوان له، وأناخ عبد الـله بن مالك على ذي الكلاع ووجّه داود بن عيسى بن موسى سائحًا في أرض الروم في سبعين ألفًـا ، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الـصقالبـة ودَبْسة ، وافـتتح يزيد بن مـخلد الصّفْـصاف وملَقوبية - وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال - وأخربها وسبى أهلها بعد مقـام ثلاثين يومًا عليها ، وولّى حُـمَيد بن معيـوف سواحل بحر الشام إلى مصـر، فبلغ حُميد قـبرص، فهدم وحـرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفًا ، فأقدمهم الرّافقة ، فتولّى بيعهم أبو البختري القاضي، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار .

وكـان شخـوص هارون إلى بلاد الروم لعـشـر بقين من رجب، واتخذ قلنسوة مكتـوبًا عليها « غاز حاجٌّ » ، فكان يلبسـها، فقال أبو المعالي الكلابيّ :

فَمنْ يَطْلُبْ لقاءَكَ أو يُـردْهُ فَبالحَرَمْين أو أقصى الثـغور

ففي أرْض العدُوِّ على طِمرٍّ وفي أرض التَّرفّه فَوقَ كُورِ

وماحازَ الثغورَ سواكَ خَـلْقٌ من المُتخلّفينَ على الأمـورِ

ثم صـار الرشيـد إلى الطوانة ، فـعسكر بـها، ثم رحل عنهـا، وخلّف عليها عقبة بن جـعفر، وأمره ببناء منزل هنالك، وبعث نقفور

إلى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه وولّي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار، منها عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس ابنه استبراق دينارين. وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتابًا نسخته :

لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم . سلام عليكم ، أما بعد أيها الملك ، فإنّ لي إليك حاجة لاتضرّك في دينك ولادنياك ، هينة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة، كنت قد خطبتُها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

واستهداه أيضا طيبًا وسرادقا من سُرادقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية، فأحضرت وزيِّنت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه، وسلِّمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور ، وبعث إليه بما سأل من العطر، وبعث إليه من التمور والأخبصة والزّبيب والترياق،فسلَّم ذلك كله إلى رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقْر دراهم إسلامية على برذون كُميت كان مبلغه خمسين ألف درهم،ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بُزْيون[1]، واثني عشر بازيًا،وأربعة أكلب من كلاب الصيد،وثلاثة براذين. وكان نقفور اشترط ألاّ يخرب ذا الكلاع ولاصمله ولاحصن سنان،واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة،وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار[2].

---

(١) البزيون : ضرب من نسيج البز أو من رقيق الديباج، مركب من :«بز» ومن:«يون»، أي يشبه البز. وانظر الألفاظ الفارسية لأدي شير ٢٢ - هامش تاريخ الطبري- .

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٢٠ - ٣٢٢ .

في هذا الخبر مثل من عزة المسلمين وقوة دولة الإسلام في عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد، حيث كان ملك الروم يدفع الجزية والخراج لدولة الإسلام وهو صاغر، ويتذلل له بالكتاب الذي بعثه إليه ليهبه امرأة من السبي، وإنما علا شأن المسلمين وقويت دولتهم لمحافظتهم على الجهاد في سبيل الله تعالى ، فقد كان الرشيد يغزو سنة ويحج أخرى ، وإذا كان هذا هو الغزو الذي يقوم به بنفسه فكيف بالبعوث التي يبعثها مع قادته ؟!

٢ – جهاد الروم في عهد المعتصم –

كان سبب ذلك أن ملك الروم « تَوْفيل بن ميخائيل » لما بلغه أن جيوش المسلمين ذهبت إلى أذربيجان وماحولها لغزو « بابك الخُرَّمِي» غزا بجيشه أطراف دولة الإسلام فهجم على « زبطرة » وقتل رجالها وسبى الذراري والنساء ثم أحرقها .

وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح .

فلما انتهى الخبر إلى المعتصم صاح في قصره : النفير ، ثم ركب دابته وأخذ استعداد الحرب ، ولمَّا لم يتهيأ له الخروج في ذلك اليوم حتى تتم تعبئة الجيش جلس في دار العامة ، ووجه عُجَيف بن عنبسة وعمراً الفرغاني ومحمد كوته وجماعةً من القواد إلى « زبطرة» إعانة لأهلها ، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده، فوقفوا قليلا حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا .

وبلغ المعتصم أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه ، فأجابها وهو جالس على سريره : لبيك لبيك، وأمر بتجهيز جيش كبير لغزو الروم ، وسأل : أيُّ بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عَمُّورية ، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام ، وهي عين النصرانية وبُنْكُها [1] وهي أشرف عندهم من القسطنطينية [2] .

---

(١) البنك بضم الباء أصل الشيء وخالصه .

(٢) تاريخ الطبري ٥٦/٩ – ٥٧ ، الكامل لابن الأثير ٢٤٧/٥ ، تاريخ ابن خلدون٣/ ٢٦٢ .

وذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين المعتصم جـهز جيشًا لم يتهيأ لخليفة قبله مثله من اكتمال السلاح والعُدد .

قـال : ولمـا دخل بلاد الروم أقـام علـى نهـر اللَّمِـس وهو على سلوقية قـريبا من البحر بينه وبين طرسوس مسـيرة يوم، وعليه يكون الفداء إذا فُودي بين المسلمين والروم .

وقد قـسم المعتصم جيـشه ثلاثة أقسام : قـسمًا بقيـادة الأفشين، وقسمًا بقيادة أشناس وقسمًا قـاده بنفسه ، وقد أمر الأفشينَ بالتقدم ثم أمر أشِناسَ بالسير بعـده ، ثم تبعهم ببقية الجـيش ، وقد جعل الموعد بينهم مَدينة « أنقرة » .

أما مـلك الروم فإنه بلغـه خبـر خروج الجيـش الإسلامي فأقـبل بجيشه يـريد مواجهة جيش المسلمين ، فلما كـان قريبا من أولِّهم علم بأن جيشا للمسلمين كبيراً قد جاز من طريق آخر وهو جيش الأفشين، فأخـذ ملك الروم بعض جيشـه لمواجهة جـيش الأفشين وأبقى بعض الجيش بقيادة أحد أقاربه ليـلاقي طليعة جيش المسلمين القادم من ذلك الطريق .

وقـد التقـى ملك الروم بجـيش الأفشين فـانهـزم مـشاة الجـيش الإسلامي وقُـتِل منهم كثـير ولكن فـرسان المسلمين كرُّوا عـلى جيش الروم فهـزموه وشـتتـوه ، وانحاز ملك الروم مع قلة من جنـده حتى استطاع الوصول إلى مقر جيشه فإذا بهم قد اختلفوا على قائده وتفرقوا عنه فَقَتَل ذلك القائد ، ورجع نحو القسطنطينية ليجمع فلول جيشه .

وقـد علم أشناس بذلك بـواسطة بعض الأسـرى الذين أسـرهم

فأرسل إلى المعتصم يخبره فـفرح بذلك ، والْتَقَتْ جـيوش المسلمين حول أنقرة ، وكان أهل هذا البلد قد أخلَوْه وهربوا (١) .

وبعد فـفي هذا الخبـر مواقف ، منهـا موقف العـزة والشهـامة والشجاعـة من أمير المؤمنين المعتصم حـينما دعا بالنفيـر إلى الجهاد لما بلغه مـصاب المسلمين على يد الروم ، ولقـد بلغ به الحماس للجـهاد والانتصار للمسلمين إلى حد أنه ركب دابته وأخذ سلاحه حال سماعه الخبر .

ومن ألطف مواقفه وأروعها إجابته نداء تلك المرأة المسلمة الأسيرة التي نادته باسـمه ليـخلصـها من أسـر الروم، وفي بيان هذه النخـوة والشهامة يقول الشاعر عمر أبو ريشة رحمه الله تعالى :

رُبَّ وامعتصماه انطلقت   مِلءَ أفواه الصَّبايـا اليُتَّم

لامست أسماعهم لكنها   لـم تلامس نخـوة المعتصم

ومما يذكر للمـعتـصم أنه أسرع في تجهـيز جيش لنـجدة المسلمين المنكوبين وصد الأعداء عنهم ، ثم بدأ في إعداد جـيش كثيف لتأديب الأعداء والانتقام منهم .

وإن نهوض المعتصم بذلك الجيش يعتبر إظهاراً لعزة الإسلام وقوة دولته ، وردعًا قـويا لأعداء الإسلام حتى لايتجـرؤوا مرة أخرى على الإغارة على أطراف بلاد المسلمين .

ومن المواقف المذكـورة في هذا الخـبـر موقف المـسلمين من أبناء

---

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٥٧ - ٦٢ .

المناطق المجاورة لمدينة « زبطره » حيث هَبَّ جميع الذين يملكون الأسلحة والدواب لنجدة إخوانهم الذين داهمهم العدو ، وهذا فَهْم منهم لفرضية الجهاد وتَعَيُّنه على من داهمهم العدو ومن حولهم ممن تقوم بهم الكفاية ، وقد استطاعوا دحر العدو ووقف تقدمه نحو بلاد الإسلام حتى اضطر إلى التراجع إلى بلاده ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان لدى المسلمين آنذاك ، حيث لم يعتبر أهل كل بلد مصالح بلدهم خاصة ، وإنما اعتبروا العُدْوان على بلد إسلامي عدوانا عليهم جميعًا ، وبهذا الشعور الحي العام يشعر الأعداء أن كل بلد إسلامي موصول بالبلدان الإسلامية الأخرى وأنه ليس بإمكان العدو التوغل في بلاد الإسلام اعتماداً على بُعد عاصمته وجيشه .

ومن المواقف الرائعة في هذا الخبر مقدرة فرسان المسلمين الفائقة في جزء من الجيش الإسلامي على هزيمة معظم جيش الروم، الذي كان بقيادة ملكهم ، وهذا يُلقِّنهم درسا بليغا ، لأنه لو حصل اللقاء مع جيش المسلمين الكامل فإن النتيجة ستكون إبادة جيش الروم، ولهذا لم يفكر ملك الروم بالعودة لفك الحصار عن « عمورية » التي تعتبر من أعظم مدنهم .

فتح مدينة عمورية :

أما فتح « عَمُّورية » من بلاد الروم ، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري أن المسلمين وصلوا إليها وحاصروها ، وكان لها سور حصين وراءه نفق ، فتحصن أهلها داخلها قال : وكان رجل من المسلمين قد أسره أهل عمورية فتنصرَّ وتزوج فيهم فحبس نفسه عند دخولهم

الحصن[1] فلما رأى أميرَ المؤمنين ظهر وصار إلى المسلمين ، وجاء إلى المعتصم وأعلمه أن موضعًا من المدينة حمل الوادي عليه من مطر جاءهم شديد ، فحمل الماء عليه فوقع السور من ذلك الموضع فكتب ملك الروم إلى عامل عمورية أن يبني ذلك الموضع فتوانَى في بنائه حتى كان خروج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع، فتخوف الوالي أن يمر الملك على تلك الناحية فيمر بالسور فلايراه بُني، فوجَّه خلف الصُنَّاع فبنى وجه السور بالحجارة حجرا حجرا ، وصيَّر وراءه من جانب المدينة حشوا ، ثم عقد فوقه الشُّرَف كما كان، فوقَّف ذلك الرجل المعتصم على هذه الناحية التي وصف ، فأمر المعتصم فضرب مضربه في ذلك الموضع ، ونصب المجانيق على ذلك البناء ، فانفرج السور من ذلك الموضع ، فلما رأى أهل عمورية انفراج السور علَّقوا عليه الخشب الكبار كل واحدة بلزق الأخرى ، فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسر فعلقوا خشبا غيره وصيَّروا فوق الخشب البراذع ليترِّسوا السور .

فلما ألحَّت المجانيق على ذلك الموضع انصدع السور فكتب ياطس والخصي [2] إلى ملك الروم كتابا يعلمانه أمر السور ، ووجها الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلام عربي وأخرجاهما من الفصيل، فعبرا الخندق ووقعا إلى ناحية أبناء الملوك المضمومين إلى عمرو الفرغاني، فلما خرجا من الخندق أنكروهما فسألوهما : من أين أنتما ؟ قالا

---

(1) يعني لم يتصرف عند دخول فلول المنهزمين من الروم إلى عمورية والتحصن بها .

(2) هما من قادة الروم وكانا دخلا عمورية بعد المعركة التي انهزم فيها الروم .

لهم: نحن من أصحابكم، قالوا : من أصـحاب من أنتم ؟ فلم يعرفا أحدًا من قواد أهل العسكر يسميـانه لهم ، ، فأنكروهما وجاؤوا بهما إلى عمرو الفـرغاني بن أرنجا ، فوجـه بهما عمرو إلـى أشناس فوجه بهما أشناس إلى المعتصم ، فـساءلهما المعتصم وفتشهما فـوجد معهما كتابا من ياطس إلى ملك الروم يعلمه فيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة في جـمع كثـير ، وقـد ضاق بهم الموضع ، وقـد كان دخـوله ذلك الموضع خطأ ، وأنه قد اعتزم على أن يركب ويحـمل خاصة أصحابه على الدواب التي في الحصـن ، ويفتح الأبواب ليلاً غـفلةً ، ويخرج فيحمل على العسكر كائنا فيه ماكان ، أفلت فيه من أفلت وأصيب فيه من أصيب ، حتى يتخلص من الحصار ويصير إلى الملك .

فلما قـرأ المعتصم الكتاب أمـر للرجل الذي يتكلم منهما العـربية والغلام الذي معه ببدرة (١) ، فأسلما وخلع عليهما، وأمر بهما حين طلعت الشمس فـأداروهما حول عمورية ، فـقالا : ياطس يكون في هذا البرج ، فـأمر بهما فوقـفا بحذاء البرج الذي فـيه ياطس طويلا ، وبين أيديهما رجلان يحملان لهما الـدراهم وعليهما الخُلَع ، ومعهما الكتاب، حتى فهمها ياطس وجميع الروم وشتموهما من فوق السور، ثم أمر بهما المعتصم فنحوَّهما .

وأمـر المعـتصم أن تـكون الحراسـة بينهم نـوائب ، في كل ليلة يحضرها الفرسان يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها، لئَلاَّ يُفتح البـاب ليلا فيخرج من عـمورية إنسان ، فلم يزل الناس يبـيتون

(١) البدرة كيس توضع فيه الدنانير والدراهم .

كذلك نوائب على ظهور الدواب في السلاح ودوابهم بسروجها، حتى انهدم السور مابين بُرجين من الموضع الذي وُصف للمعتصم أنه لم يُحكَم عمله . . إلى أن قال :

فلما كان من الغد قاتلهم على الثلمة ، وكان أول من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه ، وكان الموضع ضيقا ، فلم يمكنهم الحرب فيه، فأمر المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرقة حول السور فجمع بعضها إلى بعض ، وصيروها حول الثلمة وأمر أن يُرمى ذلك الموضع، وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه فأجادوا الحرب وتقدموا .

فلما كان اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين خاصة، ومعهم المغاربة والأتراك ، والقيِّم بذلك « إيتاخ » فقاتلوا فأحسنوا واتسع لهم الموضع المنثلم ، فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت في الروم الجراحات .

ثم ذكر أن الحرب بالنسبة للروم اقتصرت على القائد المتاخم لتلك الثلمة وجيشه ، وأنه طلب من بقية قادة الروم الذين اقتسموا حراسة البروج حول المدينة أن يشاركوا في القتال وإلا ذهبت منهم المدينة فأبوا وقالوا : قد سلم السور من ناحيتنا وليس نسألك أن تمدنا فشأنك وناحيتك،فعزم هذا القائد وهو وأصحابه على الاستسلام للمسلمين.

فلما أصبح هذا القائد وهو « وندو » خرج فتفاوض مع أمير المؤمنين على التسليم مقابل الأمان على الذرية والمتاع والسلاح ،

فدخل المسلمون من تلك الناحية واستولوا على جميع ما في عمورية(١) .

وهكذا تم فتح مدينة « عمورية » التي تعتبر من أعظم مدن الروم وأشدها تحصينا ، وكان من أسباب تعجيل الفتح ماقام به ذلك الرجل المسلم الذي تنصر ظاهرا لمَّا وقع أسيرًا في يد الروم ، وذلك حينما دل المسلمين على نقطة الضعف في سور المدينة ، وهذا موقف يذكر لهذا الرجل فإن الخروج من تلك المدينة المحصنة بغير توجيه من قادتها يعتبر أمرًا في غاية الصعوبة والخطورة ، وقد خاطر هذا الرجل بحياته من أجل أن يدل المسلمين على مفتاح دخول تلك المدينة المحصنة .

ومما يذكر من المواقف في هذا الخبر ماكان يتمتع به المجاهدون آنذاك من اليقظة ودقة الرصد ، حيث لم يستطع رسول الروم أن يفلت منهم مع أن الروم قد أجادوا اختياره ، حيث اختاروا رجلا يجيد اللغة العربية بفصاحة ، حتى يظن المسلمون أنه واحد منهم إذا خاطبوه، ولقد كان لهذا التفوق في الرصد الحربي أثره الكبير في سير أحداث المعركة ،حيث جنَّب المسلمين خطر الهجوم المباغت الذي خطط له الأعداء .

هذا وإننا لنجد في خبر هذه المعركة عبرًا عظيمة : منها مانتج عن تكاسل حاكم عمورية في بناء السور لما تهدم من أثر السيل، فلقد جر تكاسله هذا وبالاً عليه وعلى قومه ، وقد كانت عمورية تردُّ الغزاة من قوة ومتانة سورها ، لكن هذا الخطأ الفادح من أميرها كان سببًا في

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٦٣ - ٦٨ باختصار .

انتصار المسلمين وهزيمة الروم ، ولقد كان هذا الوالي يفقد عاملا مهما من عوامل النجاح في الحكم وهو الحزم .

ومنها تخاذل قادة الروم عن حماية مدينتهم ، واعتبارهم كل واحد منهم أن مسئوليته منحصرة في حماية الجزء المخصص له من السور، وكانت الحكمة والسياسة الحربية أن يجتمعوا على حماية مدينتهم من ذلك السور المتهدم ، لأن دخول المدينة من جهة يعني الاستيلاء عليها جميعها .

وهذا الموقف المتخاذل الأناني يدل على تفرق قادة الروم، وعدم وجود قائد قدير يخطط لهم وينفذون أوامره .

ومنها أن تركيز المسئولية في القادة الكبار البعيدين عن ميدان المعركة له أثر كبير في الفشل والهزيمة ، فإن القائد الرومي الذي عزم على مباغتة المسلمين بالحملة عليهم ، ثم الانحياز إلى ملك الروم لم يكن قادراً على تنفيذ تلك الخطة إلا باستئذان ملك الروم الذي بينه وبينه مسافة بعيدة ، فإلى أن يذهب الرسول - فيما لو سلم - وحتى يعود تكون المعركة قد حُسمت بينهم وبين المسلمين .

أما قادة المسلمين فإنهم قد عرفوا المبادئ العامة التي يسير عليها قادتهم عادة والأحكام والآداب الإسلامية التي يلزمهم تنفيذها، ثم هم بعد ذلك أحرار في الاجتهاد واتخاذ القرارات اللازمة بعد أخذ مشورة أهل الرأي في جيشهم ، ولذلك فإنهم قد اغتنموا فرصًا كثيرة ماكانوا ليستفيدوا منها لو كانوا يرجعون إلى أمير المؤمنين في كل أمورهم .

* * *

٣ - جهاد السلطان ألب أرسلان مع الروم

السلطان ألب أرسلان هو أحد سلاطين السلاجقة وهو محمد بن داود جفري بك بن ميخائيل بن سلجوق، وقد بلغت حدود سلطته من أقاصي بلاد ماوراء النهر إلى أقاصي الشام ، ومع ذلك كان تابعًا لخلفاء بني العباس ، وكان كريما عادلا عاقلا ، وقد دخل بعض الأمراء تحت سلطانه لحسن سيرته وعدله .

وقد توفي مقتولا بيد أحد الولاة وهو يوسف الخوارزمي وكان السلطان أرسلان يريد قتله فعاجله يوسف وقضى عليه وذلك في سنة خمس وستين وأربعمائه (١) .

معركة « مَلاذْكُرْد » :

هذه معركة مشهورة حاسمة جرت بين المسلمين بقيادة ألب أرسلان وبين الروم بقيادة أرمانوس ، وفي خبرها يقول ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وستين وأربعمائة : في هذه السنة خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج ، والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، فجاؤوا في تجمُّل كثير وزِيّ عظيم ، وقصدَ بلاد الإسلام فوصل إلى ملاذكُرد من أعمال خلاط ، فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خُوَيّ من أذربيجان قَدْ عَادَ من حلب ، وسمع مافيه ملك الروم من كثرة الجموع، فلم يتمكن من جمع العساكر لبُعدها وقُرْبِ العدو ، فسيَّر الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى هَمذان، وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسةَ عشر

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ١١٣

ألف فارس ، وجدَّ في السير ، وقال لهم: إنني أقاتل محتسبا صابرا، فإن سلمتُ فنعمةٌ من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإنَّ ابني مَلِكْشاه وليُّ عهدي .

وساروا ، فلما قارب العدوُّ جعل له مقدمة ، فصادفت مقدمتُه عند خلاط مُقَدَّمَ الرومية في نحو عشر آلاف من الروم، فاقتتلوا ، فانهزمت الرومية ، وأُسِرَ مقدَّمهم فحُمِل إلى السلطان فجدع أنفه، وأخذ بالسلب إلى نظام الملك، وأمره أن يرسله إلى بغداد .

فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة ، فقال : لاهدنة إلا بالرَّي ، فانزعج السلطان لذلك ، فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاريُّ الحنفي : إنك تقاتل عن دين وعَدَ الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالْقَهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر ، والدعاءُ مقرون بالإجابة .

فلما كان تلك الساعة صلى بهم ، وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ، ودعا ودعوا معه ، وقال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههنا سلطان يأمر وينهى ، وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف والدبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنَّط ، وقال : إن قُتلت فهذا كفني .

وزحف إلى الروم ، وزحفوا إليه ، فلما قاربهم ترجَّل وعفَّر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء ، ثم ركب وحَمَل، وحملَتِ

العساكر معه ، فحصل المسلمون في وسطهم ، وحجز الغبار بينهم، فقَتَل المسلمون فيهم كيف شاؤوا ، وأنزل الله نصره عليهم ، فانهزم الروم ، وقُتِل منهم مالايحصى ، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى.

وأُسِر ملك الروم ، أسره بعض غلمان كوهرائين فأراد قتله ولم يعرفه، فقال له خادم الملك : لاتقتله فإنه الملك، وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك فرده استحقاراً له ، فأثنى عليه كوهرائين ، فقال نظام الملك : عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرا فكان كذلك ، فلما أسر الغلام الملك أحضره عند كوهرائين، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك ، فأمر بإحضاره، فلما أُحضر ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاثة مقارع بيده، وقال له : ألَمْ أُرسل إليك في الهدنة فأبيت ، فقال: دعني من التوبيخ وافعل ماتريد ، فقال السلطان: ماعزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال : أفعل القبيح، قال له : فما تظن أني أفعل بك ؟ قال إما أن تقتلني، وإما أن تشهِّرني في بلاد الإسلام ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبا عنك ، قال: ماعزمت على غير هذا ، ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم، واستقر الأمر على ذلك ، وأنزله في خيمة ، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وأطلق له جماعة من البطارقة ، وخلع عليه من الغد، فقال ملك الروم : أين جهة الخليفة ؟ فدُلَّ عليها فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة ، وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيَّره إلى بلاده،

وسيَّر معه عسكرًا أوصلوه إلى مأمنه ، وشيَّعه السلطان فرسخًا [1] .

وهكذا عشنا مع هذا الخبر الذي ضرب فيه المسلمون بقيادة السلطان ألب أرسلان مثلا عاليا في البطولة والتضحية .

فهذه المعركة الهائلة لايشبهها إلا بعض معارك الصحابة رضي الله عنهم كاليرموك ونهاوند ، حيث يتقابل المسلمون مع عشرة أضعافهم وأكثر ، ثم يكون النصر إلى جانب المسلمين في ساعات معدودة .

ولقد ظهرت القوة المعنوية للمسلمين في هذه المعركة بشكل بارز، حيث لم يَعُدْ هناك نظر إلى السلاح ، وإنما اشرأبَّت الأعناق إلى من بيده مقاليد كل شيء جل وعلا ، وأيقن القادة والجنود أنه إذا لم يتداركهم الله سبحانه بنصر من عنده فإنهم لن يكسبوا المعركة أبدا ، ولكنهم قد وطَّنوا أنفسهم على البديل الأعلى ، وهو أن يتقبلهم الله تعالى شهداء، وتعلقت آمالهم بإحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة .

ولقد كان لقائد المسلمين أثر كبير في تقوية معنويتهم ، وتعبئة مشاعرهم نحو الثبات أمام الأعداء .

ولاننسى أثر العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري، فقد قام بتأييد السلطان ، وقوَّى قلبه برجاء أن يكون الفتح على يديه ، وبتذكيره بالهدف السامي الذي يجاهد من أجله وهو نصر هذا الدين العظيم الذي وعد الله سبحانه بنصره على جميع الأديان، وأرشده إلى الوقت الأفضل للهجوم على الأعداء ، فتقبل السلطان توجيهاته ، وقوي أمله بالله تعالى .

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/١٠٩ - ١١٠ ، وانظر البداية والنهاية ١٢/١٠٧ - ١٠٨ .

وهكذا يؤدي العلمـاء الربانيـون دورهم المطلوب منهم في تقـوية الروح المعنوية لدى المجـاهدين ، وهذا هو السلاح القـوي الذي يملكه المسلمون الصادقـون ، ويفقده أعداؤهم ، وقد ظهـر واضحًا في هذه المعركة أثر هذا السلاح .

أمـا المحاورة التي جـرت بين السلطان ألب أرسـلان وملك الروم فإنها كانت مثلا عاليا في تمثيل أخلاق المسلمين وعلو سياستهم .

وإن هذه المعاملة إضـافة إلى كونها تمثل أخلاق المسـلمين المعروفة في إكرام الزعمـاء وتألُّفِهم للإسلام ، فإنهـا من الناحية السياسـية قد ضمنت لزعماء المـسلمين حقهم في التكريم والاحترام فيـما لو وقعوا أسرى لدى الأعداء لعقود من الزمن .

فللّه در هذا السلطان الكبير والسياسي القدير !!

لقد جاء ملك الروم بِقَضِّه وقَضِيضِه وخيله ورَجِله وعتاده ليقضي على المسلمين وليمحو الإسلام من الوجود، وكان من غروره أنه أقطع بلاد المسلمين لأمـرائه ، فكان له بالمرصاد فـرقة من جيـوش المسلمين أبادت خضـراءه وحطَّت كبرياءه ، وعـاد ذلك الجبار المتـغطرس يقبِّل الأرض بين يدي السلطان ألب أرسـلان ويتـودد له ليقـبله نائبـا عنه، وذلك منتهى الشعور بالذلة والمهانة ، وإذا كان جزء من جيش السلطان أرسلان قد سـحق جيشه فكيف لو أحـضر السلطان جيشـه كاملا ؟! وكيف لو اتفق مع بقية أمراء المسلمين على جهاد الروم ؟ !

* * *

الجهاد مع الروم

فى

عهد العثمانيين

نشأة هذه الدولة :

الدولة العثمانية تنسب إلى عثمان بن أرطغرل بن سليمان، وجده سليمان هو زعيم إحدى قبائل الغُزّ التركية، الوافدة من بلاد تركستان على إثر هجمات التتار على بلاد الإسلام ، وقد وصل سليمان بقبيلته إلى بلاد الأناضول عام سبعة عشر وستمائة ، ثم عاد بقبيلته إلى بلاده بعدما هدأت الأوضاع على إثر وفاة جنكيز خان زعيم التتار، لكنه توفى غرقا في أحد الأنهار قرب مدينة حلب ، فاختلف أبناؤه من بعده ، فواصل السير بعضهم ، وقرر أرطغرل العودة إلى بلاد الأناضول فعاد معه أربعمائة أسرة من القبيلة .

وقدر الله تعالى أن يواجه أرطغرل ومن معه جيش السلاجقة بقيادة علاء الدين السلجوقي وهم يقاتلون أعداءهم، فقام أرطغرل بنصر السلاجقة الذين كانوا قد أقاموا دولة إسلامية في بلاد الأناضول، فكافأه علاء الدين بأن أقطعه جزءًا من بلاده المجاورة للروم في مقاطعة « اسكي شهر » .

ثم توفي أرطغرل وخلفه على تلك الإمارة ابنه عثمان ، وشاء الله تعالى أن يموت السلطان علاء الدين السلجوقي عام تسعة وتسعين وستمائة ولم يكن له خليفة يخلفه ، فحصلت فتن واضطرابات فقام عثمان بالاستيلاء على دولته ، وكان ذلك بداية نشأة الدولة العثمانية.

وقد أحسّ الأعداء من الروم والتتار بخطورة هذه الدولة الناشئة فقاموا بقتالها ، وكان من أعظم الانتصارات التي حققها السلطان عثمان استيلاؤه على مدينة « بورصة » الحصينة ، وحينما حاول الروم

الاستعانة بالتتار توجه عثمان نحو التتار فشتت شملهم، وحاصر بورصة حتى استولى عليها في عام سبعة عشر وسبعمائة ٧١٧هـ الموافق ١٣١٧م ، وقد أصبحت بورصة بعد ذلك عاصمة الدولة العثمانية .

ثم تولى السلطان أورخان بن عثمان بعد وفاة أبيه وذلك في عام ستة وعشرين وسبعمائة ٧٢٦هـ الموافق ١٣٢٦م ، وفي عهده تم تنظيم الجيش العثماني ، وبدأ تكوين جيش الانكشارية ، وهو جيش مكون من أبناء الدول الأوربية الشرقية بعدما دخلوا في الإسلام وتم تدريبهم الحربي ، وقد أصبح لهم أثر كبير في توطيد دعائم الدولة العثمانية، وفي عهده توسعت الدولة العثمانية حيث استولى على عدد من الأقاليم الآسيوية .

وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة - ٧٥٨هـ الموافق ١٣٥٧م- اجتاز سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولي عهده مضيق الدردنيل الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة ومعه جزء من جيشه تحت أستار الظلام ، حتى إذا وصلوا إلى الضفة الأخرى قبضوا على ماكان بها من القوارب وعادوا بها إلى الضفة المعسكرة عليها جيوشهم، فانتقل الجيش إلى ضفة أوروبا، وكان عدده ثلاثين ألفا، واحتل ميناء « تزنب » ، ووفقوا بسقوط جزء من أسوار مدينة «جاليبولي» التي تقع على مضيق الدردنيل من جهة أوروبا ، وذلك بسبب زلزال شديد ، فدخلها العثمانيون بدون عناء ، وكان ذلك بداية استيلاء العثمانيين على شرق أوروبا .

وقد توفي سليمان بن أورخان بعد ذلك بعام وانتقلت ولاية العهد إلى أخيه مراد .

ثم تولى السلطان مراد الأول بن أورخان بعد وفاة أبيه عام واحد وستين وسبعمائة ٧٦١هـ الموافق ١٣٦٠م ، وفي عهده بدأ جهاد العثمانيين في أوروبا الشرقية بشكل واضح ، حيث استولى على إمارات البلقان ، وسقطت مدينة « أدرنة » بأيدي العثمانيين ثم اتخذوها عاصمة لهم ، كما تم فتح مقدونية وصوفيا وسالونيك، ومن أبرز المعارك التي خاضها العثمانيون في شرق أوروبا معركة قوصوه وكانت بقيادة السلطان مراد نفسه وقد انتصر فيها العثمانيون على جيش كثيف من الأحلاف النصرانية التي تكونت من الصِّرب والبُشناق والمجر والبلغار والألبانيين ، وكانت في هذه المعركة نهاية السلطان مراد حيث كان يتفقد القتلى فقام صربي من بينهم فطعنه على حين غفلة منه فقتله .

ثم تولى السلطان بايزيد بن مراد الأول بعد استشهاد أبيه عام واحد وتسعين وسبعمائة ، ٧٩١هـ الموافق ١٣٨٩م ، وفي عهده قامت حملة صليبية بتحريض من البابا ، فاجتمع جيش أوروبي عظيم بقيادة «سِجِسْمُند » ملك المجر فزحفوا على بلدان شرق أوروبا واستردوا بعض البلاد التي استولى عليها العثمانيون ، وكان السلطان « بايزيد» غائبا في آسيا ، فلما علم بذلك عاد سريعًا والتقى بهم في معركة كبيرة انهزم فيها الصليبيون شر هزيمة وذلك عام ثمانية وتسعين وسبعمائة ٧٩٨هـ الموافق ١٣٩٦م .

وفي عـهد السلطان بـايزيد تم حصـار القسـطنطينية ، وكـاد أن يفتحها لولا مداهمة جيش تيمورلنك المغولي من المشرق، فاضطر إلى فك حصـار القسطنطينـية والزحف نحو المشـرق لمقاومـة التتـار، وقد جرت بينهم معركة هائلة أبدى فيها السلطان بايزيد بسالة عظيمة إلا أن تفوق التـتار في العـدد وتسلل بعض جيش العثـمانيين نحـوهم جعل المعركـة لصالح التتـار فانهزم العـثمانيـون ، ووقع السلطان بايزيد في الأسر هو وابنه مـوسى وذلك في آخر عام أربعة وثمـانمائة ، ثم مات عام خمسة وثمـانمائة وتفرق أولاده وحدثت بينهم فتن وحروب كادت تقضي على دولتهم إلى أن استطاع أحدهم وهو السلطان محمد الأول ابن بايزيد أن يسيطر على الوضع ، وقد بقي في السلطة ثماني سنوات قضـاها في حروب داخلـية أخضع بـها الأمراء الذيـن انتقضـوا على دولته.

وبعد وفـاة السلطان محـمد الأول عام أربعـة وعشريـن وثمانمائة ٨٢٤هـ الموافق ١٤٢١م ، تولى السلطة ابنه مـراد الثاني والد السلطان محـمد الفاتح ، وفي عـهده أكمل العـثمانيـون سيطرتهم على آسـيا الصغرى وشرق أوروبا .

ومن أشهر المعارك التي خاضها معركة « وارنه » ، وكان السلطان مراد قـد تنازل عن السلطنة لابنه محمـد الفاتح ، وكان آنذاك صغـير السن حيـث لم يتجاوز الرابـعة عشـرة من عمـره فاغتـر بذلك ملوك أوروبا الذين كانوا قـد عقدوا هدنة مع الـسلطان مراد فنقضـوا الهدنة واغتنمـوا فرصة غيـاب السلطان مراد حيث كان في عـزلة في إحدى

قرى الأناضول ، وجمعوا جيشًا كبيرًا بتحريض من البابا « أوجانيوس الرابع » ، وما أن علم السلطان مراد بذلك التجمع حتى خرج من عزلته وعبر مضيق البسفور ومعه أربعون ألفا قد اختارهم من الجيش العثماني ، فزحف بهم نحو تجمع الأعداء ، ودارت بين الفريقين معركة رهيبة تحت أسوار مدينة « وارنه » ، وقد كاد النصر أن يكون حليف النصارى لما يتمتعون به من الحماس والحمية الدينية، ولكن ماقام به السلطان مراد من قتل ملك المجر قد غيَّر مسيرة المعركة، حيث أصيب الأعداء بالخوف والهلع لما رأوا رأس ملك المجر مرفوعة على رمح والمسلمون يكبرون فرحين ، فحمل المسلمون عليهم وهزموهم شر هزيمة وذلك في عام ثمانية وأربعين وثمانمائة .

وفي عام خمسة وخمسين وثمانمائة ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م ، تولى السلطان محمد الفاتح بن السلطان مراد ، وقد لُقِّب بالفاتح لما تم على يديه من فتح القسطنطينية الذي يعتبر من أعظم فتوحات المسلمين (١) .

فتح القسطنطينية :

لقد كان هذا الفتح أملا كبيرًا يتمنى قادة المسلمين تحقيقه منذ أن طرق مسامعهم قول رسول الله ﷺ « لَتُفتحنَّ القسطنطينية فلنِعْم

---

(١) انظر كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » لمحمد فريد بك المحامي ص١١٣-١٥٩ وكتاب « تاريخ الدولة العثمانية » للدكتور على حسون ٨-٢١ ، وكتاب «السلطان محمد الفاتح » للدكتور عبد السلام فهمي ١١ - ٢٢ ، وكتاب « التاريخ الإسلامي» للدكتور أحمد شلبي ٥/ ٦٦٩ - ٦٧٦ .

الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » [1] ، وقد سبق ذكر الحملة الجهادية التي كانت في عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه وكانت بقيادة ابنه يزيد ، والحملة الأخرى التي كانت في عهد سليمان بن عبدالملك وكانت بقيادة أخيه مسلمة، ثم كانت محاولات أخرى، ولكن فتح هذه المدينة كان مدخرا للسلطان الشاب الشجاع محمد بن مراد العثماني الذي حاز على لقب الفاتح بعد ذلك، فكيف تم فتح هذه المدينة العظيمة التي أعجزت قادة المسلمين قبل ذلك .

لقد كان واضحًا لدى سلاطين آل عثمان أن فتح القسطنطينية لايتم إلا من جهة أوروبا لكونها محاطة من جهة آسيا بالبحر، فلذلك عقدوا العزم على توسيع فتوحاتهم في شرق أوروبا، ثم نقلوا عاصمتهم إلى « أدرنه » بعد فتح جزء كبير من أوروبا، فأصبحوا يستطيعون حصار القسطنطينية من جميع جهاتها بعد أن صارت مملكة صغيرة في داخل امبراطوريتهم الواسعة ، فكانت هذه الأعمال الجهادية السابقة تمهيدًا لما قام به السلطان محمد الفاتح من فتح هذه المدينة .

ولما عزم السلطان الفاتح على فتح القسطنطينية زحف بجيش يبلغ خمسين ألفا ، ثم سيطر على جميع منافذ المدينة حتى لايصل إليها مدد من الخارج .

وقد عرض السلطان الفاتح على ملك الروم قسطنطين أن يسلم المدينة في مقابل سلامة جميع من فيها على أرواحهم وممتلكاتهم ،

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٣٥ .

فرفض قسطنطين ذلك، وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من شهر جمادى الأولى من عام سبعة وخمسين وثمانمائة ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م .

ولما كان لابد من الحرب فإن السلطان أمر برمي أسوار المدينة بالمدافع ، وكان الجيش التركي مزودًا بمدافع من أضخم وأحدث المدافع الموجودة في العالم آنذاك .

وقد خاطب الفاتح قادته بقوله : إن تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته ، وسيكون من حظنا ماأشاد به هذا الحديث من التقدير ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفا ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم مايجافي هذه التعاليم ، وليجتنبوا الكنائس والمعابد ولايمسوها بأذى ،ويدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لايقاتلون.

وهذا الخطاب يبين لنا ارتباط الفاتح الوثيق بالدين واستمداده النصر من الله تعالى . وأنه كان يقاتل عن عقيدة دينية قوية ، وقد أشاع هذه العقيدة في قادته وجنده حتى أصبحوا يقاتلون بمعنوية عالية، إلى جانب ماتزودوا به من سلاح مادي قوي، وإذا اجتمعت القوتان المعنوية والمادية حصل النصر بإذن الله تعالى .

خطط حربية ناجحة :

كان أقرب مكان للسيطرة على القسطنطينية من البحر من ناحية

ميناء القرن الذهبي ، وكان الروم يدركون خطورته فيما لو دخلت منه سفن المسلمين فوضعوا في مدخله سلسلة حديدية ضخمة ، وقد حاول المسلمون قطع هذه السلسلة فلم يستطيعوا لقوة الحامية المكلفة بالحراسة من الروم ، ففكر السلطان الفاتح بخطةٍ لنقل السفن من مضيق البوسفور إلى داخل القرن الذهبي عن طريق البر على مسافة ستة أميال تقريبا ، ولما وافق المستشارون على الخطة أمر الفاتح بتمهيد الأرض ومد ألواح الخشب المدهونة بالزيت والشحم ، ثم قام الجنود بسحب السفن عليها، فاستطاعوا أن يُنزلوا في القرن الذهبي سبعين سفينة في ليلة واحدة ، وقد أذهلت هذه الخطة الأعداء وحطت من معنويتهم الحربية ، حيث أصبح بإمكان سفن المسلمين أن تضرب الأعداء عن قرب وأن تشلَّ حركة الملاحة البحرية لديهم .

ومن الخطط الحربية التي استخدمها المسلمون حفر الأنفاق لإدخال الجنود منها إلى المدينة ، وكانوا كلما اكتشف الأعداء ذلك حفروا في مكان آخر ، فكان ذلك مما جعل الأعداء في رعب دائم لاحتمال أن يفاجئهم المسلمون من أي مكان .

ومن الخطط الحربية المذهلة قيام المسلمين بصناعة برج خشبي مرتفع من ثلاثة طوابق ، وقد فوجئ به الأعداء وهو يعلو أسوارهم وقد تحصن به عدد من المجاهدين الذين استعدوا لاقتحام سور المدينة من أعلاه ، وقد قال المؤرخ البندقي « باربارو» عن هذا البرج الهائل: «لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها في شهر ، وقد صنعها المسلمون الأتراك في ليلة واحدة، بل في أقل من أربع ساعات » .

وهذا اعتـراف من الأعداء آنذاك بتـفوق المسلمين في الصـناعات الحربية ، وقد كان ذلك مكمـلا لتفوقهم في الروح المعنوية المبنية على تمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف .

الهجوم الأخير :

حينما اسـتنفذ السلطان الفاتح مقاصـده في تحطيم معنوية الأعداء وهَدْم أجزاء من الأسـوار خطط للهجـوم العام من البـر والبحر فـأمر بالهجـوم من جمـيع الجهات وانطلق الجنود المـغامرون نحـو الأسوار وصعدوا على السلالم في مـحاولة للهبوط على المدينة بشكل مكثف، ولكنهم واجهـوا مقاومـة عنيفة من الأعـداء ، سواء من جهـة البر أو البحـر، واستطاع الأعـداء أن يقلبوا بهـم السلالم ، وسقـط عدد من المسلمـين صـرعى تحت الأسـوار، ولكن ذلك لم يفتّ في عـزائم المسلمين، بل استمروا في الهـجوم ، وكان السلطان يدفع بالجنود إلى الأسوار بالتناوب ، وكـان ذلك يعطي المسلمين قوة حـيث تواجه كل فرقة منهم جيش الأعداء وأفـرادُه قد أنهكوا من ضراوة الحرب وعُنْف المقاومـة ، وكان السلطان يقصـد بذلك تحطيم معنوية جـيش الأعداء حتى تضـعف مقاومتـهم ، وفي أثناء ذلك الهجوم المتـواصل استطاع أحد الجنود الأتراك أن يقتل قائد الأعداء في المنطقـة الشمالية مبارزة، وبمقتله انهارت معنويات فرقتـه وولّى أفرادها هاربين، فانتهز السلطان هذه الفرصة فدفع بأفراد فرقة الانكشارية المشهورين بالشجاعة والمغامرة إلى ذلك المكان فـاندفعوا كـالسيل الجـارف واستطاعوا دخـول المدينة ورفعوا فوق أسوارها أعلام العثمانيين .

وفي أثناء ذلك أصيب جستنيان أبرز قادة الأعداء بجرح بليغ ونُقِل بعيداً عن ميدان المعركة ، أما الملك قسطنطين فإنه أصيب بالفزع والذعر الشديد حينما رأى جنود العثمانيين ينطلقون بعنف وسرعة نحو داخل المدينة ، فنزل عن حصانه وخلع ملابسه القيصرية وصار يدافع بسيفه حتى قتل .

وفُتحت جميع أبواب المدينة بعد أن فرَّ حماتها وتم فتح هذه المدينة العريقة التي استعصت على جميع الغزاة من قبل وذلك في عام ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م ، وتحقق في ذلك الأمير الشاب وجنوده بشارة النبي ﷺ وثناؤه العظيم [١] .

فتح مدينة بلغراد :

بعد أن توفي السلطان محمد الفاتح في عام ستة وثمانين وثمانمائة خلفه في الحكم ابنه بايزيد ، ثم تنازل عن الحكم لولده السلطان سليم عام ثمانية عشر وتسعمائة، فلما توفي خلفه في الحكم ابنه سليمان القانوني عام ستة وعشرين وتسعمائة ، وهو عاشر سلاطين آل عثمان.

وفي عهده تم فتح مدينة بلغراد ، وكان سبب تسيير الجيش نحوها أن ملك المجر قتل السفير الذي أرسله السلطان بطلب دفع الجزية التي كانت مقررة قبل ذلك، فاستشاط السلطان غضبا وأمر بتجهيز جيش كبير لمحاربة المجر وقاده بنفسه ، وأرسل أحد مشاهير قواده وهو أحمد باشا لمحاصرة مدينة شابتس التي تقع إلى الشمال من

---

(١) انظر تاريخ الدولة العلية / ١٦٠ - ١٦٥ ، وكتاب الدولة العثمانية / ٢٢-٣٢ ، وكتاب « السلطان محمد الفاتح » / ٧٥ - ١٢٦ .

بلغراد وذلك في شعبان عام سبعة وعشرين وتسعمائة ففتحها، ثم وجه السلطان ذلك الجيش لمساعدة الجيش الذي يحاصر بلغراد، وقد تم فتح هذه المدينة المشهورة بعد دفاع شديد، ثم أصبحت بعد ذلك معقلا للمسلمين تنطلق منه الجيوش لفتح ماوراء نهر الدانوب (١) .

وهكذا كانت رايات المسلمين ترفرف وسط أوروبا ، وهي تحمل عزة الإسلام وقوة دولته ، ولولا ماكان يحصل في تاريخ المسلمين من الحروب الداخلية التي كانت تضعف قوتهم لاكتحست جيوشهم أوروبا كلها وغيرها من بلاد العالم .

فتح جزيرة رودس :

كانت جزيرة رودس معقلا حربيا لأعداء الدولة العثمانية تلجأ إليه سفنهم الحربية ، ولقد حاول اسلاف السلطان سليمان القانوني فتح هذه الجزيرة فلم يتمكنوا لشدة اهتمام الدول الأوروبية بها وحمايتهم لها، ولقد كان الدافع للاهتمام بفتحها أن تكون حلقة اتصال بين اسلامبول ومصر ولكي لاتكون مركزا حربيا للأعداء .

ولقد انتهز السلطان سليمان فرصة انشغال ملوك أوروبا بحرب بينهم فجهز جيشًا بحريًا وآخر بريًا ليكون على الساحل المقابل للجزيرة، وقبل الهجوم أرسل السلطان إلى رئيس الرهبان الذين كانوا مسيطرين على الجزيرة يدعوهم إلى إخلاء الجزيرة مع ضمان عدم التعرض لأنفسهم وأموالهم ، فلم يقبل رئيسهم هذا العرض فأمر السلطان بحصارها ، ولقد قاوم أهلها بما عندهم من سلاح ولكنهم لم

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية / ١٩٩ - ٢٠٢ .

يستطيعوا الصمود أمام المدافع العثمانية ، فأرسل رئيسهم اثنين من رهبانه إلى السلطان يطلب منه السماح لهم بإخلاء الجزيرة وغادروها إلى جزيرة مالطة ، وبذلك اصبحت جزيرة رودس جزيرة إسلامية تحت سلطان الدولة العثمانية (١) .

وهذا مثل جيد في دراسة واقع الأعداء ، وانتهاز الفرص المناسبة لتحقيق المكاسب الحربية بأقل الخسائر، وهذا يحتاج إلى رصد حربي دقيق واستعداد قوي بالرجال والسلاح لتحقيق الأهداف المطلوبة في الوقت المناسب .

إنقاذ تونس من النصارى :

قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه « نزهة الناظرين» عند ذكر السلطان سليم ولد السلطان سليمان مانصه : وكانت ولايته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب وآل حفص فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج وأطمعوهم في بلاد المسلمين فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا الحصون وأحكموا القلاع بحيث أيس المسلمون من فتحها وصاروا تحت حكم الإفرنج وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد، فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب (٢) مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب وصحبة

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية /٢٠٣ - ٢٠٦ .

(٢) أي سفينة .

ذلك سنان باشا وقلج علي باشا ، وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف ، فنصر الله المسلمين بعد أن قُتل منهم عشرة آلاف مع الحصار المديد والقتال الشديد . ومن العجائب أن الإفرنج كانوا أنشأوا هناك قلعة منيعة أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثا وأربعين سنة فافتتحها المسلمون بصحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوما من أيام محاصرتها، وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ، ثم خرّب الوزير القلاع والحصون ولم يبق لها رسم ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنة فلم يمهله الأجل رحمه الله . انتهى [1] .

هذا الخبر يبين لنا دور الدولة العثمانية في حماية العالم الإسلامي، فإنه مع بعد بلاد تونس عن عاصمة الدولة العثمانية فإن السلطان سليم قد أهمه أمرها لما بلغه استيلاء النصارى عليها، فأرسل لها جيشا بحريا قضى على وجود الأعداء فيها وأعادها إلى حكم المسلمين .

إن هذا الاهتمام الكبير من سلاطين آل عثمان ببلاد الإسلام يجعل الأعداء يترددون كثيرا في الهجوم على أي بلد إسلامي وإن كان صغيرا ولاقوة فيه ، وهذا من مزايا وجود الدولة الإسلامية الكبرى، فالأشبال في العرين ضعاف وليس بإمكانهم إنقاذ أنفسهم ، ولكن

---

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن موسى / ١٢٩٩ عن كتاب « نشر المثاني» للشيخ محمد القادري .

يوشك أن يعود الأسد إلى عرينه فينتقم ممن أوقع الضرر بأشباله وإن بعد مكانه .

جهاد المتمردين في بلاد الأفلاق :

كان ميخال حاكما لبلاد الأفلاق من قبل السلطنة العثمانية، فخرج عن الطاعة وجمع جموعًا من النصارى وتمرد وعاث في بلاد العثمانيين في أوروبا ، فأرسل له السلطان محمد بن مراد بن سليم جيشا بقيادة أحد وزرائه ، ولكن الأعداء ظفروا به وبجيشه فزاد الأعداء عتوا وتجبرا .

وقد أشار عليه وزيره سنان باشا بأن يسافر إلى الأعداء بنفسه، فخرج بجيشه من دار خلافته في شوال سنة أربع بعد الألف، ووصل إلى قلعة في غاية المنعة والتحصين، فنازلها بجنوده فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا طائعين، وسلموها في أواخر صفر سنة خمس وألف، ووصل خبر أخذها إلى ملك الأنكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد لأنها كانت عندهم من القلاع المعتبرة، فكاتب ملوك النصارى يطلب الإمداد منهم بالعساكر والذخائر فجاؤوا إلى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء ، وكان السلطان محمد سار بعسكره إلى القلعة التي بها المعدن فبينما هو في أثناء المرحلة الثالثة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به وكان عسكر الإسلام حينئذ غير مستعد والنصارى في غاية الكثرة جدًا بحيث إن جمعهم المخذول لايُحصى، وكان يوم دَهْمتهم يوم الخميس ثاني شهر ربيع الأول من السنة ووقع حرب عظيم في ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتفرقوا، وأصبحوا يوم الجمعة

متحاربين أيضا واستعدت النصارى أزيد من اليوم الأول فكانوا غرقى في الفولاذ ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بددًا ووصلوا إلى ميخم السلطان فطلب السلطان إليه معلمه الخوجه سعد الدين وكان في صحبته فحضر بين يديه وجعل يثبته ، والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله، فلم يكن بأسرع من أن قَوِيَ المسلمون وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال ، وتراجع جميع العسكر فكسروا النصارى وردّوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارّون حتى قتل بعضهم بعضا من الزحام وغيره، ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة، وأكثر ذلك كان على يد الوزير سنان باشا ابن جغال والوزير حسن باشا ابن محمد باشا ، وأُحصيَتْ قتلى المسلمين فكان الذي استشهد من القوّاد مايقرب من أربعمائة، ومن أصحاب الألوية المعبر عنهم في اصطلاح الروم بالصناجق بضعة عشر رجلاً، ومن الأمراء الكبراء أربعة أنفار،ومن العساكر مابين فارس وراجل مالا يُحصى، ووافق بعد الظفر أن السلطان قتل من عسكره الفارّين جماعة كثيرين وقبض على باقيهم وحقرهم غاية التحقير في منصرفه وعاقب بعض من فرّ بقطع علوفته[1]وضبط ملكه وماله لجهة بيت المال.

والحاصل أن ما وقع له من هذه النصرة لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان ، وذلك إنما هو بمحض لطف إلهي وإمداد رباني غير متناه، ولقد حكى كثير من السيّاح أن ملوك الفرنج تطلق على هذا السلطان:

---

(١) أي راتبه .

« صاحب القرآن » وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ في الشجاعة المرتبة التي لاتُسامى ،وأنهم على عادتهم يصوّرون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا في التصوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصرة التي رُزِقها [1].

وبعد : فإن ماجرى في هذه المعركة من انتصار المسلمين كان على خلاف المعتاد في المعارك الحربية، فالسلطان محمد كان في جيش صغير بالنسبة لجيوش النصارى الكثيرة التي اجتمعت من بلاد كثيرة، وداهمت المسلمين على غرة، ولقد حصل في بداية المعركة انهزام وتفرق في جيش المسلمين أمام هجوم النصارى المركز، وهذا شيء طبيعي، ولكن الشيء الذي جرى على خلاف المعتاد أن ينتصر السلطان هو ومن ثبتوا معه وهم قليل على عدو يفوقهم كثيرا في العدد والاستعداد، ولاتفسير لذلك إلا ماكان من لجوء السلطان إلى الله عز وجل واستغاثته به ، وماكان من معلمه سعد الدين الذي ظل يثبته ويقوي عزيمته ، فكان هذا السلاح المعنوي أقوى من كل ماأعده الأعداء من جنود وذخائر، وإذا تذكرنا ماجاء في ترجمته من أنه كان صالحا عابدا ساعيا في إقامة الشعائر الدينية مراعيا لأحكام الشريعة، فإننا لا نستغرب أن يظفر بنصر الله تعالى وتأييده .

إن الجندي بحكم تكوينه الجسماني يملك طاقة كبيرة، ولكنه لايستخدم - عادة - إلا قليلا منها ، وهذا القليل في الحرب يصرف جزءا منه للدفاع عن نفسه فيكون جهده الذي يبذله في الهجوم بنسبة

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / ١١٤٠-١١٤٣، عن كتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للشيخ فضل الله المحبي.

قليلة جدا ، ولكن حينما يدخل في ميزان المعركة عامل الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره الذي يفرض على المسلم أن يؤمن بأنه لايمكن أن يموت قبل حلول أجله . .وحينما يدخل عامل الإيمان بأن المسلم إنما ينتظر في جهاده إحدى الغايتين الحسنيين :إما الظفر بالنصر العزيز على الأعداء،وإما الظفر بالشهادة التي هي أسمى أماني المؤمنين. . حينما يدخل ذلك في ميزان القوى فإن الجندي الذي يحمل هذه المعاني السامية سيقاتل أعداءه بكل ماوهبه الله جل وعلا من طاقة، وبالتالي فإنه سيكون معادلا لعشرات الجنود ممن لايحملون هذه المعاني.

وذلك إلى جانب مايعتقد به المؤمن من أن الله تعالى يمد أولياءه المؤمنين المتقين بمدد من ملائكته الكرام عليهم السلام،فهو حينما يلقى أعداءه لاينظر إلى عدد أفراد جيشه ، وإنما يكون فكره متجها نحو السماء بطلب المدد من الله تعالى .

وماجاء في آخر هذا الخبر من أن ملوك الفرنج كانوا يطلقون على السلطان محمد بن مراد بأنه صاحب القرآن دليل على اعتقادهم بأنه قريب من الله تعالى وأن نصره عليهم في هذه المعركة لم يكن بجهود مادية وإنما كان بتأييد من الله جل وعلا لتطبيقه ماجاء في كتابه سبحانه.

وهكذا تم عرض أمثلة من جهاد العثمانيين، ولم يكن المقصود استيعاب ذلك ولا كتابة تاريخ لهذه الدولة العظيمة، وإنما المقصود بيان شيء من مواقفهم في إعزاز الإسلام والجهاد في سبيله .

* * *

مواقف وعبر

فى

جهاد المسلمين فى بلاد السند والهند

الجهاد والفتوحات

في

عهد الأمويين

نبذة عما سبق من الأحداث :

لقد كانت رغبة المسلمين في فتح بلاد السند منذ عهد عمر رضي الله عنه ولكن حال دون ذلك انشغال المسلمين بجهاد الدولتين العظميين آنذاك دولة فارس والروم ، إلى جانب قلة الموارد وكثرة عصابات اللصوص في تلك البلاد .

ففي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدأ الجهاد في السند والهند، ومن أخبار ذلك ماذكره البلاذري من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولى على عمان والبحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي في السنة الخامسة عشرة للهجرة، وأنه مضى إلى عمان ووجه أخاه الحكم إلى البحرين[1] ، وذكر أن عثمان ابن أبي العاص قاد حملة بحرية إلى « تانه » ،ووجه حملة أخرى بحرية إلى « بروص» بقيادة أخيه الحكم ، وحملة بحرية ثالثة إلى «خور الديبل» [2] وذكر أنه لقي العدو فظفر ، وأنه كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه ذلك ، فكتب إليه : ياأخا ثقيف حملت دودا على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم [3].

---

(١) البحرين هي الأحساء كما تقدم .

(٢) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن تانه يطلق عليها « تهانه » وأنها مدينة هندية قديمة على البحر في شمال مدينة بومباي الحالية ، وذكر أن بروص يطلق عليها « بهروج» وأنها على ساحل الهند أيضا ، وذكر أن « خور الديبل » يحتمل أن تكون هي مدينة كراتشي الحالية وسيأتي مايؤيد ذلك - موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ١٣١ - .

(٣) فتوح البلدان / ٦٠٧ .

وهكذا غضب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على عثمان بن أبي العاص الثقفي لكونه أوَّلاً غزا بلاد السند والهند بغير إذنه، ولكونه ثانيا لايرى الوقت مناسبا لهذا الغزو حيث إن المسلمين لم يصلوا إلى تلك البلاد عن طريق البر، فهو يخشى على المسلمين أن يُقتطعوا ويهلكوا في البحر .

ولكن لما وصل الفتح الإسلامي إلى مشارف تلك البلاد أذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بغزوها، وذلك في سنة ثلاث وعشرين، وفي ذلك يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه :

قالوا : وقصد الحكَم بن عمرو التغلَبيّ لُمكْران ، حتى انتهى إليها، ولحق به شهاب بن المخارق بن شهاب، فانضم إليه، وأمدّه سهيل بن عديّ ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبان بأنفسهما، فانتهوا إلى دُوَين النهر، وقد انفضّ أهل مكران إليه حتى نزلوا على شاطئه، فعسكروا ، وعبر إليهم راسل ملكُهم ملك السند[1]، فازدلف بهم مستقبل المسلمين. فالتقوا فاقتتلوا بمكان من مكران من النهر على أيام، بعدما كان قد انتهى إليه أوائلهم، وعسكروا به ليلحق بهم أخراهم، فهزمهم الله وانهزم راسل وسُلِب ، وأباح المسلمين عسكره، وقُتلوا

---

(١) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن الطبري أخطأ في جعل « راسل» ملك السند، وذكر أنه حاكم ولاية سندية وأنه يطلق عليه نائب الملك، وأن ملك السند هو «جج» الذي تولى الملك من السنة الأولى للهجرة حتى سنة أربعين - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٣٤ - .

في المعركة مقتلة عظيمة، وأتبعوهم يقتلونهم أيامًا، حتى انتهوا إلى النهر. ثم رجعوا فأقاموا بمكران. وكتب الحكم إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس مع صحار العبدي، واستأمره في الفيلة، فقدم صحار على عمر بالفتح والمغانم ، فسأله عمر عن مكران - وكان لايأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه - فقال: ياأمير المؤمنين ، أرض سهلها جبَل ، وماؤها وشَل [1] ، وتمرها دَقَل[2] ، وعدوّها بطل، وخيرها قليل، وشرّها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وماوراءها شرّ منها . فقال عمر : أسَجّاعٌ أنت أم مخبر؟ قال: لا بل مخبر، قال : لا ، والله لايغزوها جيش لي ما أُطعْتُ ،وكتب إلى الحكم بن عمرو وإلى سهيل ألا يجوزَن مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على مادون النهر،وأمره ببيع الفيلة بأرض الإسلام، وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه .

وقال الحكم بن عمرو في ذلك :

لقد شبع الأرَاملُ غير فخرٍ ... بفيءٍ جاءَهُمْ من مُكُّرانِ

أتاهم بعد مَسغَبَةٍ و جهدٍ ... وقد صفرَ الشتاءُ من الدُّخان

فإني لايذُمُّ الجيشُ فعْلي ... ولاسَيْفي يُذَمُّ ولاسناني[3][4]

فلما ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه وولّى عبد الله بن عامر

---

(1) الوشل الماء القليل .

(2) الدقل أردأ التمر .

(3) في رواية ابن كثير ولا لساني وهو الظاهر لأن السيف هو السنان - البداية٧/ ١٣٦ .

(4) تاريخ الطبري ٤/ ١٨١ .

ابن كريز على العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه يخبره ، فوجه حكيم بن جبلة العبدي ، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال : ياأمير المؤمنين قد عرفتها وتَنَحَّرتُها ، فقال: فصفها لي ، قال : ماؤها وشَل، وثمرها دَقَل، ولِصُّها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا، فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ فلم يُغزها أحدا [1] .

يعني هل أنت قصدت السجع في الكلام أم أنك تريد معنى ماتقول، ولما تبين له أنه يخبره عن حقيقة مارأى عزم على عدم غزو تلك البلاد، وقد تقدم كلام صحار العبدي في وصف تلك البلاد، وهو يشبه كلام حكيم العبدي وكونها قد اتفقا في الوصف دليل على الخبرة الدقيقة .

ثم كانت محاولة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث توجه الحارث بن مرة العبدي في آخر سنة ثمان وثلاثين ومعه ألف مقاتل، وقد واجه عشرين ألفا من أهل القيقان في معركة دامية انتصر فيها المسلمون وأسروا آلافًا من الأعداء .

وهكذا رأينا ماقام به هذا الجيش من أعمال بطولية ، حيث ثبتوا بشجاعة نادرة أمام جيش يبلغ ضِعفهم عشرين مرة ومع ذلك لم يفروا وواصلوا القتال حتى نصرهم الله تعالى على عدوهم وظفروا بذلك العدد الكبير من الأسرى .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ٦٠٧ .

وهذا مـثل يضـاف إلى بطولات المسلمين العـظيمـة في الثـبـات واحتمال الشدائد .

ولكن هذا القائد البطل قد استشهد هو وعدد من جيشه في معركة أخرى لقلة جيشه أمام جيش الأعداء وذلك في عام اثنين وأربعين[1] .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامـي لبلاد السند والبنجاب لعبد الله الطرازي ١/ ١٣٥-١٣٦، فتوح البلدان / ٦٠٧ - ٦٠٨ .

– الجهاد في السند في عهد معاوية رضي الله عنه –

كانت في هذا العهد محاولات أخرى لفتح بلاد السند وجرت فيها معارك بين المسلمين والكفار وقد تولى القيادة والإمارة على مافتح من بلاد السند كل من :

راشد بن عمرو الجُدَيدي سنة ٤٢هـ .

عبد الله بن سوَّار العبدي سنة ٤٣هـ .

المهلَّب بن أبي صفرة سنة ٤٤هـ .

عبد الله بن سوَّار العبدي مرة أخرى سنة ٤٥هـ .

سنان بن سلمة بن المحبَّق سنة ٤٨هـ .

راشد بن عمرو الجديدي مرة أخرى سنة ٤٨هـ .

سنان بن سلمة بن المحبق مرة أخرى سنة ٥٠هـ .

عباد بن زياد بن أبيه سنة ٥٣هـ .

المنذر بن الجارود سنة ٦١هـ .

حرِّي بن حرِّي الباهلي سنة ٦٢ هـ .

وكان النصر في أكثر المواجهات الحربية حليف المسلمين ، كما أنهم أصيبوا في بعضها [١].

ولقد سطر التاريخ مواقف عالية لبعض هؤلاء القادة ،من ذلك

---

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط / ٢٠٥ - ٢١٣ .

فتوح البلدان للبلاذري /٦٠٨ - ٦١١ .

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي /١/٥٣ .

ماذكره البلاذري عن عبد الله بن سوار العبدي أنه كان سخيا ، لم يوقِد أحد نارًا غير ناره في عسكره،فرأى ذات ليلة نارًا فقال: ماهذه؟ فقالوا: امرأة نفساء يُعمل لها خبيص، فأمر أن يُطعم الناس الخبيص ثلاثا (١).

ومن ذلك ماذكره خليفة بن خياط عن سنان بن سلمة بن المحبق قال: فحدثنا أبو اليمان النبال قال : غزونا مع سنان « القيقان » فجاءنا قوم كثير من العدو فقال سنان : أبشروا فأنتم بين خصلتين : الجنة والغنيمة، ثم أخذ سبعة أحجار وواقف القوم ، قال: إذا رأيتموني قد حملت فاحملوا ، فلما صارت الشمس في كبد السماء رمى بحجر في وجوه القوم وكبر ، ثم رمى بها حجرا حجرا حتى بقي السابع ، فلما زالت الشمس عند كبد السماء رمي بالسابع ثم قال: حم لاينصرون ، وكبَّر وحمل وحملنا معه فمنحونا أكتافهم فقتلناهم ، وسرنا أربعة فراسخ فأتينا قوما متحصنين في قلعة فقالوا: والله ماأنتم قتلتمونا ولاقتلَنا إلا رجال مانراهم معكم الآن على خيل بُلق، عليهم عمائم بيض ، فقلنا : ذلك نصر الله ، فرجعنا والله ماأصيب منا إلا رجل واحد فقلنا لسنان : واقفت القوم حتى إذا زالت الشمس واقعتهم ؟ قال : كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ (٢) .

وكون هذا القائد يتذكر هذه السنة النبوية ويطبقها دليل على علمه وصلاحه، وهي سنة اختيارية يقدَّم العمل بها إذا لم تقتض مصلحة القتال غير ذلك .

---

(١) فتوح البلدان /٦٠٨ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط / ٢١٢ - ٢١٣ .

وموضوع رمي الأحجار لعله أراد بها وسيلة انضباط للجيش حتى لايقدموا على القتال حتى يرمي الحجر السابع ، والمقصود هو التكبير ولكن لعل بعض أفراد الجيش لايسمعون التكبير بينما يرون رمي الأحجار.

وكون هذا الجيش نُصر بالملائكة عليهم السلام دليل على صلاح القائد والجنود وأنهم قد بذلوا كل طاقتهم في الاستعداد للمعركة والقتال، ولكن الأعداء كانوا فوق إمكاناتهم فنصرهم الله تعالى بجنود من عنده ، والملائكة في القتال يقدر الله تعالى أن الكفار يرونهم ليصابوا بالرعب والفشل بينما لايراهم المؤمنون لكي لايتكلوا عليهم.

- الجهاد في السند في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد -

نظرا لما حدث في البلاد الإسلامية من الاضطرابات بعد وفاة معاوية رضي الله عنه فإن الفتوحات الإسلامية قد توقفت في بلاد السند، وحينما استقرت أوضاع بلاد الإسلام في عهد عبد الملك بن مروان بدأ النشاط الجهادي في هذا الإقليم حينما تولى الحجاج بن يوسف إمرة العراق والمشرق .

ولاية سعيد بن أسلم الكلابي على السند :

ولّى الحجاج بن يوسف سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي على إقليم مكران الذي تم فتحه من بلاد السند عام خمسة وسبعين، وكان الوضع فيها مضطربا حيث كان يسيطر عليها طائفة من العرب الذين تمردوا على الدولة الإسلامية وانضموا إلى « داهر » ملك السند وهم العلافيون ، وكان يتزعمهم رجلان منهم هما معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافي ، وهم ينتسبون إلى علاف وهو ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وقد استطاع سعيد بن أسلم أن يسيطر على البلاد ، إلا أن العلافيين خرجوا عليه وقتلوه واستطاع محمد ومعاوية العلافيان أن يسيطرا على الحكم في البلاد وذلك في عام ثمانية وسبعين (١).

ولاية مجّاعة بن سعر التميمي :

ولّى الحجاج بن يوسف مجاعة بن سعر التميمي على إقليم

---

(١) فتوح البلدان / ٦١١ ، الكامل في التاريخ ٣٦/٤ تاريخ خليفة بن خياط / ٢٩٦ ، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية للطرازي ١٥٦/١ .

مكران عام تسعة وسبعين ، وأسند إليه مهمة القضاء على العلافيين وتثبيت حكم الإسلام في ذلك البلد واستئناف الجهاد لفتح السند، وبعث معه جيشا قويا ، ولما أن علم العلافيون بقدومه تركوا البلاد وهربوا إلى داخل بلاد السند تحت حماية « داهر » ملك السند ، ولما وصل مجاعة إلى مكران وفرغ من أمور توطيد الأمن بها توجه إلى «قندابيل» ففتح نواحي منها ، ولكنه مالبث أن توفي بعد عام من وصوله إلى بلاد السند (١) .

ولاية محمد بن هارون النمري على مكران :

بعد وفاة مجاعة بن سعر ولّى الحجاج بن يوسف على مكران محمد بن هارون بن ذراع النمري ، وذلك في عام ثمانين للهجرة .

وقد حدث في ولايته أن أهدى ملك جزيرة الياقوت (٢) إلى الحجاج سفينة تحمل مجموعة من النساء المسلمات اللاتي وُلدن في تلك الجزيرة ومات آباؤهن وكانوا تجارا ، فأراد بذلك التقرب إلى رجال الدولة الإسلامية ، فعرض لتلك السفينة جماعة من اللصوص في بوارج قرب مدينة الديبل، فأخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهن وكانت من بني يربوع : ياحجاج ، وبلغ الحجاج ذلك فقال: يالبيك ، فأرسل إلى ملك السند « داهر » يسأله تخلية النسوة، فقال: إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم .

---

(١) فتوح البلدان / ٦١١ ، تاريخ خليفة بن خياط / ٢٧٨، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية ١/١٥٨ .

(٢) وتسمى جزيرة سرنديب وهي سيلان التي أصبحت تسمى سيرلانكا .

فبعث الحجاج جيشا بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمي لإنقاذ تلك النساء ، ولكن هذا الجيش هزم وقتل قائده .

ثم بعث الحجاج جيشًا آخر بقيادة بُدَيل بن طَهْفة البجلي وكان شابًا شجاعًا فدارت معركة دامية من الصباح إلى المساء وكان فرس بديل يهيج من هيبة الفيلة فربط عينيه وقاتل بشجاعة نادرة واستطاع بمفرده أن يقتل نحو ثمانين رجلا من العدو حتى استشهد وانهزم جيشه ووقع بقيتهم في الأسر حيث ضمَّهم ملك السند إلى سجناء الدَّيبل[1].

* * *

---

(١) فتوح البلدان / ٦١١-٦١٢ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب للطرازي ١/ ١٦٢ - ١٦٣ .

- حملة محمد بن القاسم وفتح السند -

لما بلغ الحجاج بن يوسف خبر أسر المسلمين في السند ونكبة الجيشين اللذين بعثهما استشاط غضبًا وحزن على مصير هذين الجيشين فأقسم على غزو السند بحملة كبيرة وكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بالأحداث المؤلمة في بلاد السند ويستأذنه في بعث جيش كبير لفتح السند وتخليص السجناء من المسلمين والمسلمات فوافق الوليد بعد تردد .

وجهز الحجاج جيشًا كبيرًا في عام تسعة وثمانين، صرف عليه أموالاً عظيمة وأسند قيادته لمحمد بن القاسم الثقفي[1]، وكان الحجاج قد عرف فيه الجد والشجاعة وحسن الإدارة ،ولقد وُفِّق إلى حد كبير في إدارة ذلك الجيش ثم في إدارة شئون البلاد بعد فتحها كما سيتبين لنا من عرض فتوحاته وسيرة عمله الإداري .

وسار محمد بن القاسم من العراق في ستة آلاف بكامل تجهيزهم وقد أعد الحجاج له مددًا من شيراز فسار حتى وصل شيراز وانضم إليه ستة آلاف آخرون ، فأرسل المنجنيقات والأسلحة الأخرى الثقيلة بحرًا مع بعض الجيش إلى ميناء الديبل بقيادة خريم بن عمرو وابن المغيرة وأمرهما أن يسبقاه إلى الديبل وسار هو عن طريق مكران[2] .

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، يجتمع هو والحجاج في الحكم - الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ .

(٢) فتوح البلدان / ٦١٢ ، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب/ ١/ ١٦٤-١٦٧ .

وهكذا رأينا كيف تجهز هذا الجيش بالأسلحة الثقيلة كالمنجنيقات التي أصبحت فيما بعد تسمى المدافع ، وهذا دليل على تقدم المسلمين في الاستعداد الحربي، وسرعتهم في الاستفادة مما وجدوه من ذلك عند الأمم الأخرى ، مع ماأضافوا إلى ذلك من ابتكارات جديدة .

هذا ولما وصل محمد بن القاسم إلى مكران انضم إليه واليها محمد بن هارون النمري مع جيشه المكون من أربعة آلاف حيث أصبح جيش ابن القاسم ستة عشر ألفًا .

بعد ذلك قام ابن القاسم بفتح بعض المدن في أول السند حيث فتح قَنْزيور وأرمابيل تمهيدًا للهجوم على الدَّيبل التي تعتبر من أكبر مدن السند وميناء البلاد ، ويرجِّح بعض الباحثين أنها هي مدينة كراتشي الحالية .

ثم سار بجيشه حتى وصل إلى الديبل وذلك في يوم الجمعة من شهر محرم عام ثلاثة وتسعين .

ووصلت في الوقت نفسه المراكب البحرية التي كانت تحمل بعض الجنود والأسلحة الثقيلة ، فأمر بحفر خندق حول الجيش وقام بتنظيم أموره حيث أنزل الناس على راياتهم ، ووُضِعت المجانيق الثلاثة التي تَزَوَّد الجيش بها، وأهمها منجنيق يسمى« العروس» يقوم على القذف به خمسمائة رجل، فحاصر المسلمون مدينة الديبل وجرت بينهم وبين أعدائهم مناوشات حربية .

ولما بدأ المسلمون بالهجوم بالمنجنيق على الحصن خرج منه رجل وطلب الأمان ، فأعطاه ابن القاسم الأمان ، فذكر لهم اعتقادًا سائدًا

عندهم وهو أن بلادهم ستُفتَح على يد جنود الإسلام ، وأن الأمان من ذلك بقاء العَلَم المثبت فوق المعبد وكان معبدهم عظيم الارتفاع وفوقه قبة عليها علم كبير يتدلَّى من الجهات الأربع .

فلما سمع ابن القاسم ذلك الكلام قرر الاستفادة من هذا الاعتقاد فوجه المنجنيق الضخم نحو ذلك المعبد ، وأمر قائد المنجنيق جَعُوبَةَ السلمي بضرب ذلك العلَم ووعده بعشرة آلاف درهم جائزة له إذا أصاب الهدف، ولكن جعوبة اشترط أن يقطع من طول المنجنيق بقدر مترين ، فقال محمد بن القاسم : إذا لم تنجح فقد ضاعت أهمية آلة المنجنيق ، فقال جعوبة : إذا لم أُسقِط العلم ولم أكسر قبة المعبد فلتُقطَع يدي ، وعندئذ وافق ابن القاسم على قطع المنجنيق بعد حصوله على الإذن من الحجاج، ثم صوَّب الرامي منجنيقه فانطلقت القذيفة الحجرية الأولى واسقطت العلم، ثم أطلق القذيفة الثانية فكسر بها قبة المعبد ، فعند ذلك هاج الكفار وخرجوا فناهضهم المسلمون حتى هزموهم وردُّوهم .

وأمر ابن القاسم بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وهرب عامل داهر عنها، واختط محمد بن القاسم للمسلمين بها بيوتًا وبنى فيها مسجدًا وأنزلها أربعة آلاف من المسلمين (١) .

وهكذا تم فتح حصن من أهم حصون الكفار في ذلك البلد، وجَرَى في أثناء ذلك أمور تستحق الوقوف عندها، منها التنويه بخبرة

---

(١) فتوح البلدان ٦١٣-٦١٤ ، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ١٦٨-١٧١ .

المسلمين الحربية حيث كان جعوبة المسلمي صاحب المنجنيق واثقًا من إصابته الهدف إلى الحد الذي غامر فيه على ذلك بقطع يده ، وقبل ذلك دقة خبرته بآلته حيث اشترط قطع مترين من طول المنجنيق ليتكفل للقائد بإصابة الهدف .

فلله درُّهم ما أسرع تفاعلهم مع مكتشفات عصرهم !

وما أبرعهم في الاستفادة من قدراتهم في الوصول إلى معالي الأمور !!

لقد آمنوا بالإسلام حقا وصدقا ففجَّر هذا الدين طاقاتهم ووجههم نحو العلو في الأرض على قواعد الصدق والعدل، وكان لابد للوصول إلى هذا الهدف العالي من اكتساب جميع الخبرات العسكرية والمدنية من حولهم ثم التفوق على غيرهم في ذلك، وكان لهم ماأرادوا فكانوا أبرع من الأعداء في استخدام الأسلحة التي توارثها الأعداء كابرًا عن كابر .

وهكذا تكون نهضة الأمم ورقيها نحو المعالي والتمكين في الأرض.

ومن الأمور التي تستحق الوقوف براعة القائد محمد بن القاسم في اغتنام الفرص المؤدية إلى النجاح، فما أن علم بعقيدة أولئك الكفار القائمة على اعتقاد حلول الهزيمة بهم مع زوال عَلَمهم الكبير حتى غيَّر خطته الحربية وبدأ بقصف ذلك العلَم والقبة التي تحمله ليهزمهم معنويًا قبل أن يواجههم عسكريًا.

وهكذا يجب على القادة أن يتلمسوا مواطن الضعف عند الأعداء

ليوجهوا ضـرباتهم من خلال جوانب الضعف، فيجـتمع على الأعداء جانب الضعف الذي يهز معنوياتهم ويضـعفها إلى جانب قوة المسلمين التي لايقف أمامها أحد في الغالب .

ولقـد كانت هذه العـقائد مـصـدر إزعاج وضـعف للكفار أمـام المسلمين الأقوياء بعقيدتهم الصافية القوية، فاستفاد المسلمون من ذلك فوائـد عظيمـة كمـا سبق لنا في عـرض مواقف المسلمين مع الـفرس والروم.

وأخيراً وصل محمد بن القاسم إلى السجن الكبير الذي كان ملك السند قد احـتجز فـيه جمعًـا من المسلمين والمسلمات ، بعـضهم من التجار ونسائهم ، وبعضهم من أسـرى الحرب، ونساء فقدْنَ أولياءهن من التـجار الذيـن هلكوا في تلك البـلاد وماحـولهـا، فأفـرج عنهم وتركهم فترة للراحـة ، ثم أعادهم إلى وطنهم الإسلامي، وحقق ابن مسلم في ذلك إجـابة الحجاج حينما قـال : يالبيك ، لنداء تلك المرأة المسلمة التي قالت من وراء القضبان : ياحجاج .

وهكذا كان المسلمون أعزَّةً باعتـزازهم بدينهم ، واهتمامهم بأمور إخـوانهم المسلمين، فليـس من شأن المـؤمن الحق أن ينام قـرير العين هادئ البال، وأن يـنعم بالطيبـات والأمن والراحة وإخوانه المـسلمون يقتَّلون ويشرَّدون ويعذبون . وتُمَلؤُ بهم السجون ، وينالون فيها أنواع الإذلال والتعذيب .

ولقد كـان الحجـاج بن يوسف من قسـاة القلوب الذين اشتـهروا بالظلم والجبروت، ومع ذلك جهز تلك الجيوش لإنقاذ أولئك المسلمين

من أيدي أعـدائهم، لأن المـسلمين في ذلك الزمن لوعـــيـهم الديني يدركـون أن إذلال الكفـار للمسلـمين يعتـبـر إهانة للإسـلام نفسـه، فالمسـارعة لإنقـاذ المسلمين تعـتبر إعـزازًا للإسلام بالـدرجة الأولى، ورحمة بالمسلمين بالدرجة الثانية .

هذا ولقد توَّج ابن القاسم أعماله في فتح مدينة الديبل بالعفو عن المشـرف على السجن لَّما شـهد السـجناء المسلمـون بأنه كان يعـاملهم معاملة كريمة، فعفا عنه ابن القاسم من باب مبادلة الإحسان بالإحسان، بالرغم من أن أوامر الحـجاج تنص على قتله هو وأمثـاله، إضافة إلى أنه فوض إليه الإشراف على الأمور المالية في مدينة الديبل.

وكـان من نتيـجـة هذه المعـاملة الكريمة من ابن القـاسم أن ذلك السجَّان الدَّيبـلي أعلن إسلامه [1]، وهذا مثل من الأمثلـة الكثيرة في تاريخ المسلمين الأوائل التي يكون فـيها إسـلام الكفار بسبب مـعاملة المسلمين الكريمة لهم .

وإن ماقام به ابن القاسم من تفويض الأمور المالية إلى ذلك الرجل يعتبر لفتة إدارية عالية، تدلنا علـى ماكان يتمتع به ابن القاسم من خبرة دقيـقة في معادن الرجـال، فالرجل الذي كان يعـامل أعداءه في الدين مـعاملة كـريمة في السـجن وهو قادر علـى ضد ذلك، ثم يسـارع إلى اعتناق دين اعـدائه لما أدرك أحقيته وسـموه جدير بأن تُسند إليـه مَهامُّ الأمور.

---

(١) موسـوعة التاريخ الإسـلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧١ - ١٧٢ ، فـتوح البلدان ٦١٣ - ٦١٤ .

ووقفة أخيرة في هذه النقطه تدلنا على تمتع القادة المسلمين آنذاك بحرية التصرف، انطلاقا من مبدإ « يرى الشاهد مالايرى الغائب» فالحجاج قد أمر بقتل المقاتلين والمشرفين على سجن المسلمين، ولكن هذا السجان قد شفع له كريم معاملته للمسلمين في السجن، فالاجتهاد وارد في الحكم في القضايا من منطلق دراسة الواقع .

فتح مدينة النّيرون :

لما انتهى محمد بن القاسم من فتح مدينة الديبل اتجه إلى مدينة النيرون [حيدر أباد حاليًا] ونزل في مواضع من ضواحيها ولم يكن نهر السند يمر به فضاق الجنود من العطش حتى أمطرت السماء وامتلأت الخزانات بالمياه وشرب جنود الإسلام وحمدوا الله تعالى .

وهكذا قيض الله جل وعلا ذلك المطر لإنقاذ المسلمين وتقوية قلوبهم حتى يواجهوا أعداءهم بقوة ونشاط ، وهذا مثل من كون الله تعالى مع أوليائه بنصره ومعونته لما يريد بهم من إظهار دينه وإعلاء كلمته في الأرض .

ووصل ابن القاسم بجيشه تلك المدينة بينما وصلت المؤن الثقيلة التي بعث بها مع بعض الجنود على السفن في نهر ساكره .

وحاصر المسلمون تلك المدينة عدة أيام وكان واليها غائبًا ، فلما قدم أبرز كتاب صلح بينه وبين الحجاج وفتح المدينة للمسلمين .

ثم حضر بهندركن والي المدينة إلى محمد بن القاسم ومعه الهدايا والتحف فأكرمه ابن القاسم واتّخذه مستشاراً وولّى على مدينته واليًا مسلمًا (١).

---

(١) الكامل في التاريخ٤/ ١١١ ،موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ١٧٣ .

وهكذا كان ابن القاسم يعامل المسالمين معـاملة كريمة ويستفيد من خبرة من يظهر النصح للمسلمين مع عـدم الاعتماد عليه في القرارات النهائية، وتلك منقبة من مناقبه العظيمة التي جعلته يفتح ذلك الإقليم الواسع في وقت قصير، مع مـاقام به من ترسيخ أقدام المسلمين هناك وبث الإسلام بين أبناء البلاد .

فتح إقليم سيوستان :

ثم اتجه ابن القاسم إلى إقليم سيوسـتان وبصحبته بهندركن الوالي النيروني وكان له أتباع بوذيون في ذلك الإقليم فاجـتمعوا به وأخبروه بأنهم موافقـون على ماجاء في رسالة الحجـاج إليه من قوله « كل من طلب الأمان له الأمان » ولكن حاكم ذلك الإقليم رفض الصلح وهو بَجْـهـرا بن جندر ابن عم الملك داهر ملك السنـد، فحـاصـرهم ابن القاسم وصوَّب المجانيق نحو مدينتهم لمدة أسبوع ليلاً ونهارًا حتى شعر السكان بالضـيق والخوف فتـوقفوا عن القـتال ، ولما علم الأمـير بأن السكان قد يئسوا من المقاومة هرب في المسـاء من الباب الشمالي وعبر النهر متجهًا إلى منطقة البودهية .

وبعد هروب الحاكم دخل محمد بن القاسم مـدينة سيوستان فاتحًا وأعلن أهلهـا البوذيون منهـم الطاعة وعـيَّن نوابًا من أماكن مـتعـددة وجمع الغنائم ماعدا مايخص البوذيين الذين أعلنوا الطاعة .

ومما هو جدير بالذكـر إسلام جماعـة كبيـرة من البوذيين على يد محمد بن القاسم من أهل جنه في سيوسـتان ، وقصة إسلامهم مؤثرة حيث أرسلوا مندوبًا لهم إلى معسكر المسلمـين لمعرفة أخبارهم ،وحين

وصل كان جنود الإسلام قد وقفوا في الصلاة في خشوع مهيب خلف إمامهم محمد بن القاسم فاندهش لمنظرهم ، وأخبر قومه بذلك ، فقالوا: إذا كان العرب هكذا يعبدون الرب ويطيعونه ولايتركون صلاتهم حتى في أخطر المواقف وهم بهذا الشكل من الاجتماع فلايمكن لنا مقاومتهم وهذا دليل على صحة دينهم .

واختاروا وفداً من زعمائهم أرسلوهم إلى ابن القاسم وعرضوا له طاعتهم وأُعجبوا بأخلاقه ومعاملته فأعلنوا إسلامهم ، ثم عادوا لقومهم فدعوهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا (١) .

وهكذا رأينا عظمة الصلاة وبركتها وتأثيرها القوي على مشاعر من يشاهد لأول مرة المصلين وهم يصلون ، وخاصة إذا كانوا يصلون جماعة .

وإن من أهم عوامل التأثير في الصلاة ماتشتمل عليه من الخشوع القلبي القائم على حضور القلب مع الله تعالى، والذي يترتب عليه سكون الجوارح وخضوعها لله جل وعلا ، مِنْ وَضْع اليد على اليد حال القيام والنظر الدائم إلى موضع السجود وعدم تحريك الأعضاء إلا بموجب حركات الصلاة .

وإن أبلغ مافي الصلاة من التأثير قيام الجماعة من المسلمين في صفوف منتظمة متساوية خلف إمام واحد، وتزيد عظمة هذه الجماعة ومنظرها المهيب حين يتضخم العدد فيصل إلى الألوف من المصلين كما هو الحال في تجمعات الجيوش وتجمعات المدن الكبيرة .

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧٤ - ١٧٦ .

وإن ممايزيد في إعجاب الأعداء كما هو مذكور في الخبر كون المسلمين لايتنازلون عن صلاتهم الجماعية حتى في أحرج المواقف وهم واقفون أمام أعدائهم ،وهذا يبين لنا حكمة من حِكَم شرعية صلاة الجماعة .

المعركة الفاصلة مع ملك السند :

استمر محمد بن القاسم يتقدم ويفتح المدن صلحا في غالب الأمر حتى وصل إلى جيش الملك داهر وكان بينهما نهر السند ، فأرسل إليه ابن القاسم رسولا يسمى الشامي ومعه مترجم وهو قبلة بن مهترائج الذي كان مشرفًا على سجن الديبل وأسلم على يد محمد بن القاسم، فلما دخل على ملك السند لم يسجد له تعظيمًا حسب عادة أهل السند مع ملكهم، وكان الملك داهر يعرفه فغضب وقال : لو لم تكن رسولا لقتلتك ، فقال هذا الديبلي : نعم إنني الآن مسلم ولايصح في الإسلام أن يسجد إنسان لإنسان وإنما السجود لله رب العالمين، وإن قتلتني فإن المسلمين ينتقمون لي .

ثم ذكر حديث رسول المسلمين الشامي للملك حيث ذكر له رسالة ابن القاسم إليه بتخييره بين أن يعبر النهر إلى المسلمين أو يتركهم يعبرون إليه بعد أن رفض الدخول في الإسلام ودَفْع الجزية[1].

وهكذا رأينا موقفًا عاليًا من ذلك الرجل الدَّيبلي الذي أسلم حديثًا حيث تفقه في الدين سريعًا فأدرك التقاليد الجاهلية التي تتعارض مع الإسلام وفهم توحيد الله سبحانه للعبادة والتعظيم فلم يسجد لذلك الملك كما يصنع قومه الكفار ، ثم أظهر اعتزازه بانتمائه

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٠، فتوح البلدان ٦١٤.

للمسلمين حيث أظهر التحدي لذلك الملك ببيان عزة المسلم وكرامته عند إخوانه حتى لو كان حديث عهد بالإسلام ، هذه العزة التي من مظاهرها غضب المسلمين لإخوانهم وانتقامهم ممن اعتدى عليهم مهما كلفهم ذلك من أموال ومتاعب .

وهكذا كان المسلم آنذاك يظهر إسلامه بشخصية عالية وعزة متناهية حتى وهو بين أحضان الكفار وعند ملوكهم،وماذاك إلا لقوة المسلمين وظهور دولتهم على دول الباطل وعدم خضوعهم لأعداء الإسلام .

ولقد كان لهذه الصور القوية التي أبرزت عظمة الإسلام في نفوس المسلمين وقوة تأثيره على سلوكهم الأثر البالغ في جذب الناس إلى اعتناق هذا الدين الحنيف لما يَشْعر به المنتمي إليه من عزة وحصانة في الدنيا ومآل سعيد خالد في الحياة الآخرة .

وقد استشار ملك السند وزيره سياكر فنصحه بالموافقة على عبور المسلمين مسوِّغًا ذلك بانقطاع المُؤن والإمدادات عن المسلمين إذا عبروا النهر فيسهل القضاء عليهم ، وكان في جيش داهر قوم من العرب من العُلافيِّين بقيادة محمد العلافي ، وهم عرب تمردوا على دولة الإسلام ولحقوا بملك السند فكانوا يحاربون معه المسلمين، فاستشار داهر محمد العلافي فأشار بعدم تمكين المسلمين من العبور وعلل ذلك بأنهم أشداء في الحرب وأن لهم هدفين في القتال إما النصر وإما الموت ، وحيث إنهم لايفرون فمن الصعب على أعدائهم هزيمتهم ، كما أشار بتسليط اللصوص عليهم لنهب الغلات والمواشي والعلف من كل مكان

قريب من المسلمين حتى ينتشر بينهم الجوع والمرض فيتفرقوا ويسهل عند ذلك قتالهم وهزيمتهم .

وقد تحيَّرَ الملك بين الرأيين فقرر أن يترك الخيار للمسلمين في ذلك، ووقف بجيشه على الشاطئ الشرقي للنهر، وقرر محمد بن القاسم عبور النهر ، وفي هذا الوقت وصل إليه خطابان من الحجاج يأمره فيهما بالتجلد والشجاعة وسرعة العبور من موضع مناسب، ويطلب منه إرسال خريطة للنهر لدراستها وإبداء الرأي .

وفي الوقت نفسه استعد الملك داهر فوقف بجيشه على الشاطئ الشرقي من النهر وأمر بعض قواده بالمرابطة بالسفن في الجانب الذي يسهل منه العبور ليُلجئ المسلمين إلى العبور من المواضع الخطرة، وكان يريد القضاء عليهم وهم في حال العبور .

وقد توقف ابن القاسم عن العبور لمواجهة خطط ملك السند ولأن منطقة سيوسان انتقضت عليه فوجه أحد قادته بجيش لإعادة فتحها حتى يكون الطريق من خلف الجيش الإسلامي في أمان .

ونظرًا لتأخر ابن القاسم في العبور مايقرب من خمسين يومًا ولِمَا قامت به العصابات من سحب المُؤَن والأعلاف والأغذية من حول المسلمين فقد أصيبت خيول المسلمين بالمرض .

وقد اغتنم داهر ذلك الوضع السيء بالنسبة للمسلمين فأرسل إلى ابن القاسم يعرض عليه تقديم مساعدة غذائية في مقابل أن ينسحب المسلمون إلى الخلف ، ولكن ابن القاسم رفض ذلك بشدة وكرر

قولته المشهـورة بأنه لن يترك أرض السند قبل أن يرسل رأس داهر إلى الحجاج في العراق .

وهكذا كان قادة المسلمين وجنودهم يتمتعون بالصبر على الشدائد ومصابرة الأعـداء حتى ينزل عليهم الفرج من الله تـعالى ، ولقد نال المسلمون بالصبر الطويل نتائج معارك طالت مدتها واكتنفتها الأهوال، وكان أبرز الفوارق بينهم وبين أعدائهم أنهم أكـثر منهم صبرا على حر القتال واحتمال الشدائد .

وجـاء الفرج من الله تعـالى حـيث علم الحجـاج بن يوسف بما وصلت إليه حال الجيش هناك فأسرع بـإرسال ألفين من الخيول العربية الأصـيلة والمواد الغـذائيـة والخلِّ المجفف فـي القطن المحلوج، وذلك للطعام والدواء .

كما أن الحجاج قام برفع معنوية محمد بن القاسم حتى لايضعف أمام تلك الأهوال حـيث عيَّنه واليا على بلاد السند كلهـا وفوض إليه الأمور ليتصرف كيـف شاء ، ولكنه في الوقت نفسه حذره من الصلح وشجعه على عبور النهر والقـضاء على داهر مهما كلفه ذلك، وأشار عليه بأن يعبر النهر من منطقة « بت » حيث يقل العرض والماء ويسهل العبور ، وذلك بعـد دراسته لخارطة البلاد، ونصحه أيضًـا ببناء جسر على الماء من القوارب لكسب الوقت في العبور ومجابهة الأخطار.

وهذا مـوقف يذكـر للحجـاج بن يوسف حـيث كـان وراء ذلك الانتصار الباهر في بلاد السند وفي غيرها من بلاد المشرق .

هذا وقد رتب محمد بن القاسم الخطط الحكيمة لعبور النهر حيث

كان يدرك جيداً أن خطة الملك داهر أن يقضي على جيشه أثناء العبور، فأرسل فرقة من ستمائة فارس بقيادة سليمان بن نبهان القرشي نحو الحدود الغربية لمدينة راور حتى يمنع الأمير جيسيه بن الملك داهر من التحرك وقت عبور الجيش، وأرسل فرقة من خمسمائة فارس لمراقبة طريق منطقة كنداره لمنع وصول الإمدادات لجيش داهر ، وأمر فرقة ثالثة بقيادة كبار التكاكرة من أهل المنطقة للوقوف في جزيرة بَتّ للدفاع ، وفرقة إلى جيبور قرب راور لمواجهة جيش داهر في خليج يقع بين روار وجيبور ، وأمر بَهَنْدركن الحاكم النيروني الذي اتخذه مستشاراً له بجمع الغلة وتوفير العلف للجيش استعداداً للعبور .

بعد هذا الاحتياط الكافي قرر المسير نحو الشاطئ ثم العبور وأرسل أمام الجيش فِرَقًا استطلاعية ، ووصل بجيشه إلى الشاطئ بأمان فأمر بإحضار المراكب ليعمل منها جسراً يتم العبور عليه وكان قد أمر بتعبئتها بالرمال والأحجار لتثبت في النهر ثم أمر بتسميرها بالألواح الخشبية حتى تم عمل الجسر ، ثم أمر الفِرقَ الفدائية بالتوجه بسفنهم إلى جهات متعددة لحماية الجيش أثناء العبور ، وزحف الجيش الإسلامي فوق المراكب ليلا بإتقان وسرعة وحذر حتى تم عبورهم إلى الشاطئ الشرقي .

كل ذلك والملك داهر يغط في نومه في عاصمته ، وكان قد انشغل باللهو والصيد ولعب الشطرنج اعتماداً على نجاح خططه التي دبَّرها لإبادة المسلمين أثناء محاولات العبور التي يبدو أنها كانت صعبة للغاية لولا عناية الله تعالى ثم التدابير المحكمة التي خطط لها ابن القاسم ثم نفذها بتوجيه من الحجاج بن يوسف .

وما أن وصل المسلمون إلى الشاطئ الشرقي حتى بادروا بالهجوم ليلا على قوات الملك داهر المرابطة فانزعجوا وانهزموا، وهرب قواد الملك إلى العاصمة وأخبروا الملك داهرًا بالخبر فانزعج لذلك وكاد يفقد وعيه[1].

وهكذا نجحت خطط المسلمين بقيادة أميرهم الشاب محمد بن القاسم الثقفي لاعتمادهم قبل كل شيء على الله تعالى وشعورهم القوي بالمسئولية المنوطة بهم وانصرافهم إلى الجد في كل أمورهم واغتنام كل الفرص المتاحة لهم ، بينما فشلت خطط الملك داهر التي اعتمد فيها على مجرد الرأي والتدبير والخبرة الحربية ، وقد حمله بُعده عن الله تعالى واعتماده الكامل على خططه .. حمله ذلك على الغرور والغفلة وإضاعة الفرص المناسبة حتى داهمه الجيش الإسلامي وهو في لهوه وغفلته .

ولما علم ملك السند داهر بما حل بذلك الجيش بعث جيشًا آخر بقيادة محمد العلافي وهو الذي سبق أن ذكرنا أنه وجماعة معه من العرب المتمردين على دولة الإسلام ، فبعثه ملك السند لخبرته بقتال العرب، ولكنه ماأن واجه جيش المسلمين حتى رموه بالسباب وعيروه بالخيانه حتى انهزم وتقهقر إلى الوراء .

فلما علم بذلك ملك السند أرسل جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه الأمير جيسِيه فخرج بجيشه ومعه عدد من الفيله المقاتلة ، ووجه له ابن

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ١٨١-١٨٦، فتوح البلدان/ ٦١٥، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ .

القاسم جيشًا بقيادة عبد الله بن علي الثقفي الذي حارب بشجاعة وقتل كثيراً من جنود العدو وقام بهجوم خاطف على قلب الجيش السندي وحاصر القواد وقتل معظمهم ، فهرب الأمير جيسيه من المعركة وانتصر جيش الإسلام .

ولما علم الأمير « راسل البوذي» أحد كبار القادة والحاكم الجديد لمنطقة بَتّ أن الأمير جيسيه انهزم وفر هاربًا أدرك أن الغلبة للمسلمين، فأرسل مبعوثًا إلى محمد بن القاسم بأنه يريد المبايعة والانضمام إليه، وطلب منه أن يرسل جيشًا صغيراً لأخذه أسيراً إليه في أثناء توجهه إلى الملك داهر حتى لايلومه قومه ، فخرج راسل من المدينة وولّى والده عليها وطلب منه أن يستسلم للمسلمين إن قدموا عليه، وأرسل محمد بن القاسم جيشًا من الفرسان وأسروا راسل فعاهد على الولاء والعمل تحت راية الإسلام .

وهكذا استسلم حاكم هذه الولاية وعاهد على العمل مع المسلمين كما فعل ذلك قبله حاكم الولاية السابق وحكام آخرون، وهي ظاهرة غريبة لم تقع بهذا الشكل في سائر الفتوحات العالمية ، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى ماكان يتمتع به حكام المسلمين وأمراؤهم في الغالب من العدالة والمواساة لمن تحت أيديهم من المسئولين والرعية، وكان ابن القاسم مثالا لهذه الأخلاق الكريمة فاجتذب بسمو أخلاقه والتزامه بآداب الإسلام أولئك الأمراء ، واستفاد من خبرتهم في بلادهم كثيراً حيث ضمهم إلى جيشه وجعلهم مستشارين .

وأمر آخر لعله كان دافعًا لهذا التوجه بهذا الشكل الظاهر من

أولئك الأمراء ، وهو كونهم جميعًا يعتنقون الديانة البوذية بينما كان داهر برهمي المذهب ، وكان البراهمة يعيشون في كبر وخيلاء ويحتقرون الناس من حولهم ويعتقدون أنهم آلهة وأن الناس عبيد لهم، فولَّد ذلك في نفوس الناس كراهية لهم وحقدًا عليهم، فلما سنحت الفرصة للأمراء البوذيين في التخلص منهم اغتنموا ذلك ورأوا في المسلمين خير بديل عنهم لما رأوا فيهم السماحة والعدل والتواضع على خلاف ما ألفوه من البراهمة .

واغتنم ابن القاسم هذه الفرصة فمنح هؤلاء ثقة كبيرة وأكرمهم وأشعرهم بوجودهم كأمراء لهم مكانتهم بين قومهم فأفاد الجهاد الإسلامي فائدة كبرى بكسب رأي هؤلاء وخبرتهم ومساندتهم جيش المسلمين بالجنود والعتاد الحربي .

بعد ذلك استعد ابن القاسم لقتال الملك داهر ، فانتقل إلى موضع يقال له نارائي ومعه الأمير راسل والأمير موكه ،وكان الملك داهر يعسكر في موضع قريب منه يقال له قاجيجاق وكانت بينهما بحيرة ، وقد أشار راسل بضرورة عبور البحيرة وأحضر القوارب، ونقل عليها الجنود في ظلام الليل إلى داخل خليج هناك، ثم تقدموا قليلا نحو مدينة جيبور حتى وصلوا عند نهر دوهاواه الذي تقع عليه قرى كثيرة ، فعسكروا هناك ليسهل القيام بالهجوم على الملك داهر من الأمام والخلف .

وعلم داهر بوصول المسلمين إلى جيبور فترك أسرته في قلعة راور وتحرك بجيشه ووقف على بعد فرسخ من المسلمين،وتقدم محمد بن

القاسم ووقف على بعد نصف فرسخ ، واستعد الجيشان للحرب المصيرية.

وبدأت الحرب بتقابل فرق من الجيشين لمدة أسبوع ، بدأت بعدها الحرب الشاملة التي انتهت بعد ثلاثة أيام بانتصار المسلمين وكان النصر في جميع تلك اللقاءات لجيش المسلمين .

ولما رأى الملك داهر تلك النتائج السيئة لجيوشه قرر أن يخوض المعركة النهائية بنفسه ، فجمع قواته كلها التي بلغت مائة وعشرين ألفا يقودها خمسة آلاف فارس من أبناء الأمراء والقواد المشهورين، ومعهم عشرة آلاف فارس بكامل تجهيزهم وثلاثون ألفًا من المشاة المجهزين بالدروع والسهام والرماح إلى جانب عشرات الألوف من أفراد القبائل المختلفة، يتقدمهم مائة من الفيلة الرهيبة التي كانت أخطر مايواجهه المسلمون من سلاح الأعداء .

ونظَّم ابن القاسم جيشه فجعل على المقدمة عطاء بن مالك القيسي مع جيشه من الفرسان ، وجعل جهم بن زحر البجعي مع جيشه من الفرسان على الميمنة ، وجعل ذكوان بن علوان البكري على الميسرة ونباتة بن حنظلة الكلابي في المؤخرة ، وبقي هو في القلب ومعه محرز بن ثابت وبعض القواد من العرب والسند ، وأعلن في الجيش بأنه إذا قُتل في الميدان فالقيادة العليا لمحرز بن ثابت .

وبدأت المعركة فتقدم محرز بن ثابت بفرقته من القلب فاستشهد

وتقهقرت فرقته، وكذلك تقدمت فرقتان فانهزمتا بسبب الهجوم الشرس من الفيلة (١).

هذا وقبل الحديث عن المعركة فإنه لابد من الإشادة بموقف محرز ابن ثابت الذي ولاه محمد بن القاسم قيادة الجيش من بعده فيما لو استشهد.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية الدنيوية التي يتسابق الناس فيها على التسلق نحو درجات المجد والشهرة ومايتبع ذلك من الحصول على الأموال والتمتع بطيبات الحياة . . إذا نظرنا إلى ذلك فإن الحال تقتضي أن يحاول هذا القائد البديل أن يحمي نفسه من بأس الأعداء بمجموعة من الحراس حتى يُبقي على حياته ليتبوأ ذلك المنصب المرتقب، ولكن المسلمين الصادقين من أمثال محرز بن ثابت تهون عليهم أنفسهم وحياتهم الدنيا بما فيها من مجد ورفعة في سبيل إعزاز الدين وإعلاء كلمة الله تعالى ، فلذلك كان أول مغوار فدى أمته بنفسه حتى خرَّ صريعا تحت أقدام الفيلة وخيول الأعداء ، فلله دَرُّهم ماأكبر همتهم وما أبعد غايتهم !

ولما رأى محمد بن القاسم ما أصاب بعض المسلمين من الانهزام والتقهقر أمام جيش الفيلة ناداهم بأعلى صوته وحثهم على الصبر والجهاد فقاموا بحملة قوية على الجيش السندي وقتلوا تسعة من الفيلة

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/١٨٧ - ١٩٠، فتوح البلدان/ ٦١٥ .

فتشجعوا بذلك ، وأخذ الكفار يتقهقرون إلى الخلف حتى توقف القتال عند المساء .

وانتهى اليوم الأول من هذه المعركة الكبرى ، وقد أبلى المسلمون بلاء حسنا وأخذوا فيه خبرة كافية عن سلاح الأعداء وقوتهم وتخطيطهم الحربي .

ولقد كان لابن القاسم موقف يذكر حيث كان رابط الجأش ثابت الجنان بالرغم من صغر سنه ، فلم يتزعزع حينما رأى المسلمين يتفرقون ويتضعضعون أمام الفيلة ، بل ثبت وناداهم بقوة ليجتمعوا وليبذلوا طاقتهم في قتال عدوهم .

وإنَّ توفر هذه المقدرة الفائقة عند ابن القاسم . . من الشجاعة الفائقة ودقة التخطيط وحسن التدبير والثبات عند المواقف الصعبة مع أنه كان في سن الشباب دليل واضح على تفوق المسلمين في مجال التربية ، وأنهم كانوا يهتمون بتأهيل أبنائهم منذ الصغر للمجالات التي يَنْشُدون تفوقهم فيها ، إذ أن مثل هذه المقدرة لاتتوفر في سن مبكرة بغير الإعداد التربوي الجاد المنظم .

ولقد كان جديرًا بقول الشاعر فيه :

إن السماحة والمروءة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة[1] ... ياقُرْبَ ذلك سُؤددًا من مولد

كان هذا اليوم الأول من المعركة يوافق يوم الإربعاء التاسع من

(١) أي لسبع عشرة سنة ، وذلك محمول على ابتداء أمر إمارته وقيادته حيث تولى إمارة خراسان عام ثلاثة وثمانين للهجرة .

رمضان المبارك من عام ثلاثة وتسعين للهجرة كما ذكر المؤرخون .

وفي يوم الخميس الموافق للعاشر من رمضان استُؤنفت المعركة بين الطرفين ، وقد حصل تغيير لبعض مواقع القادة من الجانبين حسبما تقتضيه ظروف المعركة .

ولقد كان مما خرج به الأعداء في اليوم الأول أنهم أدركوا خطورة سلاح الفيلة على المسلمين فعزموا على تركيز هجومهم بالفيلة في اليوم الثاني ، كما أن المسلمين أدركوا ذلك فعزموا على توجيه اهتمامهم في القضاء على تلك الفيلة ، وكان مع المسلمين ثلاثة منجنيقات يحركها ويرمي بها تسعمائة من الرماة ، فقسم ابن القاسم هؤلاء إلى ثلاث فرق وأمرهم بأن يشعلوا النيران وأن يوجهوا قذائفهم المشتعلة بالنفط نحو الفيلة والمجموعات التي تقودها .

وبدأ المسلمون يومهم ذلك بعد صلاة الفجر بسماع خطبة حماسية ألقاها قائد المسلمين الشاب، حثهم فيها على النصر والثبات ومواصلة القتال مهما كانت الظروف ، وذكَّرهم بالله تعالى وماأعده لعباده المؤمنين الصابرين .

وبدأت المعركة بهجوم فرقة من مائتي فارس من المسلمين بقيادة نبهان أبو فقيه القشيري ، وتقدم لها فرقة من السند فانهزموا أمام المسلمين وقُتل كثير منهم ، وكانت بداية طيبة رفعت معنوية المسلمين.

وتلا ذلك اشتباك بين فرق من الجيشين ، وبدأ الرماة بالقذف بالسهام المشتعلة بالنفط من المجانيق على قلب الجيش السندي الذي

تصدَّرتْه الفيلة ، فحصل للسند فزع واضطراب ، وتفرَّقَ جمعُهم قليلا حتى تمكن المسلمون من الدخول في جيشهم .

وكان أحد قادة المسلمين وهو « الشجاع الحبشي » قد أقسم أن لايذوق الطعام إلا إذا هجم على فيل داهر ، وكان قائد الفيلة، وهو فيل ضخم أبيض اللون ، فربط الحبشي عيني فرسه حتى لايهيج من الفيلة وهجم على الفيل الأبيض وجرحه ، فهاج وتأثرت بذلك بقية الفيلة وأخذت تصيح وتميل شمالا ويمينًا وأحدثت خللا في توازن الجيش، ولكن داهر استطاع أن يرمي الحَبَشي بسهم قاتل فوقع شهيدًا رحمه الله تعالى (١) .

وهكذا قام هذا الفدائي المسلم بعمل يقربه من الله تعالى وأقدم على عمل يرجو فيه الشهادة والإثخان في العدو ونصْر المسلمين فتحقق له ماأراد .

وهذا من النماذج الكثيرة التي لاتتوفر لدى غير المسلمين إلا بنسبة قليلة وبدافع من تعويض مادي كبير أو منصب رفيع يرجو فيه صاحبه أن يُحظَى بالنجاة ليتمتع بذلك العوض ، وهذا الرجاء يُضعف من مقدرة الفدائي وإقدامه كثيراً لأن الهمَّ الكبير الذي يستولي عليه هو أن يدافع عن نفسه حتى يظفر بالحياة التي علَّق عليها الآمال السعيدة، بينما يندفع المسلم بكل طاقته في الهجوم لعله يظفر بالشهادة ليُحظَى بالحياة السعيدة في الآخرة ، حيث يعلق عليها كل آماله السعيدة،

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٢-١٩٤، فتوح البلدان/ ٦١٥.

وفرق كبير بين من يقاتل ليُقْتَل وبين من يقاتل ليبقَى على قيد الحياة.

وهكذا كانت جيوش المسلمين في ذلك العصر الذهبي إلى جانب كونها تضم القادة الأكفاء الذين يقدِّرون الكفاءات ويستشيرون أهل الرأي ويعيشون قضيتهم بكل أحاسيسهم فإنها كانت تضم الجنود المخلصين الذين جعلوا قضيتهم الكبرى هي نصر الإسلام والمسلمين وإغاظة الأعداء ودحر الجبابرة والظالمين .

وفي أثناء القتال توجهت طائفة من قواد السند وجنودهم نحو محمد بن القاسم طالبين الأمان فأعطاهم الأمان وأعلنوا إسلامهم أمامه ، وكانت هذه أول مجموعة كبيرة من أتباع الديانة البرهمية من قواد الملك داهر وجنوده تدخل الإسلام برغبتها في أيام الفتوحات، وقد عرض هؤلاء القواد والجند على محمد بن القاسم خطة عسكرية ليثبتوا صحة إيمانهم وولائهم ، بأن يأذن لهم أن يقوموا بمهاجمة مؤخرة جيش داهر على غفلة على أن يقوم الجيش الإسلامي في نفس الوقت بهجوم شامل من الأمام ، ووافق محمد بن القاسم على الخطة، وجعل مروان بن أشحم اليمني وتميم بن زيد القيسي عليهم، فَفَاجأُوْا العدو بالهجوم الخاطف العنيف من الخلف، وكذلك من الأمام ، فأذهلوهم بذلك وقُتل كثير من جيشهم فهاجوا وحميت المعركة [1] .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تدل على عزة المسلمين وقوة تأثيرهم

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٣ -١٩٤، فتوح البلدان/ ٦١٥ .

على أعدائهم ، فـإن هؤلاء انفصلوا عن جيش قومهـم ، ولـم يكتفوا بمجرد الانضمام إلى جـيش المسلمين بل أعلنوا إسلامهم وبرهنوا على صـحة عـقيـدتهم بالخطة الحربيـة الرائعـة التي اقتـرحوها على قـائد المسلمـين، وهذا دليل واضح علـى أن الدافع لهم كـان إعـجـابهم بالإسلام وصدق توجههم نحـوه، إذ لو كان الدافع مجرد عداء بينهم وبين قومهم لاكـتفوا باللجوء إلى جيش المسلمين أو إعـلان الانضمام إليهم في القتال ولم يتخطوا ذلك إلى التخلي عن دينهم والدخول في دين الإسلام .

وكان من آثار ثبات المسلمين الرائع وماقـام به بعضهم من مواقف فدائيـة ، وماتم من إسـلام بعض أهل السند وانضـمامهم إلـى جيش المسلمين . . كان من آثار ذلك أن جيش السند أخَذَتْهم الحمية فشدَّدوا هجومهم على المسلـمين من كل جانب ، وحملوا حملة جمـاعية في محاولة مستميتـة لكسب نهاية المعركة ، وكان لتلك الحملة المركزة أثر في اضطراب جـيش المسلمـين بعض الوقت ، فلمـا رأى ذلك قـائد المسلمين مـحـمد بن القـاسم الثـقـفي نادى أبطال المسلمين وقـادتهم بأسمائهم حتى اجتمعوا ثم علت أصواتهم بالتكبير حتى ملأت الآفاق وكانت على الأعداء كالصواعق المرسلة ففزع الجيش السندي وتحيروا ، وحمل عليهم المسلمون حملة صادقـة حتى قتلوا عددًا كبيرًا من جنود العدو وقادتهم وبعض الفيلة حتى لـم يبق مع داهر من فرسانه من أبناء الأمراء والقادة الكبار إلا ألفًا من خـمسة آلاف ، وهو دليل على قوة إثخان المسلمين بجيش عدوهم .

وفي الوقت الذي اشتدت فيه حملة المسلمين أمر ابن القاسم رماة المنجنيقات بأن يصَوِّبوا سهام النار المشتعلة بالنفط نحو هودج فيل داهر، فأصيب الهودج بالحريق، وعطش الفيل من الحرارة فاتَّجه به داهر نحو النهر ليسقيه وليطفئ النار ، وكان حوله بعض القادة لحمايته، فطاردهم المسلمون وأمطروهم بوابل من السهام ثم اشتبكوا معهم في قتال شديد ، ونزل داهر من فيله وقاتل حتى قتله عمرو بن خالد الكلابي، وأسرع بعض قادة السند فأخفوا جثته في خليج راور، ثم توقف القتال عند المساء بانتصار حاسم للمسلمين (١) .

فتح مدينة راور :

بعد انتهاء المعركة الفاصلة مع جيش السند ومقتل ملكهم داهر توجه المسلمون بقيادة محمد بن القاسم لفتح مدينة راور التي جرت حولها تلك المعركة الحاسمة ، وقد دخلها المسلمون إلا أن قلعتها بقيت محصنة بفرقة كبيرة من الجيش السندي وعلى رأسها الأمير جيسيه ولي العهد، وقد قرر جيسيه مواصلة القتال ، لكنه أخيرًا قبل مشورة وزيره سياكر ومحمد العلافي بترك القلعة والسير إلى مدينة برهمناباد لقوة تحصينها ، وقررت زوجة الملك داهر « بائي » البقاء في القلعة مع النساء وفرقة من القادة والجيش للدفاع عنها .

وقد توجه محمد بن القاسم إلى القلعة فرفض أهلها التسليم، فأمر بضربها بالمنجنيقات ، وقسم جيشه قسمين : قسم يقاتل بالنهار

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٤ - ١٩٦، وانظر البداية والنهاية باختصار ٩/ ٩٢ .

بالسهام والرماح ، وقسم يقاتل بالليل بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات حتى هدمت الأبراج .

ولما رأت الملكة « بائي » أن المسلمين كادوا يفتحون القلعة جمعت الأميرات وأحرقن أنفسهن بالنار ليلحقن بأزواجهن تطبيقا للتقاليد الدينية السائدة بتلك البلاد .

وتم فتح القلعة ودخلها محمد بن القاسم وكان بها ستة آلاف جندي فأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام [١] .

وفي هذا الخبر مثل من تأثير العقائد الجاهلية على أصحابها بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، فهؤلاء النسوة اللاتي أحرقن أنفسهن قد تعجلن عذاب النار في الدنيا ، ولو كان في اعتقادهن أنهن إن فعلن ذلك سيخلدن في الآخرة في نار جهنم وأنهن لو دخلن في الإسلام سيخلدن في جنات النعيم وينجون من عذاب النار لسارعن إلى الدخول في الإسلام .

فالعقل الرشيد السليم يهدي صاحبه إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالذين دخلوا في الإسلام على يد ابن القاسم أصبحوا أمراء وقادة في بلادهم، وهذا من سعادة الدنيا، مع ماينتظرون من السعادة العظمى في الآخرة .

أما الذين وقفوا ضد دعوة الحق وحاربوا دعاته فقد باؤوا بالخسران والهلاك بأنواع القتل في الدنيا وسيبوؤون في الآخرة بالخلود في نار جهنم .

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/١٩٦ ، فتوح البلدان ٦١٦ .

فتح بهرور ودهليلة :

تحرك محمد بن القاسم من راور متوجها إلى برهمناباد التي تحصن بها جيسيه ، وكان عليه أن يفتح مدينتين محصنتين في طريقه إلى برهمناباد وهما بهرور ودهليلة .

فقد توجه أولا إلى مدينة بهرور وهي على بعد فرسخ من برهمناباد وفيها نحو خمسة عشر ألف جندي، فحاصرها وقاومه أهلها أياما فرماها المسلمون بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات حتى هدمت جدرانها وأبوابها وقتل معظم من فيها فدخلها محمد بن القاسم ، وولى عليها حاكما من المسلمين .

ثم سار إلى مدينة دهليلة وكان بها نحو ستة عشر ألف جندي فحارب أهلها بشدة حتى هرب حاكمها الأمير ديوراج وهو ابن عم داهر ومعه بعض سكانها في الليل نحو بلاد الهند ، فاستولى عليها المسلمون ، وولى عليها ابن القاسم نوبة بن هارون كما فوض إليه الإشراف على حركة السفن في تلك المنطقة (١) .

انضمام الوزير سياكر إلى المسلمين :

قبل فتح برهمناباد كان محمد بن القاسم قد بعث برسائل إلى الأمراء والوزراء يدعوهم فيها إلى الإسلام أو الطاعة مع ضمان الأمان لمن أجاب إلى ذلك، فلما علم بذلك « سياكر» وزير الملك داهر بعث رجلا إلى محمد بن القاسم وطلب منه الأمان ، فأعطاه ذلك، وحضر الوزير إليه ومعه بقية النسوة المسلمات اللاتي كن قد استغثن بالحجاج،

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٠٠ - ٢٠١ .

فاستقبله محمد بن القاسم بكل تكريم وأهدى إليه هدايا ثمينة، وفوض إليه مهمة الوزارة وصار يستشيره في أمور الدولة والمهمات الحربية (١) .

هذا وإن ماحدث من انضمام هذا الوزير إلى جيش المسلمين مع رفعة منزلته في دولته وماحدث من انضمام بعض أمراء السند كما تقدم يدلنا على أهمية مكارم الأخلاق في سياسة الأمم، فقد كان محمد بن القاسم يتصف بالحكمة والعدالة وتقدير وجهاء البلاد، وإنزال الناس منازلهم ، ولقد كان لهذه الأخلاق الكريمة أثر في اجتذاب زعماء السند إلى الإسلام ، ولاينبغي لنا مع ذلك أن نغفل جانب القوة فإن ظهور قوة المسلمين يجعل زعماء البلاد يخضعون لعزتهم ويتيح الفرصة لعقولهم كي تفكر تفكيراً سليما في مستقبل أمرهم وأمر بلادهم ، وإذا كان هؤلاء الزعماء يرون أن قائد أعدائهم قد قرّب ساسة بلادهم الذين دخلوا معه وأسند إليهم المناصب المهمة فإن هؤلاء الزعماء لن يفقدوا بإسلامهم مناصبهم التي هي العائق الكبير بينهم وبين الإسلام ، والتي من أجلها يحملون جنودهم على حروب لايعلمون ماهو مصيرها .

فتح إقليم برهمناباد :

تولى الأمر بعد داهر ابنه جيسِيه وهو رجل سياسي شجاع ولذلك اهتم ابن القاسم بالقضاء عليه حتى لايعود إلى حكم بلاد السند وقد كان جيسيه أخذ بمشورة مستشاريه فانتقل إلى بلدة برهمناباد لوجود

---

(١) المرجع السابق / ٢٠١ - ٢٠٢ .

حصن منيع فيـها فتحصن به وجمع إليه قـواته من أنحاء السند، وكان معه في ذلك التجمع ستة عـشر ألف قائد ومعهم عشرات الآلاف من الجنود.

وقد استـفاد قادة السند من تجاربهم مع المسلـمين في الحرب فرأوا أنه ليس بإمكانهم مهما بلغ عـددهم أن يقاوموا المسلمين في الصحراء وجها لوجه، فكان من تخطيطهـم أن يتحصنوا بذلك الحصن المنيع وأن يُخرجوا فرقـا كبيرة من الجيش لقتال المسلمين فـإذا انهزموا لَجَأُوا إلى الحصن.

ولما علم بذلك ابن القـاسم سار بجـيشـه حتى وصل قـرب تلك المدينة ، وأرسل رسولا إلى الأمـير جيسِيـه وأهالي برهمناباد يدعوهم إلى الإسلام أو الاستـسلام مع دفع الجزية وإلا فإنه سيـقاتلهم بشدة، فرفض جيسيه ذلك وقرر الحرب، وعندئـذ أمر محمد بن القاسم بحفر الخنادق، ووزع الجيش إلى فرق ووحدات استعدادًا للقتال .

ثم بدأت المعارك فكانـت تخرج فرقـة كبيـرة من الجيش السندي مكونة من أربعين ألف جندي فيواجهها الجيش الإسلامي .

ثم تعود منهزمـة عند المساء إلى المدينة فتتحصن بهـا ، واستمرت المعارك على هذه الطريقة لمدة شهـرين ، ثم توقف القتال بين الطرفين لأن جيش السند قرر التحصن داخل المدينة .

ولقد ساءت حال الجيش الإسلامي لطول مدة الحصار وقلة الموارد الغذائية ، فأرسل ابن القاسم إلى الأميـر موكه بن بسايه حاكم منطقة بَتّ يستشيره في الأمر فأجاب بضرورة طلب قوات أخرى حتى يضطر الأمير جيسيه إلى الجلاء عن تلك المنطقة .

وقـد أخـذ ابن القـاسم بهـذا الرأي فكتب إلى نوابه من الأمـراء المسلمين على المناطق المفتوحة لِيَمُدُّوا الجيش الإسلامي بالعدد الكافي من الجنود ،ووفد عليه أولئك الأمراء وعلى رأسهم حاكم منطقة بتّ، فلما رأى الأمير جيسيه الجـيوش قادمةً لإمداد الجيش الإسلامي أصابه الرعب وانسحب من تلك المدينة بأسرته وذهب إلى منطقة جيتور على الحدود الهندية ،بينمـا افترق عنه محـمد العلافي العربي المتـمرد على دولة الإسلام الذي سـبق ذكره هو ومن معـه من العرب فاتجهـوا نحو بلاد كشمير .

وهكذا شـتت الله تعـالى شمل الأعـداء حـيث أوقع في قلوبهم الرعب وخالف بين آرائهم .

ومن المواقف التي نلاحظها في هذه المعارك مقدرة المسلمين الفائقة على الصبـر على الشدائد ومـصابرة الأعداء بالرغم من كـون الأعداء متحصنين في بلادهم المنيعة .

ومن تلك المواقف مـقدرة محـمد بن القـاسم العاليـة في كسب القلوب واكـتساب الأنصـار من غيـر المسلمين وعدم الاعـتداد بالرأي حيث استشار حاكم منطقة بتّ السندي وأخذ برأيه فكان ذلك سببًا في جلاء أعدائه وتـفرقهم ، وقد كان مـاشتهر به ابن القـاسم من العدل والحكمـة ودماثة الخلق سـببًا مـباشـرًا لذلك الولاء الذي تم بينه وبين حكام السند الذين خضعوا لحكم الإسلام .

وبعد خـروج جيسيـه من مدينة برهمناباد تم فتحـها وإخضاعـها لحكم المسلمين وقـام ابن القـاسم بتـنظيم أمـورها بما يتـفق مع حكم

الإسلام،وكان رحيما عادلا مع الأهالي الذين لايحملون السلاح ضد المسلمين .

وبعد أن تم فتح هذه المدينة المحصنة بقي محمد بن القاسم فترة من الزمن يقوم بتنظيم أمور البلاد الإدارية فعين حكاما من المسلمين العرب على مناطق السند وكان اختياره لأولئك الأمراء مبنيّا على كفاءتهم الإدارية والحربية مع النظر إلى احتياج البلاد لتلك الكفاءات حسب تنوعها ، ولذلك كان ينقل بعض الأمراء إلى مناطق يرى أنها أحوج إليهم من مناطقهم الأولى(١) .

ولاشك أن توفر الرجال الأكفاء مع ابن القاسم كان له الأثر الكبير في نجاحه في أعماله الحربية ، وأعماله الإدارية إلى جانب ماتحلى به هذا القائد من الحكمة ورجاحة العقل وحسن التدبير فاستطاع بهذه الأخلاق العالية أن يوجه طاقات الرجال الأكفاء معه بتعيين الرجل المناسب في المكان المناسب .

احتواء القبائل المتوحشة :

ولما انتهى من تنظيم أمور البلاد الإدارية تفرغ للتفكير في القبائل المتوحشة مثل قبيلة الزط التي انصرف أفرادها للأعمال اللصوصية حيث كانوا يخيفون الآمنين ويقطعون السبل فاستشار في أمرهم كلاّ من الوزير السندي سياكر وموكه حاكم منطقة بتّ فذكرا له أن هذه القبائل لايمكن أن تخضع إلا بالقوة وأن حكام السند كانوا يعاملونهم

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ٢٠٢ - ٢٠٥ ، فتوح البلدان للبلاذري /٦١٦ ، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٢ .

بالقسوة والإذلال وكانوا يلزمونهم بلباس معين حتى يحذر الناس منهم، وكانوا إذا قبضوا على أحدهم متلبسا بالسرقة حكموا عليه وعلى جميع أفراد أسرته بالحرق .

ولما سمع ذلك منهم ابن القاسم أخذ تلك القبائل مؤقتًا بالحزم، وأمَّر عليهم أفضل قادته وهو خريم بن عمرو المدني المعروف بالتقوى والشجاعة والسياسة ، ثم بدأ يضم أفراد هذه القبائل مع الجيوش الإسلامية ، فلما رأوا كرم الوفادة وحسن المعاملة ارتفع مستواهم الفكري ودخل كثير منهم في الإسلام وتحسنت أخلاق من بقي منهم، ولم يبق على الطباع الشرسة والوحشية إلا الذين اعتصموا بمناطقهم ولم يختلطوا مع المسلمين (١).

وهذا موقف يذكر لمحمد بن القاسم وقادته العظماء وعلى رأسهم خريم بن عمرو المدني الذي أوصى الحجاج محمد بن القاسم بأن يلازمه دائمًا لفضله ودهائه وشجاعته ، حيث تحوَّل كثير من أفراد هذه القبائل المتوحشة إلى أعلى المستويات الحضارية. فدخل أكثرهم في الإسلام، ومن لم يدخلوا فيه تأثروا بأخلاق المسلمين ومعاملتهم الكريمة ونبذوا ماكانوا ألفوه من العادات الرذيلة .

فتح مدينة أرور :

بعد أن قام محمد بن القاسم الثقفي بفتح برهمناباد الحصينة وبعد أن أخضع القبائل السندية المتمردة كتب إلى الحجاج بن يوسف بذلك فأمره بالتوجه نحو عاصمة السند أرور ثم إلى مدينة الملتان لأنهما من

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢٠٢ - ٢٠٨ .

أقوى القواعد الحربية في البلاد وهما مقر عظماء السند .

وقد توجه ابن القاسم بجيشه نحو العاصمة في محرم من عام أربعة وتسعين وفي طريقه إليها فتح مدينة منهل وهراور وبسمد وساوندري وقد صالح أهل هذه المدن وأسلم بعض أهلها .

ووصل ابن القاسم بجيشه إلى العاصمة أرور وعسكر على بعد ميل من قلعتها المحصنة ، وكان أميرها قوفي بن داهر قد حصنها تحصينًا قويا وشجع قواده وجنده على الحرب .

وقد بدأت الحرب واستمرت أيامًا إلا أن ابن القاسم اختصر الطريق على المسلمين ،وذلك أن المسلمين لما فتحوا مدينة برهمناباد وقعت الأميرة « لادي »إحدى زوجات الملك داهر في الأسر فأكرمها المسلمون ،فلما كان حصار مدينة أرور العاصمة أرسلها ابن القاسم مع رجال من السند إلى باب المدينة فاجتمع بها بعض زعمائها فأخبرتهم بأنها أرملة داهر وأن الملك قد قتل مع قواده المشاهير،والباقون استسلموا ،وأشارت عليهم بأن يستسلموا للعرب وأن يصالحوهم.

فلما سمع أهل تلك المدينة بمقتل ملكهم وبما يتصف به المسلمون بقيادة ابن القاسم من العدل والتسامح والقوة قرروا قبول الصلح، ولما علم بذلك الأمير قوفي قرر الفرار مع أسرته ليلا إلى مدينة جيبور على الحدود الهندية ليبقى مع أخويه جيسيه ودكيه .

وفتح أهل أرور الأبواب ودخلها ابن القاسم صلحا ، وهكذا نجحت سياسة ابن القاسم في محاولة تأليف قلوب زعماء السند حيث

استفاد منهم كـثيرًا في إقناع قومهم بالصلح وتجنب القتال كـما استفاد من خبرتهم الحربية حيث كان يستشير بعضهم في أموره المهمة .

هذا وقد بقي ابن القـاسم بعض الوقت ينظم أمور عاصـمة السند الإدارية ، وقد عين « رواح بن أسد » حاكمًـا عليها وعين على شئون القضاء موسى بن يعقوب بن طائي الثقفي وبنى فـيها مسجدًا جامعًا، وقد كان تجـاوب أهلها سريعًا مع الإسلام حـيث أسلم بعض سكانها آنذاك [١].

فتح مدينة « باتيه » :

بعد ذلك اتجـه محمد بن القاسم لمـدينة « باتيه » وكان حاكـمها «ككسه» ابن عم الملك داهر ، وقد اشـترك معه في المعركـة الأخيرة، ثم عاد إلـى « باتيه » ولما علم بقـدوم محمـد بن القاسم أرسـل إليه مندوبه واستقـبله بالهدايا والضمانات والرهائن وعـرض الصلح معه، فقبل محمد بن القاسم ذلك منه، وكان ككسـه حكيمًا فاتخذه محمد ابن القاسم مستشارًا له كمـا فوض إليه الأمور المالية في بلاده، وقدمه على جمـيع قادة السند الذين كـانوا معـه ، وقد أخلص هذا الأمـير للمسلمـين ثم دخل في الإسلام على يد محـمد بن القـاسم ، وكان بينهما ثقة كبيرة وانتفع المسلمون به في حروب السند الأخيرة [٢] .

وهكذا مازلنا نجـد أمثلة حية لهـذه الظاهرة التي تميزت بها فـتوح

---

(١) مـوسـوعـة التـاريخ الإسـلامي لبـلاد السند والبـنجـاب ١/ ٢١١-٢١٣، فـتـوح البلدان/ ٦١٧ ، الكامل في التاريخ ٤/ ١١٢ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٣ .

بلاد السند حيث أقدم على الإسلام عدد من زعمائها وأهلها وبقي عدد من زعمائها مخلصين للمسلمين حتى مع بقائهم على دينهم .

وهذا شاهد واضح على أن سلاح القوة الذي ظهر به المسلمون ماهو إلا مفتاح يَلِجُون منه بلاد الكفر والضلال ، أما مفاتيح القلوب فقد كانت بالخشوع المهيب بين يدي الله عز وجل الذي كان يظهره المسلمون في الصلاة وخاصة صلاة الجماعة ، وفي الأخلاق العالية والمعاملة الكريمة التي كان المسلمون يتحلون بها حتى مع أعدائهم، فبينما نجد الأعداء يتمنون أن يقع المسلمون بين أيديهم ليحرقوهم، إذا بهم يقفون أمامهم مشدوهين حيارى قد أُخِذت قلوبهم مما يرون من سمو المسلمين وعظمتهم سواء في علاقتهم مع ربهم أو مع الناس، ثم لايلبثون طويلا حتى يُعلنوا انتماءهم للإسلام الذي لامَسَ شغاف قلوبهم ووافق فطرتهم وأجاب على اسئلتهم المحيرة التي كانت قبل ذلك تصطدم بِجُدر الوثنية المصمتة التي لاتحِير جوابا ولا تحل إشكالا.

فتح مدينة « اسكلنده » :

ثم اتجه ابن القاسم إلى مدينة « اسكلنده » وهو في طريقه إلى الملتان في إقليم البنجاب ، واصطحب معه الأمير السندي «ككسه» وكانت مدينة اسكلنده محصنة للغاية وأهلها قد استعدوا للحرب، فخرج أهلها لقتال المسلمين ، فوجه إليهم ابن القاسم الجيش بقيادة زائدة بن عميرة الطائي ومعه الأمير ككسه ، واشتدت المعركة بين الطرفين إلى أن انهزم أهل اسكلنده وتحصنوا بقلعتهم فلجأ المسلمون إلى سلاحهم الثقيل حيث قذفوا القلعة بأحجار المجانيق والسهام

المشتعلة لمدة أسبوع ، حتى نقصت الغلة في جيش السند وهرب حاكم المدينة إلى حصن « سكه » بقرب الملتان ، فدخل محمد بن القاسم المدينة ودارت معركة داخلها فقُتل كثير من جنود السند ووقع آخرون أسرى ، وأعطى ابن القاسم الأمان لعامة الناس ، ثم ولّى على المدينة عقبة بن مسلمة التميمي (١) .

فتح قلعة سكه :

ثم اتجه الجيش الإسلامي بقيادة محمد بن القاسم إلى قلعة «سكه» وهي قلعة حربية ليس فيها إلا الجنود ويحكمها الأمير «بجهرا» وقد وقعت فيها بين المسلمين والسند معارك دامية استمرت سبعة عشر يوما، واستشهد فيها عشرون قائدا من قادة المسلمين وخمسة عشر ومائتان من جيش المسلمين ،وقد حزن ابن القاسم حزنًا شديدًا على أولئك الشهداء وخاصة القادة فأقسم أن يهدم تلك القلعة ، وقد هرب أميرها بجهرا إلى الملتان ، فاستولى محمد بن القاسم على القلعة وأمر بهدمها وقتل من بقي فيها من الجنود (٢).

وهذا مثل يصور لنا المعاناة الشديدة التي واجهها المسلمون الأوائل وهم يفتحون تلك البلاد المنيعة،والضحايا التي قدموها في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ونشر الإسلام في الأرض،فعلى أشلاء أولئك الشهداء في أنحاء المعمورة،وبدمائهم الزكية التي روّوا بها أرضها قامت بعد ذلك البلاد الإسلامية التي لايزال أهلها أو أكثرهم يعبدون الله تعالى.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٤ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٤ ، فتوح البلدان / ٦١٧.

فهل يتذكر الخلف المعاصرون ماقام به أسلافهم الأماجد من الجهود الجبارة في تحويل تلك الممالك الوثنية إلى أوطان إسلامية تخفق فوقها راية التوحيد ، فيحافظوا على وجود الإسلام القوي فيها ؟

لعلهم يتذكرون ، ولعلهم بعد ذلك يفعلون .

فتح مدينة الملتان :

زحف محمد بن القاسم الثقفي بالجيش الإسلامي نحو مدينة الملتان عاصمة إقليم البنجاب ، والتقوا بجيش السند بقيادة الأمير «كندا» حاكم الملتان ومعه الأمير بجهرا حاكم قلعة سكه الذي فرَّ منها واستمر القتال بعنف لمدة يومين سقط فيها كثير من القتلى ، ثم استخدم المسلمون سلاحهم الثقيل حيث رموا تلك المدينة بالمجانيق لمدة شهرين على فترات متقطعة ، ونفدت المواد الغذائية (١) .

يقول البلاذري : فأبلى زائدة بن عمير الطائي وانهزم المشركون فدخلوا المدينة ، وحصرهم محمد ، ونفدت أزواد المسلمين فأكلوا الحُمُر ، ثم أتاهم رجل مستأمن فدلَّهم على مدخل الماء الذي منه شربهم وهو ماء يجري من نهر بسمد فيصير في مجمتع له مثل البركة في المدينة وهم يسمونه البلاح ، فغوَّروه ، فلما عطشوا نزلوا على الحكم ، فقتل محمد المقاتلة ، وسبَى الذرية وسبَى سدنة البُدّ - يعني الصنم - وهم ستة آلاف (٢) .

وهكذا كان بلاء المسلمين عظيمًا وانتصاراتهم متوالية في كل

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٥ .

(٢) فتوح البلدان / ٦١٧ .

معركة يخوضونها مع الأعداء ، ولم يكن يحدُّ من قوتهم واندفاعهم إلا الأسوار الضخمة والحصون المنيعة ، وهذه قد استخدموا لها المجانيق ونحوها ، ولكن قد تكون هناك بعض العوائق تحول دون وصول هذا النوع من السلاح كما هو الحال في مثل هذا البلدة وبلدة برهمناباد وهما من أعظم تلك البلاد تحصينا .

ولقد قيض الله للمسلمين في حصارهم للملتان هذا الرجل الذي دلَّهم على عورة بلاده حيث يتسرب إليهم ماء الشرب عبر مسارب خفية ، فكان قطع ذلك الماء وسيلة ناجعة إلى إلجاء أهل ذلك البلد على النزول على حكم المسلمين .

ولربما كان من المناسب أن نعود إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة حتى لا يظن بعض الناس أن هؤلاء الذين قدموا الخدمات الجليلة للمسلمين ليسوا إلا أناسا نفعيين يسعون لتأمين مصالحهم الخاصة ، والحقيقة أن هذه الظاهرة ناتجة عن إعجاب أولئك القوم بالإسلام وميلهم إلى المسلمين ومايرجونه من الخلاص على أيديهم من قهر الولاة وظلمهم لما اشتهر به المسلمون آنذاك من العدل والرحمة والمواساة ، ومما يدل على ذلك استمرار المشهورين من هؤلاء على الولاء للمسلمين ودخول كثير منهم في الإسلام .

وبعد فتح الملتان جاء الخبر بوفاة الحجاج بن يوسف فرجع محمد ابن القاسم إلى عاصمة السند « أرور» وتلقى تعازي الناس حيث كان الحجاج ابن عمه ووالد زوجته .

فتح إقليم الكيرج :

بعد فترة من الراحة خرج محمد بن القاسم بالجيش إلى إقليم الكيرج على حدود الهند حيث لجأ إليها الأمير جيسيه الذي كان ابن القاسم يعتبر بقاءه خطراً على مستقبل المسلمين في السند ، وجرت هناك معارك حامية بين المسلمين وأهل كيرج قُتل فيها حاكمها دوهر وفي ذلك يقول الشاعر :

نحن قتلنا داهراً ودوهرا والخيل تردي منسرا فمنسرا

وسقطت المدينة بيد المسلمين[١] .

نهاية محمد بن القاسم :

اتجه ابن القاسم إلى مدينة قنوج التي رفض حاكمها قبول الإسلام والاستسلام .

ولما كاد ابن القاسم أن يصل إلى قنوج التي تعتبر آخر بلاد السند جاء الأمر من الخليفة سليمان بن عبد الملك بعزله والقدوم إلى العراق[٢]، حيث توفي الوليد بن عبد الملك وخلفه سليمان بن عبد الملك الذي قام بعزل جميع الولاة الذين أيدوا الوليد في سعيه لنقل الخلافة من سليمان إلى عبد العزيز بن الوليد ، وحيث لم يتم ذلك وآل الأمر إلى سليمان فقد أقدم على عزل أولئك الولاة من غير نظر إلى مايترتب على ذلك من ضرر على المسلمين وعلى دعوة الإسلام .

---

(١) فتوح البلدان / ٦١٨ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٩.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٩ - ٢٢٢ ، فتوح البلدان/ ٦١٨ .

وبعزل محمد بن القاسم توقف الجهاد في بلاد السند بل إن بعض مناطقها قد انتقضت بعد ذلك على حكم المسلمين .

ومما زاد الأمر سوءًا بالنسبة لابن القاسم أن سليمان بن عبد الملك ولَّى على العراق صالح بن عبد الرحمن وكان بينه وبين الحجاج عداء قديم حيث كان الحجاج قد قتل أخاه آدم بن عبد الرحمن لكونه يرى رأي الخوارج ، فانتقم صالح من أقارب الحجاج الذين منهم محمد بن القاسم ، فقد ولَّى صالح بن عبد الرحمن على السند يزيد ابن أبي كبشة وأمره بأن يقيد محمد بن القاسم وأن يرسله إلى العراق، ففعل ذلك واستسلم ابن القاسم طاعة لأولي الأمر بالرغم من شعبيته الكبيرة في بلاد السند وكثرة جنوده حيث بلغ عددهم خمسين ألفًا من العرب والسند .

وحُمِل ابن القاسم إلى العراق مقيدا وأدخله صالح بن عبد الرحمن في سجن واسط ، ولقد كان تأثره من تلك المعاملة القاسية شديدًا وحزنه بالغًا حيث قال في ذلك :

فَلئِنْ ثويت بواسط وبأرضها ... رَهْنَ الحديد مكبَّلا مغلولا

فَلَربَّ قينة فارس قد رُعتُها ... ولرب قِرنٍ قَدْ تركت قتيلا

وقال أيضًا :

لو كنت أجمعت الفرار لوُطِّئت ... إناث أُعدَّت للوغى وذكور

ومادخلتْ خيل السكاسك أرضنا ... ولاكان من عكٍّ عليّ أمير

ولاكنت للعبد المزوني تابعا ... فيالك دهر بالكرام عثور

وقـد عذبه صـالح في رجال من آل أبي عـقـيل الثقـفيين حـتى قتلهم[1] .

وهكذا قُـتِل هذا الشـاب على يد هـذا الوالي الظالم الذي أخـذ بجريـرة الحجاج كل مـن ينتسـبون إلى جده أبـي عقيل عـلى عادات الجاهلية .

وأفَلَ هذا النجم الساطع الذي أضاء سماء بلاد السند بقوة وسرعة فائقة بعد أن قام بتلك الأعمال الجـهادية العظيمة وأرسى قواعد الدولة الإسلامية في بلاد السند .

لقد كان محـمد بن القاسم ناجحا في الأعمال الحـربية والأعمال الإدارية فقد نجح في كل حروبه التي قادها ونجح في إدارته لتلك البلاد الواسعة التي حكمـها و استقطب محبة وإعـجاب قادة المسلمين الذين كانوا تحت إدارته وقـادة السند الذين أعلنوا الولاء له طوعًا وقـدموا له خدمات كبيرة في أعماله الجهادية والإدارية .

ولقد كان محمد بن القاسم بارعًـا جدّاً في استمالة زعماء الكفار حيث كـان يقدرهم ويلاطفـهم ويُبقي على سـيادتهم في أقـوامهم. . وكان لهذه السياسة البارعـة أثر كبير في ولاء عدد منهم لدولة الإسلام ودخول بعضهم مع أقوامهم في الدين الإسلامي .

ولقد بلغ من نتـائج هذه السياسة الحكيـمة أن استطاع محـمد بن القاسم أن يضم إلـى جيشـه أكثر من ثلاثين ألفـا من جنود السند مع قادتهم حتى بلغ جيشه في آخر معركة خاضها خمسين ألفا .

---

(١) فتوح البلدان / ٦١٨ - ٦١٩ .

وفي تقديري أنه لو استمر في القيادة مع دعم دولة الإسلام له لاستطاع أن يفتح جميع بلاد الهند ولخضع له ملوكها. . ولكنْ قاتل الله السياسة الهوجاء واتِّباع الهوى وتغليب المصلحة الخاصة على مصلحة المسلمين العامة .

فلقد كان الهمُّ الكبير الذي يحمله سليمان بن عبد الملك أن ينتقم من ولاة أخيه الوليد الذين كان لهم معه مواقف غير مرضية من غير أن ينظر إلى مصلحة المسلمين العامة ومصلحة دولة الإسلام .

ولهذا الغرض اختار الولاة الذين يندفعون اندفاعا أهوج نحو تحقيق هذا الغرض ، وكان ابن القاسم من ضحايا هذا الانحراف السياسي . بل كانت الدولة الإسلامية ومستقبل دعوة الإسلام من ضحايا ذلك . فرحم الله ابن القاسم وجزاه خيراً على ماقدم للإسلام والمسلمين .

* * *

– الجهاد في السند في عهد هشام بن عبد الملك –

بعد أن توفي أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك في يوم السبت من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة انتقلت الخلافة إلى أخيه أمير المؤمنين سليمان، ثم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وذلك في يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة تسع وتسعين، ثم إلى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك في يوم الأربعاء لليال بقين من شهر رمضان سنة إحدى ومائة ،ولم يكن في تلك العهود جهاد بارز في السند[1]، غير أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان له جهد واضح في دعوة زعماء الكفار إلى الدخول في الإسلام ، وقد أجابه إلى ذلك بعضهم وولى بعض هؤلاء على بلادهم كما هو مذكور في بيان مواقفه .

وحينما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان في أواخر شهر شعبان من سنة خمس ومائة [2] نشطت حركة الجهاد في السند بهدف تثبيت الأوضاع فيها وإخضاع بعض الولايات الهندية المجاورة التي كانت من عوامل عدم استقرار الأوضاع في السند.

ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المُرِّي :

في سنة سبع ومائة تولى الجنيد بن عبد الرحمن المري بلاد السند، وهو رجل سياسي كبير وقائد بصير، وكانت السند قد عظمت بها الفتن والقلاقل وقلّ بها الأمن ، وعظم سلطان الأمير جيسيه الذي كان

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٩٥ ، ٥٥٠ ، ٥٧٤ .

(٢) المرجع السابق ٧/ ٢٥ .

قد استولى على منطقة برهمناباد وأقره عليها أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز لما دخل في الإسلام .

ولما وصل الجنيد إلى بلاد السند قام بجولة في مناطقها فلما وصل إلى منطقة برهمناباد رفض جيسيه أن يسمح له بدخولها قائلا : إني قد أسلمت وولاني الرجل الصالح[1] بلادي ، ولست آمنك ، فأعطاه رهنا وأخذ منه رهنا بما على بلاده من الخراج ، وخاف جيسيه من هجوم الجنيد عليه فاستعد له واستعان بحكام إقليم كجرات من بلاد الهند ، وكان كل واحد من القائدين يراقب تحركات الآخر إلى أن وقعت بين الجيشين معركة انهزم فيها جيش جيسيه ووقع هو في الأسر فقتله الجنيد .

ثم قام الجنيد بعد ذلك بإخضاع مدينة الكيرج وكان محمد بن القاسم قد فتحها ثم انتقضت على دولة الإسلام وأراد حاكمها الاستقلال كما فعل جيسيه ، فسار إليها الجنيد بجيشه وجرت بين الجيشين معركة دامية انهزم فيها حاكم الكيرج وتحصن بالمدينة، فأمر الجنيد بن عبد الرحمن باستخدام المنجنيقات بالقذائف النارية والحجرية فقذف المسلمون بها واستخدموا آلة حربية تسمى كباش وهي آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الخيل فيدق بها الحائط فينهدم، فدكوا بها حائط المدينة حتى انثلم ، فدخلوا المدينة وقاتلوا أهلها بشدة حتى هزموهم ، وهرب حاكمها واستسلم أهلها .

ولما انتهى الجنيد من إخضاع منطقة السند جهز جيشا كبيرا

---

(١) يعني عمر بن عبد العزيز .

لإخضـاع مناطق الهند المجاورة التي كـانت تمد المتمـردين في السند، ففتح عددا من المدن منها مرمـد ومندل ودهنج وبنجاسر عاصمة إقليم كجرات الشمالية .

وعلم الجنيد بأن الكجراتيين يعـدون العدة لحربه في مدينة بروص (بهروج) فتـوجه إلى هناك وحارب أهلها وفتح المـدينة ثم توجه نحو مدينة ماليـه (مالوه) وفتحـها كما فتح مـدينة أرنين (أجين) ومدينة بهرمد [١] .

وهكذا قـام الجنيد بـن عبـد الرحمن المري بـإخضـاع بلاد السند وإقليم كجرات من بلاد الهند بنجاح وسرعة ، وعادت الحياة إلى بلاد السند بالطمأنينة والأمن .

ولاية الحكم بن عوانة الكلبي :

لم يستمر الأمن والاستـقرار في السند طويلا حيث تم نقل الجنيد ابن عبد الرحمن إلى ولاية خراسـان لاحتياج الدولة الأموية له هناك، وذلك في سنة إحدى عـشرة ومائة ، فتولى إمـرة السند بعده تميم بن زيد العتـبي ولم يكن في مثل كـفاءة الجنيـد فاضطربت أحـوال البلاد وقـامت الفتـنة بين أهل السند والعـرب وبين العرب أنـفسـهم ، ولما أوشكت البلاد على نشـوب حرب داخليه قرر تميم مـغادرة البلاد إلى العراق ، وقد مات في الطريق، وعلم والي العـراق خالد بن عبد الله القـسري بذلك فـولى على السنـد الحكم بن عوانة الكـلبي سنة اثنتي

---

(١) مـوسـوعـة الـتـاريخ الإسـلامي ١/٢٣٢ - ٢٣٨ ، فـتـوح البـلدان للبـلاذري / ٦٢٠-٦٢١، الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٤ .

عشرة ومائة ، وقدم الحكم إلى السند وهي في ذلك الوضع المضطرب فسار سيرة حسنة وأحيى الجهاد ،وكان من عوامل نجاحه اختياره عمرو ابن محمد بن مسلم الثقفي نائبا عنه لأن عمراً محبوب في السند لشهرة أبيه فاتح السند ، وقد أسند إليه الحكم قيادة الجيش فتحرك عمرو بالجيش لإخماد الفتن فرجع من جولته منتصرا فاستقرت الأوضاع في السند ورضي أهلها بولاية الحكم .

ولقد بقي الحكم في إمارة السند حتى عام اثنين وعشرين ومائة، حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التي ثارت في بعض مناطق السند وفي صحبته عمرو بن محمد بن القاسم فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء (١) .

ولاية عمرو بن محمد بن القاسم :

بعد استشهاد الحكم بن عوانة ولَّى والي العراق يوسف بن عمر على السند عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي ، فكان من أعماله بناء مدينة المنصورة لتكون حصنا للمسلمين عند أي هجوم من الأعداء، وقد أفاد ذلك حيث هجم أحد ملوك الهند المجاورين للسند على تلك المدينة لما أحسَّ بقلة جيش المسلمين المرابط فيها ، فتحصن بها المسلمون لعدم مقدرتهم على قتال ذلك الجيش المهاجم ، وطلب عمرو المدد من والي العراق فأمده بأربعة آلاف مقاتل ، فقرر عمرو مهاجمة الجيش الهندي وجعل على مقدمته معن بن زائدة الشيباني،

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/٢٣٨ -٢٤٤ ، فتوح البلدان / ٦٢٢-٦٢٣ ، تاريخ خليفة بن خياط / ٣٥٤ ، الكامل في التاريخ / ١٣٥ .

وهجموا لـيلا على الجيش الهندي فانتـصر المسلمون وقتل الكثـير من الجيش الهندي ، ووقع ملكهم في الأسـر ولكن المسلمين لم يعرفوه، فانقذه جنوده ولاذوا جـميعا بالفرار وتركـوا وراءهم أموالهم والأسرى الذين أسرهم المسلمون (١) .

*　　*　　*

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٢٤ .

الجهاد والفتوحات

فى

عهد العباسيين

- الجهاد في الهند في عهد المهدي -

لم يكن فيـما بعد عـهد هشـام بن عبد الملك أخـبار مهـمة عن مواقـف المسلمين الجهـادية في بلاد السند ، حيث اشـتغل المسلـمون بالخلافات والقتال فيما بينهم حتى آلت الخلافة إلى العباسيين فاشتغلوا بتوطيد حكمهم ومقاومة الفتن الداخلية طيلة عهد أبي عبد الله السفاح وأبي جعفر المنصور .

وبعد وفـاة أمير المؤمنين أبي جعـفر المنصور بويع بالخـلافة لولده المهدي محمد بن عبد الله بن مـحمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهمـا ، وذلك في يوم الخميس لإحدى عشـرة بقيت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة[1] .

وقد ذكر الإمام أبو جعفـر الطبري في حوادث سنة تسع وخمسين ومائة أن المهدي وجه عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند، وفـرض مـعـه لألفين مـن أهل البـصـرة من جـمـيع الأجناد وأشخـصهم مـعه، وأشـخص معه من المطّـوعة الذين كانوا يـلزمون المرابطات ألفا وخمسمائة رجل، ووجـه معه قائدًا من أبناء أهل الشام يقال له ابن الحباب المذحجي في سبـعمائة من أهل الشام، وخرج معه من مطّوعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل، فيهم - فيما ذكر- الربيع ابن صبيح ، ومن الأسواريين والسبابجة [2] أربعة آلاف رجل، فولّى عـبدالملك بن شـهاب المنذرَ بـن محـمد الجـارودي على الألف رجل

---

(١) تاريخ الطبري ٨/١٠٨ .

(٢) ذكر الطرازي أنهم من السند - موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٦٤ .

المطَّوعة من أهل البصرة ، وولى ابنه غسان بن عبد الملك الألفي رجل الذين من فرض البصرة وولى عبد الواحد بن عبد الملك الألف والخمسمائة الرجل من مطَّوعة المرابطات ، وأفرد يزيد بن الحباب في أصحابه فخرجوا ، وكان المهدي وجه لتجهيزهم حتى شخصوا أبا القاسم محرز بن إبراهيم ، فمضوا لوجههم حتى أتوا مدينة باربند[1] من بلاد الهند في سنة ستين ومائة [2] .

وذكر المؤرخ ابن الأثير أنهم نازلوا أهل تلك المدينة وحاصروها من نواحيها، وحَرَّض الناس بعضهم بعضا على الجهاد وضايقوا أهلها ففتحها الله عليهم عنوة ، وأن أهلها احتموا بالبدِّ وهو الصنم الذي لهم فأحرقه المسلمون عليهم فاحترق بعضهم وقُتل الباقون، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلا[3] .

* * *

---

(١) ذكر الطرازي أن أصلها بهاربوت وهي ميناء صغير يقع على بعد سبعة أميال من ميناء بهروج (بروص) - المرجع السابق ١/ ٢٦٤ - .

(٢) تاريخ الطبري ٨/١١٦ - ١١٧ .

(٣) الكامل في التاريخ ٥/ ٥٥ .

– جهاد محمود بن سبكتكين في بلاد الهند –

قبل الحديث عن جهاد هذا البطل الكبير والقائد البصير فإنه يحسن بنا تقديم نبذة موجزة عن حياته وعن دولته الفتية القوية التي استولى بها على معظم أقطار الهند وقضى بها على معظم ملوكهم .

فهو السلطان أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة سبكتكين ، لقَّبه أمير المؤمنين القادر بالله بعدما جعله سلطانا بعد موت أبيه « يمين الدولة وأمين الملة » فاشتهر بذلك .

تولى أبوه إمارة « غزنة » (١) من قِبَل السامانيين بعدما مات حاكمها أبو إسحاق ابن البكتين ، وكان سبكتكين أبرز رجاله ، فاجتمعت كلمة مُقَدَّمي تلك الإمارة على تأمير سبكتكين لشهامته وشجاعته .

وقد آل الأمر إلى ابنه محمود بعد موته بعد نزاع كان مع أخيه إسماعيل ، وقد قام محمود بتوسيع نطاق دولته حيث استولى على خراسان وانتزعها من يد السامانيين سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، فقويت بذلك دولته ، وأصبح أمراء خراسان من أركان دولته وجيشه وشاركوه في فتوحاته .

ثم إن بلاد سجستان دخلت في طاعته سنة ثلاث وتسعين بدون قتال ، وذلك بدخول قوادها وولاة أمرها تحت سلطانه .

وقد فرض على نفسه غزو بلاد الهند كل عام .

---

(١) هي عاصمة إقليم زابلستان ، ويقع هذا الإقليم بين خراسان والهند – معجم البلدان ٤/٢٠١ – .

ذكر ذلك ابن خلكان ثم قال : ولم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهى إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ، ولم تُتْلَ به قط سورة ولا آية .

وقد توفي رحمه الله سنة إحدى أو اثنتين وعشرين وأربعمائة(١) .

وذكر الحافظ ابن كثير أنه سار في رعاياه سيرة عادلة وقام في نصر الإسلام قياما تاما ، قال : وفتح في بلاد الكفار من الهند فتوحات هائلة ، لم يتَّفق لغيره من الملوك ، لاقبله ولابعده ، وكسر من أصنامهم شيئًا كثيراً (٢) .

جهاده مع جيبال ملك الهند :

يقول المؤرخ العلامة أبو الحسن على بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير : في هذه السنة [يعني سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة] أوقع يمين الدولة محمود بن سبكتكين بجيبال ملك الهند وقعة عظيمة، وسبب ذلك أنه لما اشتغل بأمر خراسان وملكها وفرغ منها ومن قتال خلف بن أحمد ، وخلا وجهه من ذلك أحب أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين ، فثَنَى عنانه نحو تلك البلاد فنزل على مدينة برشور ، فأتاه عدو الله جيبال ملك الهند في عساكر كثيرة ، فاختار يمين الدولة من عساكره والمُطَّوعة خمسة عشر ألفا، وسار نحوه فالتقوا في المحرم من هذه السنة ، فاقتتلوا وصبر الفريقان، فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقُتِل فيهم مقتلة عظيمة ، وأُسر

(١) وفيات الأعيان ٥/ ١٧٥ - ١٨١ .

(٢) البداية والنهاية ١٢/ ٣٢ .

جيبال ومعـه جماعة كثيرة من أهله وعـشيرته ، وغنم المسلمون منهم أموالا جليلة وجواهر نفـيسة ، وأُخذ من عنق عدو الله جـيبال قلادة من الجوهر العديم النظير ، قوِّمت بمـائتي ألف دينار ، وأُصيب أمثالها في أعناق مقدَّمي الأسرى [1] .

وإن ما شعر به محمـود بن سبكتكين من ارتكاب الذنب في قتال حكام الدويلات المجـاورة من المسلـمين يدل على اتصـافـه بشيء من الورع والخـشيـة، ولعل الله تعالى أن يـكفر عنه عـمله هذا بجهـاده الطويل ضـد الكفار وتحطيم الآلاف من الأصنام ودخـول الآلاف من الكفار في الإسلام على يديه .

وماجاء في هذا الخبر من وصف ذلك الحاكم الهندي وحاشيته من التحلي بالجواهر النفيسة الغالية يدل على مـاكانوا يعيشون فيه من حياة الترف والبذخ الذي يقوم غالبًا على ظلم المستضعفين ، فماأغنى عنهم ذلك شيـئًا ولاكثرة جنودهم وعـتادهم لما حلَّتْ بهم نقمـة الله تعالى على يد جنوده المجاهدين .

جهاده مع بيدبا صاحب كواكير :

ذكر ابن الأثير أن السلطان مـحمود بعد أن غزا الملتـان سار عنها إلى قلعة كـواكير ، وكان صاحـبها يعرف بِبَـيْدَا ، وكان بها سـتمائة صنم، فافتتحها وأحرق الأصنام ، فهـرب صاحبها إلى قلعته المعروفة لكالنجار ، فسار خلفـه إليها ، وهو حصن كبير يسع خـمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة ، وفي الحصن مايكفي

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/٢١٣ .

الجميع مدة ، فلما قاربها يمين الدولة وبقي بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق مالا حدَّ له ، فأمر بقطعها، ورأى في الطريق واديا عظيم العمق بعيد القعر ، فأمر أن يطم منه مقدار يسع عشرين فارسا فطموه بالجلود المملوءة ترابا ، ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوما ، وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه ، ثم بلغه عن خراسان اختلاف فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مَنٍّ من الفضة [1] .

وهذا الخبر فيه مثل من الصعاب والمشاقّ التي كان يواجهها يمين الدولة محمود بن سبكتكين في جهاده في بلاد الهند واجتهاده في هدم معالم الشرك التي أهمها الأصنام .

جهاده في بلاد الغور :

وذكر ابن الأثير أيضًا غزو يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الغور فقال : بلاد الغور تجاور غزنة ، وكان الغور يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غَلِقَة ، وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها، فلما كثر ذلك منهم أَنِفَ يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر ، فجمع العساكر وسار إليهم وعلى مقدمته التونتاش الحاجب صاحب هراة ، وأرسلان الجاذب صاحب طوس، وهما أكبر أمرائه ، فسارا فيمن معهما حتى انتهوا إلى مضيق قد شُحن بالمقاتلة ، فتناوشوا الحرب وصبر الفريقان ، فسمع يمين

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/٢٢٨ .

الدولة الحال فجدَّ في السير إليهم ، وملك عليهم مسالكهم فتفرقوا وساروا إلى عظيم الغورية المعروف بابن سوري ، فانتهوا إلى مدينته التي تُدْعَى آهنكران فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم المسلمون إلى أن انتصف النهار ، فرأوا أشجع الناس وأقواهم على القتال، فأمر يمين الدولة أن يولوهم الأدبار على سبيل الاستدراج ففعلوا ، فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوهم حتى أبعدوا عن مدينتهم ، فحينئذ عطف المسلمون عليهم ووضعوا السيوف فيهم فأبادوهم قتلا وأسرا ، وكان في الأسرى كبيرهم وزعيمهم ابن سوري، ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا مافيها ، وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعها ، فلما عاين ابن سوري مافعل المسلمون بهم شرب سمّا كان معه فمات ، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار الإسلام وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه ، وعاد [1] .

وهكذا كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين مغامرا جسوراً حينما سار بجيشه إلى أولئك القوم الأشداء الذين قد امتنعوا بجبالهم الوعرة وحصونهم المنيعة ، ولقد وُفق بقادة وجنود طائعين فدائيين حيث قاموا بتلك المهمة الصعبة .

كما أنه وُفق في خطته الحربية التي أظهر فيها التراجع خدعة لأعدائه ثم كر عليهم بعدما أبعدوا عن حصونهم ففاجأهم بماأذهلهم وحط من قواهم فتفرقوا وانهزموا .

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٥٣ .

وإن من مواقفه العالية اهتمامه بدعوة أولئك القوم إلى الإسلام ، وتكليف من يعلمونهم شرائعه .

جهاده في وسط الهند :

من مواقف السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الجهادية ماذكره ابن الأثير في حوادث سنة أربع وأربعمائة قال : في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند في جمع عظيم وحشد كثير ، وقصدُوا سِطَةَ البلاد من الهند فسار شهرين حتى قارب مقصده ورتب أصحابه وعساكره ، فسمع عظيم الهند به فجمع من عنده من قواده وأصحابه، وبرز إلى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسلك فاحتمى به وطاول المسلمين ، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية ، فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحا ، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل، وتصافَّ هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الأمر ، ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم، وغنموا مامعهم من مال وفِيَلة وسلاح وغير ذلك .

ووُجد في بيت بُدٍّ عظيم [(١)] حجر منقور ، دلَّت كتابته على أنه مبني منذ أربعين ألف سنة ، فعجب الناس لقلة عقولهم [(٢)] .

وهكذا انتصر المسلمون على ذلك الحاكم الهندي بالرغم من كونه قد أحكم أمره حينما لجأ إلى ذلك الجبل ، ثم جمع جنده واستنجد بكل من حوله حتى كوَّن جيشا عظيما، ولكنهم لم يثبتوا أمام عزم المسلمين القوي وصبرهم الشديد .

---

(١) البد بضم الباء وتشديد الدال المضمومة هو الصنم .

(٢) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٠ - ٢٧١ .

جهاده في بلاد تانيشر :

ثم ذكر ابن الأثيـر في حوادث سنة خمس وأربعمـائة أنه قد ذُكر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر فـيلةً من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب ، وأن صاحبها غَالٍ في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين، فعزم على غزوه في عقر داره ، وأن يذيقه شربة من كأس قتاله، فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفاراً فسيحة الأقطار والأطراف ، بعيدة الأكناف ، والماء بها قليل، فلقوا بـها شدة وقاسـوا مشقـة، إلى أن قطعوها، فلمـا قاربوا مقصدهم لقوا نهراً شديد الجَـرْية صعب المخاضة، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ، ومعه عساكره وفيلته التي كان يُدِلُّ بها ، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر وإشغال الكفار بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور، ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود، وشغلـوهم عن حفظ النهـر حتى عـبر سائر الـعسكر في المخـاضات وقتلوهم من جـميع جـهاتهم إلى آخر النهـار ، فانهـزم الهنود وظفر المسلمون وغنموا مامعهم من أمـوال وفيلة ، وعادوا إلى غزنة موفرين ظافرين (١) .

وهذا الخبر يشتمل على خطة حـربية ناجحة خطط لها يمين الدولة ونجح في تنفـيذها ، حيث أشـغل الجيش الهندي بطائفـة من جيـشه ليتمكن بقية الجيش الإسلامي من عـبور النهر ، فعبروا وطوقوا الكفار من كل الجهات ، ولقد كان أولئك الجنود المنتخبون لإشغال الكفار في

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٢ .

غاية الشجاعة والتضحية حيث فَدَوا بقية الجيش الإسلامي بأنفسهم، وتلقوا الضربات الأولى التي تكون هي أشد القتال وأعنفه .

جهاده في بلاد قشمير وماحولها :

وذكر ابن الأثير أيضًا في حوادث سنة سبع وأربعمائه أن يمين الدولة غزا بلاد الهند ، عازما على غزو قشمير ، إذ كان قد استولى على بلاد الهند مابينه وبين قشمير ، وأتاه من المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل ، مما وراء النهر وغيره من البلاد ، وسار إليها من غزنة ثلاثة أشهر سيرًا دائما ، وعبر سيحون وجيلوم ، وهما نهران عميقان شديدا الجرية ، فوطئ أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الإتاوة ، فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه إلى مقصده ، فبلغ ماء جون في العشرين من رجب ، وفتح ماحولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة ، حتى بلغ حصن هَوْدَب وهو آخر ملوك الهند ، فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ماهاله وأرعبه ، وعلم أنه لاينجيه إلا الإسلام ، فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص، فقبله يمين الدولة وسار عنه إلى كَلْجَنْد ،وهو من أعيان الهند وشياطينهم، وكان على طريقه غياض ملتفة لايقدر السالك على قطعها إلا بمشقة ، فسيَّر كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقا مختصرة إلى الحصن من خلفهم فلم يشعروا به إلا وهو معهم ، فقاتلهم قتالا شديدًا فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا ، وأخذهم السيف من

خلفهم، ولقوا نهر عميقا بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم، وكان القتلى والغرقى قريبا من خمسين ألفا .

وعمد كلجند إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه .

ثم سار [يعني يمين الدولة] نحو بيت متعبَّد لهم وهو من مهرة الهند ، وهو من أحصن الأبنية ، على نهر ، ولهم به من الأصنام كثير ، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر ، وكان فيها من الذهب ثلاثمائة وتسعون ألفا وستمائة ألف مثقال ، وكان بها من الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم ، فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقي .

وسار نحو قنوج وصاحبها راجيبال ، فوصل إليها في شعبان، فرأى صاحبها قد فارقها وعبر الماء المسمى كَنَكْ ، وهو ماء شريف عندهم، يرون أنه من الجنة وأن من غرَّق نفسه فيه طهر من الآثام، فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعها وأعمالها ، وهي سَبْع على الماء المذكور ، وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم ، يذكرون أنها عُملت من مائتي ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف كذبا منهم وزورا، ولما فتحها أباحها عسكره (1) .

وإننا نلاحظ من هذا العرض وماسبقه كثرة الأصنام في الهند إلى حد كبير ، كما نلاحظ إغراقا من زعمائها وحاشيتهم في الترف والزينة، فكان لهم بالمرصاد بطل الإسلام يمين الدولة محمود بن

---

(1) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨٢ - ٢٨٣ .

سبكتكين الذي قضى على ماجمعوه من زخارف الدنيا وسلب منهم ذلك وتقوى به على الجهاد في سبيل الله تعالى ، وأزال في مدة قصيرة مابناه مضللوهم من الأصنام على مدى آلاف السنين .

وهكذا يتبوأ المسلمون أعمال الإصلاح والتطهير عن طريق الجهاد الإسلامي العظيم .

جهاده في مملكة كجورامة :

ومن مواقف السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الجهادية ماذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وأربعمائة . قال : في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند غازيا ، واحتشد وجمع واستعد وأعد أكثر مما تقدم .

وسبب هذا الاهتمام أنه لما فتح قنوج وهرب صاحبها « رآي قنوج» منها أرسل بيدا اللعين - وهو أعظم ملوك الهند مملكة وأكثر جيشا وتُسمى مملكته كجورامة - أرسل رسلا إلى رآي قنوج- واسمه راجيبال - يوبخه على انهزامه وإسلام بلاده للمسلمين، وطال الكلام بينهما ، وآل أمرهما إلى الاختلاف ، وتأهب كل واحد منهما لصاحبه وسار إليه ، فالتقوا واقتتلوا ، فقتل راجيبال وأتى القتل على أكثر جنوده ، فازداد بيدا بما اتفق له شراً وعتوا وبُعْدَ صيتٍ في الهند وعلواً ، وقصده بعض ملوك الهند الذي ملك يمين الدولة بلاده وهزمه وأباد أجناده وصار في جملته وخدمه ، والتجأ إليه فوعده بإعاده ملكه وحفظ ضالته عليه ، واعتذر بهجوم الشتاء وتتابع الأنداء [1] .

---

(١) لعله أراد الأمطار .

فنمت هذه الأخبار إلى يمين الدولة فأزعجته وتجهز للغزو وقصد بيدا وأخْذَ ملكه منه ، وسار من غزنة وابتدأ في طريقه بالأفغانية وهم كفار يسكنون الجبال ويفسدون في الأرض ويقطعون الطريق بين غزنة وبينه - فقصد بلادهم وسلك مضايقها وفتح مغالقها وخرب عامرها ، وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر ، وغنم المسلمون من أموالهم الكثير .

ثم استقل على المسير ، وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته ، وعبر نهر كَنَك، ولم يعبره قبلها ، وجدَّ به السير فأتاه في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له « بروجيبال» قد سار من بين يديه مُلتجاً إلى بيدا ليحتمي به عليه ، فطوى المراحل فلحق ببروجيبال ومن معه رابع عشر شعبان ، وبينه وبين الهنود نهر عميق، فعبر إليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال ، ثم عبر هو وباقي العسكر إليهم، فاقتتلوا عامة نهارهم ، وانهزم بروجيبال ومن معه ، وكثر فيهم القتل والأسر ، وأسلموا أموالهم وأهليهم فغنمها المسلمون، وأخذوا منهم الكثير من الجواهر ، وأخذوا مايزيد على مائتي فيل ، وسار المسلمون يقتصون آثارهم ، وانهزم ملكهم جريحا وتحير في أمره ، وأرسل إلى يمين الدولة يطلب الأمان فلم يؤمِّنه ، ولم يقنع منه إلا بالإسلام، وقُتِل من عساكره مالا يُحصَى ، وسار بروجيبال ليلحق ببيدا، فانفرد به بعض الهنود فقتله .

فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والإتاوة .

وسار يمين الدولة بعد الوقعة إلى مدينة باري، وهي من أحصن القلاع والبلاد وأقواها ، فرآها من سكانها خالية، وعلى عروشها خاوية، فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة، وقتل من أهلها خلقا كثيرا .

وسار يطلب بيدا الملك فلحقه وقد نزل إلى جانب نهر وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلا، وترك عن يمينه وشماله طريقا يبسا يقاتل منه إذا أراد القتال وكان عدة من معه ستةً وخمسين ألف فارس وأربعة وثمانين ألف راجل ، وستةً وأربعين وسبعَمائة فيل، فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال، فأخرج إليهم بيدا مثلهم، ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر الجمعان واشتد الضرب والطعان، فأدركهم الليل وحجز بينهم .

فلما كان الغد بكَّر يمين الدولة إليهم فرأى الديار منهم بلاقع، وركب كل فرقة منهم طريقا مخالفا لطريق الأخرى، وخزائن الأموال والسلاح بحالها ، فغنموا الجميع ، واقتفوا آثار المنهزمين ، فلحقوهم في الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والأسر ، ونجا بيدا فريدا وحيدا، وعاد يمين الدولة إلى غزنة منصورا [1] .

وهذا الخبر يبين لنا دقة رصد المسلمين الحربي، حيث عرف يمين الدولة عن تحركات ملوك الهند نحو التحالف مع الملك بيدا بالرغم من بُعْد المسافة ، كما يدل على ضعف ملوك الهند في ذلك ، حيث لم يعلم الملك بروجيبال عن تحرك المسلمين إلا بعد أن قابلوه أو قربوا

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠١ - ٣٠٢ .

منه، كما أن في هذا الخبر مثلاً من شـجاعة أبطال المسلمين حيث عبَر النهر إلى جيش الـهند بعضُ أصحاب يمين الدولة، فشغـلوهم بالقتال حتى عبر بقية جيش المسلمين ، كما أن في هذا الخبر أمثلةً واضحة من سلاح الرعـب الذي نصر الله تعـالى به المسلمين، وأبرز ذلك هروب ملك الهند بيـدا الذي جمع من السلاح والجنود مـالم يجمـعه الملوك قبله، فلما رأى ضراوة قـتال المسلمين أصيب بالرعب وأيقن بالهزيمة، فاغتنم فرصة ظلام الليل ليهرب هو وجيشه في كل ناحية .

جهاده في بلاد أخرى :

من أخبـار هذا المجاهد الكبيـر يمين الدولة محمـود بن سبكتكين ماذكره الحافظ ابن كثير في حـوادث سنة عشر وأربعمائة أنه غزا مدينة في الهند فيها ألف قصر مَشِيْد وألف بيت للأصنام، وفيها من الأصنام شيء كـثيـر ، ومَبْلغ مـاعلى الصنم من الذهب مـايقارب مـائة ألف دينار، ومـبلغ الأصنام من الـفضـة زيادة على ألـف صنم ، وعندهم صنم معظم يؤرخـون له وبه - بجهالتهم - ثلاثمـائة ألف عام ، وقد سَلَب ذلك كلَّه محـمود بن سبكتكين وذكر أن عـدد القتلى من الهنود خسمون ألفا ، وأسلم منهم عشرون ألفا [1] .

وذكر العالـم المؤرخ ابن الأثيـر أن ابن سبكتكين غزا الهند في سنة أربع عشرة وأربعمائة ، فأوغل فيها فغنم وقتل ، حتى وصل إلى قلعة على رأس جبـل منيع ، ليس له مصـعد إلا من موضـع واحد، وهي كبيرة تسع خلقا ، وبها خمسمائة فيل، وفي رأس الجبل مـن الغلاَّت

---

(١) البداية والنهاية ١٢/٨- ٩ .

والمياه وجميع مايحتاج الناس إليه ، فحصرهم وأدام الحصار وضيق عليهم واستمر القتال ، فقُتل منهم كثير ، فلما رأوا ما حلَّ بهم أذعنوا له وطلبوا الأمان، فأمَّنهم وأقر مُلكهم فيها على خراج يأخذه منهم[1] .

جهاده في سُومَنَات :

من أبرز مواقف السلطان محمود الجهادية قضاؤه على أعظم أصنام الهند « سومنات » ، وفي خبر ذلك يقول المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ست عشرة وأربعمائة : في هذه السنة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن، وأخذ الصنم المعروف بسومنات ، وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند، وهم يحجُّون إليه في كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ماينيف على مائة ألف إنسان ، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ، فينشئها فيمن شاء ، وأن المدَّ والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر على قدر استطاعته، وكانوا يحملون إليه كل عِلْق نفيس ، ويعطون سدنته كل مال جزيل ، وله من الموقوف مايزيد على عشرة آلاف قرية، وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر مالايحصى قيمته .

ولأهل الهند نهر كبير يسمى كَنَكْ يعظمونه غاية التعظيم ، ويُلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ، ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم ، وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتي فرسخ، وكان يُحمل من مَائِه كل يوم إلى سومنات مايغسل به .

ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٣١٥ .

الوفود إليه ، وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس زواره ولحاهم، وثلاثمائة رجل وخمسمائة أَمَة يغنون ويرقصون على باب الصنم، ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم .

وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحا وكسر صنما يقول الهنود : إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات، ولو أنه راض عليها لأهلك من قصدها بسوء ، فلما بلغ يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ظنا منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام ، فاستخار الله تعالى وسار من غزنة عاشر شعبان من هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة، وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان .

وفي طريقه إلى الهند بَرِّية قفر لا ساكن فيها ولاماء ولاميرة، فتجهَّز هو وعسكره على قدرها، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد « أنهلوارة » ، فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصونا مشحونة بالرجال ، وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها ، فيسَّر الله تعالى فتحها عند قربه منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم ، وتسلَّمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها، وامتاروا منها الماء ومايحتاجون إليه .

وسار إلى أنهلوارة فوصلها مستهل ذي القعدة، فرأى صاحَبها المدعوّ « بهيم» قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب ، وقصد حصنا له يحتمي به ، فاستولى يمين الدولة على المدينة .

وسار إلى « سومنات » فلقي في طريقه عدة حصون فيها كثير من

الأوثان شبه الحُجَّاب والنقباء لسومنات ، على ماسوَّل لهم الشيطان، فقاتل من بها وفتحها وخربَّها وكسر أصنامها ، وسار إلى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء ، فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك ، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا أموالهم ، وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا « دبولواره» وهي على مرحلتين من سومنات ، وقد ثبت أهلها ظنّا منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم ، فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها .

وسار عنها إلى سومنات فوصلها يوم الخميس منتصف ذي القعدة، فرأى حصنا حصينا مبنيا على ساحل البحر، بحيث تبلغه أمواجه، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم .

فلما كان الغد - وهو الجمعة - زحف وقاتل من به، فرأى الهنودُ من المسلمين قتالا لم يعهدوا مثله ، ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم ، وصعدوا إليه ، وأعلنوا بكلمة الإخلاص ، وأظهروا شعار الإسلام ، فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب، وتقدم جماعة الهنود إلى سومنات فعفَّروا له خدودهم وسألوه النصر ، وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض .

فلما كان الغد بكَّر المسلمون إليهم وقاتلوهم ، فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم سومنات، فقاتلوا على بابه أشد قتال ، وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل إلى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون إليه ، ويخرجون فيقاتلون إلى أن

يُقتلوا، حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقي منهم القليل فدخلوا البحر إلى مركبين لهم لينجوا فيهما ، فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضا وغرق بعض.

وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص، وسومنات من حجر، طوله خمسة أذرع، ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان في البناء ، وليس بصورة مصورة، فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه معه إلى غزنة فجعله عتبة الجامع .

وكان بيت الصنم مظلمًا وإنما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق ، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا مَنّ ، كلما مضى طائفة معلومة من الليل حُرّكت السلسلة فيصَوِّت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين إلى عبادتهم، وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية ، وعليها الستور المعلّقة المرصعة بالجوهر كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم .

وقيمة مافي البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع، وكانت عِدَّة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل [1] .

وبعد ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : إقدام محمود بن سبكتكين على قطع تلك المسافات البعيدة المشتملة على الصحاري المهلكة التي لا ماء فيها ولاطعام ، ولقد كان يعلم خطورة قطع تلك الصحاري فاستعد لها الاستعداد الكافي ، وإذا

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٠ - ٣٢١ .

عرفنا أن استعداده الاحتياطي عشرون ألف جمل يَحْمِل الماء والطعام فإننا نعرف ضخامة العتاد الذي أعده يمين الدولة لتلك الرحلة الجهادية الشاقة .

ثانيًا : حرص يمين الدولة على نشر الإسلام ، فقد كان سفره ذلك وتحمُّله تلك المشاقَّ العظيمة للقضاء على ذلك الصنم الكبير، من أجل أن يدرك الهنود أنه ليس هناك آلهةٌ مع الله تعالى ينصرون عابديهم أو ينفعونهم ، فيدفعهم ذلك إلى الإسلام .

ثالثًا : نَصْر الله تعالى أولئك المجاهدين بسلاح الرعب واضح في عدة مواطن ، وهذا دليل على صلاح ذلك الجيش وصدق نية أفراده.

رابعًا : في تلك المعركة الفاصلة حَوْل أكبر أصنام الهند اجتمع عِبَاد الله تعالى الذين يعبدونه ويستلهمون منه النصر والتأييد مع عباد ذلك الصنم الذين يعبدونه ويطلبون منه النصر والتأييد ، وكان في يقينهم أن من احتمى بذلك الصنم لايُغلَب، بل كانوا يظنون أنهم ليسوا بحاجة إلى أن يدخلوا مع العدو المهاجم في معارك، لاعتقادهم بأن تلك الساحاتِ ستكون مقبرة للغزاة بمجرد غضبةٍ من ذلك الصنم، ولذلك وقفوا على الأسوار يتفرجون على المسلمين انتظارا منهم لتلك اللحظة التي يتحوَّلون فيها إلى حطام مبدَّد وركام ملبَّد .

فإذا بهم يرون من المسلمين قتالا منعدم النظير ، وإذا بهم يشاهدونهم وهم يصعدون إلى السور وهم يكبِّرون الله جل وعلا ويوحدونه .

وعـاد الكفار أدراجـهم يعـانقون صـنمهم ويطلبـون منه النصـر والحماية ، ولكن لاحياة لمن تنادي .

إنه لعجب أن ينحدر الفكر الـبشري فيتوقع أن صنمـا من الجماد يستطيع نصره وإنقاذه ، ولقد كانت تلك العقـيدة الساذجة مشتركة بين أمم العـالم قبل الإسـلام ، فزالت تلـك العقـيدة بدخـول الناس في الإسـلام ، ولكنها بقـيت في بلاد الهند آنذاك حـيث لم يصل الفـتح الإسلامي إلا إلى أطرافها الغربية .

إن أي عـاقل يتصـور هذا الموقف يدرك الفـرق الشاسع بين قـوم يستلهمـون النصر من حجر ، وقـوم يستلهمونه من خـالقهم وخالق أعدائهم وخالق كل شيء جل وعلا .

ولقد ظهر الحق وزهق الباطل حينما انتصر عباد الله سبحانه على عباد الأصـنام ، وخسر أولئك الكفار دنيـاهم وآخرتهم ، كما خـسر عُبَّاد الأصنام من قبلهم .

خامـسًا : حطَّم ذلك القائد الكبـير يمين الدولة أكـبر أصنام الهند وماحوله من الأصنام ، كـما حطَّم قبل ذلك آلاف الأصنام، ولم يمرَّ عليَّ أن قائدا مسلما حطم من الأصنام بقـدر ماحطم السلطان محمود ابن سبكتكين ، ويكفي مثالا على ذلك أنه لما فتح بلاد قنوج وجَدَ بها مايقرب من عشرة آلاف صنم فأبادها كمـا تقدم ، وهذه منقبة عظيمة لهذا القائد الكبير .

ولفتـة جليلة حينما حـمل السلطان محمـود جزءًا من صنم الهند الكبير « سومنات» فـجعله عتبة لباب المسجـد الجامع في غزنة، وكأنه

أراد أن يقول للناس : هذا الصنم الذي يعـبده ويقدسه مـئات الألوف من البشر هو الذي نطؤه نحن بأقدامنا ، وهذه صورة معبرة من إذلال الكفر وأهله .

سادسًا : لقد مَنَّ الله تعالى على يمين الدولة بتلك الانتـصارات المذكورة لكـونه جمع بين القوتين : المـادية والمعنوية ، فهو لـم يهمل الأسباب المادية ، بل أعد كل مـاتمكن منه من السلاح والعتاد والجنود المدربين ، إلى جانب اهتمامـه بشكل أبلغ بالقوة المعنوية ، حيث كان متـوكلا على الله تعالى رافـعا شعـار توحيده ، يستلـهم منهم النصر والتأييد ، وقبل ذلك كان مستقيما عادلا في حكمه .

من مواقفه في الإصلاح والعدل :

ومن مواقفه في الإصلاح والعدل ماذكـره الحافظ ابن كثير بقوله: وبنى على جيحون جسرا تعـجز الملوك والخلفاء عنه ، غرم عليه ألفي ألف دينار ، وهذا شيء لم يتفق لغيره .

قـال : وكان عـادلا جيـدا اشتكى إليـه رجل أن ابن أخت الملك يهـجم عليه في داره وعلى أهله في كل وقـت، فيخـرجه من البـيت ويختلى بامرأته ، وقد حار في أمـره ، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر لايجسر أحد عليه خـوفا وهيبة للملك ، فلما سمع الملك ذلك غـضب غـضبـا شـديدًا وقـال للرجل : ويحك مـتى جـاءك فـأتني فأعلمني، ولاتسمعن من أحد منعك من الوصول إلي، ولو جاءك في الليل فأتني فـأعلمني ، ثم إن الملك تقدم إلى الحجبـة وقال لهم: إن هذا الرجل متى جاءني لايمنعه أحد من الوصول إلي من ليل أو نهار،

فذهب الرجل مسروراً داعيًا ، فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى هجم عليه ذلك الشاب فأخرجه من البيت واختلى بأهله، فذهب باكيا إلى دار الملك فقيل له إن الملك نائم ، فقال: قد تقدم إليكم أن لاأمنع منه ليلا ولانهارًا ، فنبهوا الملك فخرج معه بنفسه وليس معه أحد، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد ، وعندهما شمعة تَقِدُ، فتقدم الملك فأطفأ الضوء ثم جاء فاحتز رأس الغلام وقال للرجل : ويحك الحقني بشربة ماء ، فأتاه بها فشرب ثم انطلق الملك ليذهب ، فقال له الرجل : بالله لِمَ أطفأت الشمعة ؟ قال: ويحك إنه ابن أختي ، وإني كرهت أن أشاهده حالة الذبح ، فقال : ولِمَ طلبت الماء سريعًا ؟ فقال الملك : إني آليت على نفسي منذ أخبرتني أن لا أطعم طعامًا ولاأشرب شرابًا حتى أنصرك ، وأقوم بحقك ، فكنت عطشانًا هذه الأيام كلها، حتى كان ماكان مما رأيت . فدعا له الرجل وانصرف الملك راجعًا إلى منزله، ولم يشعر بذلك أحد [١] .

فهذا الخبر يدلنا على كمال اتصاف السلطان محمود بن سبكتكين بالعدل وإنصاف المظلومين من ظالميهم، فحينما سمع بهذه الشكوى من ذلك المتظلم اهتم كثيراً وقام بالبحث والتحري بنفسه ، فلم تغلبه العاطفة نحو أقاربه على الحكم بالحق الذي دفعه إليه إيمانه الراسخ. . لم تغلبه من إقرار العدالة وإنصاف المظلومين وإن كانوا من عامة الناس، وعقابِ الظالمين وإن كانوا من أقرب أقاربه .

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٣٢ - ٣٣ .

لقد تأثر كثيراً من إقدام ابن اخـته على تلك الجريمة النكراء منتهزاً فرصـة قرابته منه فـمنع نفسـه الطعام والشراب حـتى ينصف المظلوم ويردع الظالم .

وإن اتصـاف هذا السلطان بالعـدل وإنكار المنكر والتـخلق بمكارم الأخلاق كان سـببا في انتـصاراته العظيمة على الأعـداء، وبلوغه في الفتوحات حدا لم يصل إليه غيره ، لأن من خضع لشريعة الله تعالى وطبقها على نفسه وعلى من هـم تحت ولايته ينال معية الله جل وعلا بالحفظ والنصر والتأييد .

أما إصلاحاته التي ذكر منها ابن كثير بناء ذلك الجسر العظيم فإنها تدل على اهتمـامه بأمور رعيـته ورحمتـه بهم ، ورغبته الصـادقة في الأعمال الصالحة ، رحمه الله رحمة واسعة .

* * *

– جهاد مسعود بن محمود وابناه مودود وإبراهيم في بلاد الهند –

١ – ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة خمس وعشرين وأربعمائة أن السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين سار بجيشه إلى بلاد الهند، وقصد قلعة سرستي، وهي من أمنع حصون الهند وأحصنها فحاصرها، وقد كان أبوه حاصرها غير مرة لم يتهيأ له فتحها، فلما حاصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالاً على الصلح فأجابه إلى ذلك، وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها إلى مسعود من جملة القرار الذي عليه، فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها إليه يعرفونه فيها بضعف الهنود بها وأنه إن صابرهم ملكها، فرجع عن الصلح إلى الحرب، وطم خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره، وفتح الله عليه، وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم، وأخذ ما جاورها من البلاد [١] .

٢– ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أنه اجتمع ثلاثة ملوك من ملوك الهند وقصدوا «لهاوور»[٢] وحاصروها، فجمع مقدم العساكر الإسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل إلى صاحبه مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين يستنجد به، فسير إليه العساكر، فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد إلى طاعة مودود، فرحل الملكان الآخران إلى بلادهما، فسارت العساكر الإسلامية إلى أحدهما ويعرف بدوبال هربانه فانهزم منهم،

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٥ – ٦ .

(٢) لعلها مدينة لاهور الحالية .

وصعد إلى قلعة له منيعة هو وعساكره وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل ، وحاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم ، فطلب الهنود الأمان على تسليم الحصن ، فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلا بعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك التي لهم ، فحملهم الخوف وعدم الأقوات إلى إجابتهم إلى ماطلبوا ، وتسلموا الجميع وغنم المسلمون الأموال، وأطلقوا مافي الحصون من أسرى المسلمين وكانوا خمسة آلاف رجل .

فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني واسمه ثابت بالْري فتقدم إليهم ولقيهم واقتتلوا قتالا شديداً ، وانهزمت الهنود، وانجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح، وأُسِرَ ضعفاؤهم ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم .

فلما رأى باقي الملوك من الهند مالقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة ، وحملوا الأموال وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم فأجيبوا إلى ذلك[1].

٣ - ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة أن السلطان إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين غزا بلاد الهند فحاصر قلعة « أجود » وهي على مائة وعشرين فرسخا من «لهاوور» وهي قلعة حصينة في غاية الحصانة كبيرة تحوي عشرة آلاف رجل من المقاتلة ، فقاتلوه وصبروا تحت الحصار، وزحف إليهم أكثر

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨ .

من مرة فـرأوا من شدة حربه مـاملأ قلوبهم خوفـا ورعبا ، فـسلموا القلعة إليه في الحادي والعشرين من صفر .

ثم ذكر أنه فتح قلعة روبال وموضعين آخرين يقال لاحدهما «دره نوره » والآخر « وره » وكان النصر حليفه في كل تلك الحروب [1] .

وهكذا قام السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين بإكمال مابدأه أبوه وثبت حكم المسلمين فـي الهند ، وكذلك مـاقام به ابناه مـودود وإبراهيم ، وهذا الحـكم الإسـلامي في بلاد الهند الـذي امـتـد تلك السنوات الطويلة مكن لوجود الإسلام في الهند حيث استمر بعد ذلك دخول الهنود في الإسلام وقيام الحكم الإسلامي فيها .

* * *

---

(١) الكامل ٨/١٢٧ .

الجهاد والفتوحات

بعد العباسيين

– جهاد السلطان محمد شاه البهمنيّ –

هو محمد بن الحسن البهمنيّ، السلطان المجاهد في سبيل الله. قام بالملك بعد والده سنة تسع وخمسين وسبعمائة بأرض دكن، وافتتح أمره بالعدل والسخاء، وسار إلى بلاد تلكانه سنة ثلاث وستين، فقاتل أهلها وغنم من الذهب والجواهر الثمينة مالا يحصى، وعاد إلى كَلبركَه، ثم صار في سنة أربع وسبعين إلى تلك البلاد، ولما عرف صاحبها عجزه عن المقاتلة أرسل إليه يطلب المصالحة على مال يؤديه، فأبى محمد شاه ثم أجابه إلى ذلك على ثلاثمائة فيل ومائتي فرس وثلاثة عشر مائة هَنّ وبلدة كَولكنده ، فأرسل إليه كل ذلك صاحبها وأرسل إليه سريرًا مرصعًا من الذهب والجواهر ، فرجع إلى كَلبركَه وأرسل خمس الغنائم إلى الشيخ سراج الدين الجنيدي ليفرقها على من يستحقها من السادة والمشايخ .

وفي تلك السنة قدم إليه صاحب بيجانكَر وأخذ قلعة مدكل عنوة وقتل ثمانمائة من المسلمين ممن كانوا فيها، فلما سمع محمد شاه اشتعل غضبًا وحلف أنه يقتل من الوثنيين مائة ألف في قصاص المقتولين، ثم جعل ولده المجاهد وليَّ عهده وأوصى إليه وسار بتسعة آلاف فارس إلى صاحب بيجانكَر وكان معه ثلاثون ألف فارس وتسعمائة ألف راجل[1] ، ونهر كشنه كان عظيمًا كثير الزيادة لايخطر على قلب أحد أن محمد شاه يقدر على عبوره، وأيده الله سبحانه على العبور فأقام على شاطئه، وألقى الله تعالى الرعب في قلب

---

(١) هكذا جاء هذا الرقم في الخبر ، ولعل فيه خطأ أو مبالغة من الراوي .

صاحب بيـجانكَر فهابه وبعث الأحـمال والأثقال كلها إلى بيـجانكَر، وأقام بمعسكره ليستشير أصحابه في الحرب، فإن رضوا بالحرب حاربوه وإلا يذهب إلى بيجـانكَر ويتحـصن بها، والأحمـال التي بعثـها إلى بيجانكَر لم تتجاوز ميلين لشـدة الوحل ذلك اليوم، فلما سمع محمد شاه أنه ينتهز الفرصة للفرار بكر إليه بعـساكره، فتركوا الفيلة والأموال وماكان معهم من الأحمال وفروا إلى قلعة أودني فأقام محمد شاه في معسكره وقبض على أمواله وأمـر بالقتل ، فقتل من الوثنيين في ذلك اليوم سبعين ألفًا من الرجال والنساء والولدان من غير تفريق، وحصل له من المغانم ألفان من الفـيلة وثلاثمائة من عجلات المدافع وسبـعمائة من الأفراس .

ثم سار إلى مدكل وأقـام بها، ولما انقضت أيام المطر قـصد قلعة أودني فلما سمع صاحب بيجانكـر استخلف بها ابن أخيه وذهب إلى ناحـية من نواحي بلاده، فـسار مـحـمد شـاه إلى بلاد بيجـانكر مع المقاتلة، وأرسل الأحمال والأفيال إلى كَلبركَه وقصد معسكر صاحبها، فـبعث إليـه صاحب بيـجانكـر مقـدم عسـاكره بأربعين ألف فـارس وخمسـمائة ألف راجل، وكان عساكر مـحمد شاه خمسـة عشر ألف فارس وخمسين ألف راجل مع مالحق به من بعض عساكر الأمراء بعد خروجه عن كَلبركَه ، فالتقوا واقتـتلوا وانهزم الوثنيون ، وأكثر محمد شاه في القتل فلم ينج منهم إلا القليل النادر، وأقام بها سبعة أيام .

وسار محمد شاه في أثر صـاحب بيجانكَر وحاصرها وضيق على أهلهـا وأدام الحصـار إلى شهـر كـامل، ثم دبر الحيلة وتمارض وأمـر

برجوع العساكر من بيجانكَر ، فلما سمع المشركون ذلك طمعوا في قتلهم ونهب أموالهم، فخرج صاحب بيجانكَر من القلعة وتعقب المسلمين حتى وصل إلى ماء تمهندره وعبرها ووصل إلى أرض قفراء، فقام محمد شاه من فراشه وجلس للناس وقت المساء وقويت عساكره برؤيته فأمرهم أن تجهزوا للحرب، وسار بعساكره في الليل إلى معسكر المشركين وكانوا مشتغلين بالرقص والغناء، ولم يعلموا بمجيئه إلا حين وقف على رؤوسهم في البكرة، فاختلت حواسهم وفر كل واحد منهم إلى ناحية من نواحي الأرض وتركوا جميع مالهم من الأموال والأحمال، وأمر محمد شاه بقتلهم فقتل منهم حينئذ عشرة آلاف، وغنم محمد شاه أموالاً طائلة، ثم تعقبهم إلى أربعين ميلاً من بيجانكر وقتل وغنم، فاضطروا إلى الصلح وأرسل كشن راي إلى محمد شاه يطلب الصلح على مال يؤديه عاجلاً، فرجع محمد شاه إلى كَلبركَه واشتغل بمهمات الدولة، واستقل بالملك سبع عشرة سنة وتسعة أشهر (١) .

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية منها :

١ - جرأة السلطان محمد شاه على ملاقاة جيش يتكون من ثلاثين ألف فارس وتسعمائة ألف راجل - كما جاء في الرواية- بتسعة آلاف فارس ، وهذا الرقم المذكور لجيش الأعداء قد يكون فيه مبالغة، ولكنه يدل على أن جيش الأعداء كان كبيراً وأن الفارق بين الجيشين

---

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل /٢٩٩-٣٠١ نقلا عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام لعبد الحي الندوي .

كبير جدًا ، وهذا يدل على جسارة عظيمة ، وشجاعة عالية، واختيار جيد للجنود ، ولاشك أن الروح المعنوية لجيش المسلمين كانت عالية جدًا ، ومـاذلك إلا من قـوة تمسكهم بالإسلام ، حـيث كان لعلـماء الدين آنذاك دور كبيرٍ في تربية الأمة على الاستقامة والإخلاص .

٢ - إقدام السلطان مـحمد شاه على عـبور نهر كشنه مع كـثافة وزيادة مائه ، بحيث يغلب على الظن - حسب المـعتاد - عدم القدرة على العـبور ، وذلك - بعـد توفـيق الله تعـالى - شاهد على شـدة الإقدام وقوة الحمـاس عند المسلمين ، ولعل هذا الإقدام الشديد الذي يصل إلى حد المغامرة كان سبـبا من أسباب إصابة الأعداء بالرعب من المسلمين .

٣ - دقة رصـد السلطان مـحمـد شاه، حـيث علم بما يدور في مـعسـكر الأعداء من المشـاورة على الإقـدام على قـتـال المسلمين أو التحصن بمدينـة « بيجانكر» ، ثم ماكان عليـه هذا السلطان من الحزم واغتنام الفرص المناسبة ، حيـث أقدم على قتال الأعداء مع أول النهار قبل أن ينسحبوا وكانوا في حال تردد وانهزام معنوي، فكان ذلك ممهدا لهزيمتهم عسكريا ، حيث لاذوا بالفـرار وتركوا فِيَلتهم التي كانت هي أسلحتهم الثقيلة وتركوا أموالهم ، وأكثر المسلمون من القتل فيهم وهم منهزمون ، وكـون المسلمين قتلوا بعض نساء العدو وأطفالهم مـخالفة شرعية حيث لايجوز قتل النسـاء والصبيان إلا إذا شاركوا في القتال، ولعلهم كـانوا قـد شـاركـوا ، أو لعل ذلـك صـدر من بعض جنود المسلمين جهلا منهم بالحكم الشرعي في ذلك .

٤ - لم يكتف السلطان محمد شاه بهذا النصر المؤزر على أعدائه، بل سار خلفهم ليقضي على ماتبقى من قوتهم حتى لايفكروا بغزو المسلمين مرة أخرى ، وقد اعتبر أن الخطر على المسلمين مازال باقيا مادام رأس أعدائه قائما على حكم بلاده ، فسار إليه حتى حاصر عاصمة ملكه « بيجانكر» ، وهذا التصميم منه على إنهاء ملك تلك البلاد دليل على خبرته الحربية والإدارية .

٥ - في المعركة الأخيرة مع عدوه استعمل الخداع الحربي حينما حالت التحصينات القوية والجدر السميكة بينه وبين عدوه، حيث أظهر أنه مريض ورجع إلى بلاده، وجازت هذه الخدعة على أعدائه فخرجوا يتعقبون المسلمين ليوقعوا بهم ، فلما وصلوا إلى المكان الملائم للحرب نهض السلطان محمد من فراشه وصار يزاول مهامه القيادية بقوة وحزم، ثم داهم الكفار وهم غارقون في لهوهم فأوقع بهم فلم يكن لهم مقاومة ، بل فروا وتركوا أمتعتهم .

وهكذا انتهت هذه المعارك المثيرة بين السلطان محمد شاه وعدوه صاحب « بيجانكر » بانتصار حاسم للمسلمين في جميع تلك اللقاءات.

* * *

– جهاد السلطان محمود بن محمد الكجراتيّ –

هو السلطان العادل المجاهد أبو الفتح سيف الدين محمود بن محمد بن أحمد الكَجراتي المشهور بمحمود بيكره .

كان من خيار السلاطين ، ولد بكَجرات سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وقام بالملك بعد داود شاه سنة اثنتين وستين وثمانمائة وكان يوما مشهودًا ، واستقل بالملك خمسًا وخمسين سنة ، وفتح قلعة باردو وفتح قلعة كرنال وكانت من أمنع قلاع الهند، وأنشأ مدينة في سفح الجبل وسماها مصطفى آباد وجعلها دار المملكة .

وفتح قلعة بيت ودواركْا وفيها صنم من أشهر أصنام المشركين في الهند، ، يحجون إليه ويرون من العبادة تكلف المشاق في الوصول إليها، حتى إن منهم من ينبطح على وجهه ويمد يديه أمامه ويقف ثم يضع قدمه على منتهى يده وينبطح ويمد يده ويقف ، وهكذا يقطع الطريق إليها ولو من مسافة أشهر ، فملكها سنة خمس وثمانين وثمانمائة ، وسار إلى جانپانير وحاصر قلعتها ، وكانت قلعة حصينة متينة على قلة جبل [1] لاتكاد تفتح ، فضيق في الحصار وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها سنة تسع وثمانين وثمانمائة [2] .

وهكذا قضى السلطان محمود بن محمد الكجراتي على ذلك الصنم الذي يعظمه الوثنيون في الهند ويحجون إليه، ويتكلفون المشاق

---

(١) رأس جبل .

(٢) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / ٨٧٧ ، نقلا عن « الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام » للشيخ عبد الحي الندوي الحسني .

في بلوغـه، وإن القضاء على الأوثان مـن أهم الوسائل الناجـحة في الدعوة إلى التـوحيد، لأن الأصنام هـي أكبر العـوائق التي تحول بين العقل والطموح نحـو المعاني السامية التي يدعو إليـها الإسلام ، فإذا أزيلت ولم يحـصل على من أزالـها ضـرر فـإن الناس من عـابديهـا يفهـمون بأنها لاقـيمة لهـا في الضرر والنفع ، فيـصبحـون بعد ذلك مهيئين لقبول دعوة التوحيد .

ومن مآثره الجميـلة قيامه بالعدل والإحسان وإنـفاذ أمر الشرع في السيـاسة، ومما يحكى عنه في ذلـك أنه بلغه عن بهاء المـلك بن علاء الملك ألف خان سهـراب أنه قتل سلاحداراً [1] له فطلبه، فلاذ بعماد الملك وعضد الملك واسـتجار بهمـا، فلم يجدا لخلاصه سبـيلاً سوى نسبة القـتل إلى غيره، فأرضيـا شخصين على ضمان الخـلاص لهما، وقد الإقرار به سعيًا في الدية وكـانا عوّلا عليها في الخلاص فلم تقبل الدية ومضى الحكم بقـتلهما وخـلص بهاء الملك ، وبعد يسـير وقف محـمود شـاه على حقـيقـة الحال وتعب إلى الغـاية وجلس للقـضاء وأمضى في الملكين حـكم القصاص ، ولم يمنعـه كونهمـا من عظماء ملوكه الخاصة به من أن يعمل بالشريعة [2] .

وهذا التـصـرف من هذا السلطان يدل على قـوة إيمانه بالإسـلام وخشيته من الله تعالى ، فإن مما ينظر إليـه الساسة في تثبيت سيادتهم مداراة رؤوس مراكز القـوى في دولهم، وإن أضر ذلك بعامة الناس،

---

(١) أي حافظ الأسلحة ومتوليها .

(٢) المختار المصون / ٨٧٨ ، عن « الإعلام بما في تايخ الهند من الأعلام » .

وهذا عمل أهل الدنيا لأنهم ينظِرون إلى تثبيت السلطة من غير نظر إلى الحساب في الآخرة ، أما أهل الآخرة فإنهم ينظرون إلى النجاة من المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامة ، وهذا يتطلب منهم أن يحكموا بالعدل حتى مع الكبراء ، وإذا كانت العدالة قد تفقد المسئول دعم بعض مراكز القوى فإنها تمنحه دعم الألوف من الرعية الذين يتمتعون بعدله ، كما كانت حال هذا السلطان الذي بقي في السلطة خمسا وخمسين سنة .

ومن مكارمه أنه استقل بالملك خمسا وخمسين سنة وجاهد في الله حق الجهاد ووسع حدود ملكه إلى مالوه وإلى بلاد السند، ولكنه في تلك المدة الطويلة لم يطمح إلى بلاد المسلمين ولم يستشرف لها قط، وإذا استولى القويّ منهم على الضعيف قام بنصرة الضعيف، كما وقع له في سنة ست وستين وثمانمائة إذ وصل إليه حاجب نظام شاه البهمنيّ صاحب دكن يخبره أن محمود شاه الخلجيّ صاحب مالوه خرج إليه بعساكره، فعطف السلطان عنانه من الصيد وتوجه إلى سلطان يوربمن حضر معه، وأمر الوزير أن يلحقه بالعسكر، ولما نزل بسلطان يور قدم حاجب آخر يخبر بالحرب وأنه حاصر دار ملكه بيدر، فنهض السلطان من سلطان يور ، ولما كان منزله تهالنير قدم حاجب آخر يخبر برجوع الخلجيّ ، وذلك لأنه سمع بوصول محمود شاه الكجراتي فترك بيدر ورجع إلى مندو ، وكذلك في سنة سبع وستين وثمانمائة وصل حاجب نظام شاه يخبر أن الخلجيّ خرج بتسعين ألف فارس إلى حدود نظام شاه ، فنهض السلطان مع الحاجب وبلغ

الخلجي ذلك بفتح آباد من أعمال تلنكَانه فرجع إلى دار ملكه، فكتب السلطان إلى محمود شاه الخلجيّ مامعناه : ليس من المروءة قصد طفل لم يبلغ الحلم وقد التزمت حفظ ملكه إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، فإن دخلت في حده خرجت إلى حدك وفيما يليك من جهات الكفر مايغني عنه ويرفع درجتك بالجهاد .

وإذا انتهيت إلى السلا مة في مداك فلا تجاوز

وكذلك لما بلغ محمود شاه سنة سبع وسبعين وثمانمائة خروج النوتك القواسه على سلطان السند بلغ عددهم أربعين ألفا، وهي طائفة بحرية تسكن الجزر بنواحي السند ، لاتجتمع على طاعة أحد، إنما هي من لصوص البحر، فنهض من مصطفى آباد يسير كل يوم ستين فرسخًا ، فلما قرب من السند تفرقوا، فتوقف السلطان بمنزله إلى أن وصل رسول ملك السند برسالة تتضمن شكره، فرجع إلى دار ملكه ، وكذلك لما بلغه أن جماعة من الأمراء تغلبت في خانديس واختل بها نظام الملك نهض إلى برهانيوز بعساكره ، وولى عليها عالم خان بن أحسن خان الفاروقي أحد وارثي المملكة ، ولقبه أعظم همايون عادل خان ، وكان ابن بنته ، وذلك في سنة أربع عشرة وتسعمائة .

ومن ذلك أنه لما توفي محمود شاه الخلجي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وبلغ وفاته ترحم عليه فعرض عليه بعض أرباب الرأي الخروج إلى مندو ، فأجابه : ليس من الفتوة اجتماع مصيبتين في وقت واحد على أهل بيته : فقد ذاته ، وخلل جهاته .

ومن ذلك أنه لما سمع سنة ست وتسعمائة أن ناصر الدين شاه الخلجي سم أباه غياث الدين الخلجي خرج إلى مندو وقصد تأديبه لاملكه ، وبينما كان ينهض تواترت الرسل من ناصر الدين ببراءة ذمته فتركه ، وفي كلها مفخرة عظيمة له (١) .

وبعد : فهذه أخبار عالية عن السلطان محمود بن محمد الكجراتي في الزهد في الجاه ، والعفة عن دماء الناس وأموالهم، فقد عاش الأمراء المسلمون من حوله خمسا وخمسين سنة بسلام، ونَعِمَت الهند بشيء من الاستقرار السياسي الذي ينتج عنه تمتع الناس بنعمة الأمن، حيث كان لايعتدي على الإمارات الإسلامية التي حوله، ولايترك القوي من أولئك الأمراء يعتدي على الضعيف، وهذه خصلة حميدة وسياسة عالية ، .ولقد سبق بذلك هيئة الأمم في مهمتها السياسية العالمية ، ولكن بشكل مصغر اقتصر على الإمارات الإسلامية في الهند ، ولقد كان ينطلق في هذه السياسة من واجبه الإسلامي ، حيث جاء في الإسلام وجوب نصر المظلوم على الظالم، انطلاقا من قول الله عز وجل ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠] .

وقول رسول الله ﷺ :«انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل:

---

(١) المرجع السابق /٨٧٨ - ٨٧٩ .

يارســول الله أنصره إذا كــان مظلومــا ، أفــرأيت إن كان ظالما كـيف أنصره؟ قال: تحجزه - أو تمنعــه - من الظلم فإن ذلك نصره» أخرجه الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه [1].

* * *

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٩٥٢ ، الإكراه (١٢/ ٣٢٣) .

- جهاد السلطان بابر -

هو السلطان بابر بن عمر بن أبي سعيد بن ميران شاه بن تيمور التيموري .

تولى السلطة في « أندجان» من بلاد ماوراء النهر في عام تسعة وتسعين وثمانمائة وله اثنتا عشرة سنة، ثم وسع سلطنته فاستولى على افغانستان وبعض الهند .

وشعر أحد أمراء الهند الوثنيين القدامى بخطر قيام حكومة يحكمها المسلمون الغزاة الوافدون من الخارج، وإفلات الأمر من يدهم، وهو الأمير « رانا سانكَا » حاكم « چتور» ، وكان قائدًا باسلاً محنكًا فعبأ جيشًا كبيراً ، واتفق معه من الأفغان من كان منتصراً للأسرة اللودهية الأفغانية التي انتزع منها « بابر» الحكم، فتألف بذلك نحو مائتي ألف محارب، وتوجه الجيش إلى « اكَره» وتوجه « بابر» بجيشه وهو يتألف من اثني عشر ألف جندي، وذلك في جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وتسع مائة للهجرة، واستقر في موضع يسمى « كانوه » أو « خانوه » .

كاد الوهن يدب إلى جيش « بابر » فقام في الجيش وأعلن توبته عن تعاطي الخمر الذي كان معتادًا له، واستحلف قادة الجيش على الصمود حتى يقضي الله في شأنهم وحميت المعركة واستعر القتال، وكان الفتح للجيش الإسلامي ، وقتل من الجيش المنافس من لايأتي تحت العد والحصر ، وكان فتحًا حاسمًا قضى بقيام حكومة مسلمة، على رأسها الأسرة المغولية من أحفاد بابر دامت أكثر من ثلاثة قرون،

حتى انتزعها منها الإنجليز في سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف، وكانت هذه الحرب المقررة لمصير المسلمين السياسيّ في الهند في ثلاث وثلاثين وتسع مائة [1] .

في هذا الخبر بيان علو همة السلطان بابر ، حيث شملت إمارته بلاد ماوراء النهر وافغانستان والهند، وفي المعركة المذكورة التي كانت بينه وبين ملك الهند يظهر مثل من عظمة المسلمين الحربية، ومقدرتهم القتالية الفائقة، حيث انتصر السلطان بابر بجيشه الذي لايتجاوز اثني عشر ألف على ملك الهند الذي يتكون جيشه من مائتي ألف، وإذا عرفنا أن وسائل القتال آنذاك مشتركة بين المتحاربين ، وأنه ليس هناك تفوق ظاهر في السلاح لأحد الفريقين المتقاتلين فإننا ندرك مدى القوة المعنوية التي يتمتع بها المسلمون .

وفي هذا الخبر إشارة إلى إدراك هذا السلطان بأن النصر الحقيقي هو من عند الله تعالى ،وأن عباده المسلمين ليسوا أهلا لنصره وهم يرتكبون المعاصي، فكان منه أن أعلن توبته عن شرب الخمر، وهذا يعني أنه في تلك الحال كان في إقبال شديد على اللجوء إلى الله جل وعلا والتوكل عليه .

وفي هذا الخبر بيان أن المسلمين في الهند قبل حكم هذا السلطان كانوا في ضعف شديد وأن ملوك الهند الوثنيين قد ظهروا عليهم، فكان قدومه وانتصاره إعزازاً لوجود المسلمين في الهند، وسببا في دوام دولتهم فيها أكثر من ثلاثة قرون، ولهذا كانت هذه المعركة مصيرية حسمت واقع السلطة على الهند لصالح المسلمين .

---

(١) المختار المصون / ٨٤٣ - ٨٤٤ ، عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام .

– جهاد السلطان عالمكير –

هو الإمام المجاهد أبـو المظفر محيى الدين محـمد أورنكك زيب عالمكير بن شاهجهان .

ولد سنة ثمـان وعشرين وألف في أيـام جده جهـانكير بن أكـبر شاه، ونشأ في مهد السلطة ، وتولى الإمارة سنة ثمان وستين وألف، فافتتح أمره بالعدل والإحسان ورفع المظالم والمكوس .

فتح الفتوحات العظيمة وساس الأمور وأحسن إلى الرعية وصرف أوقاته في القيام بمصالح الناس ، وكلما فتح بلادا شرع في فتح أخرى حتى لحقت حدود مملكته في الجهة الشمالية إلى حدود خيوا وبخارى، وفي الجهة الجنوبية إلى البحر المحـيط الهندي ، وفي الجهة الغربية إلى سومنات على شاطئ بحـر الهند وفي الجهة الشرقـية إلى بوري منتهى أرض أريسه .

وكـان ماهرا بالرمي والطعن والـضرب والفـروسيـة وغيـرها من الفنون الحربية ، وكان شجاعا مقداما باسلاً لايظهر له في الهيجاء فزع ولاجـزع ولاطيش ولاخفـة ، بل من رآه ظن أنه قـد جـاء من بعض المنتـزهات وهو قد خـرج من معركـة تطير لـها العقـول وتشيب لـها الولدان.

وكان مشهورًا بالشجاعة منذ صغره، فقد جاء من أخباره أن والده شاهجهـان كان يوما يتفرج في البرج المشـرف على نهر « جَمَنْ» على مصارعـة الأفيال التي كانت في عرصـة القلعة فيما بـينها وبين النهر، والأفواج كانت قائمة بين ظهرانيها وخلق كثير يتفرجون عليها في تلك

العرصة ، وكـان عالمكير أيضا في ذلك الزحام وهو يومـئذ في الرابعة عشر من عمره وكان على فرس على جري العادة، فإذا بفِيْلة قد ثارت وقصـدت الأفواج ، ففر النـاس كلهم من بين يديها إلا عالمكيـر فإنه ثبت على مقـامه ، فـتوجهت إليـه الفيلة ولفَّت فـرسه بخرطومـها، وصرع عالمكيـر من صهوة الفرس ، ثم قام وسل السـيف عليها ، ثم جاء الناس ودفعوها بالضـرب والطعن وإيقاد النار وغير ذلك ، وهذه مفخرة عظيمة في الثبات والعزيمة قلَّ أن توجد في أبناء الملوك في تلك السن .

ومن مآثره أنه نصب الجزية على الكفار بعد أن لم تكن ، وتم له ذلك مع أنه لم يتم لأحد من أسلافه .

ولقد اشـتهـر بالعبـادة والزهد وكان ذلك من أسـباب تفـوقه في الجهاد، فقد حفظ القـرآن الكريم بعد توليه السلطة، وكان يداوم على الطهارة بـالوضوء، ويحافظ علـى الأذكار والأدعيـة المأثورة عن النبي ﷺ والصلاة في الليل وكان يصلي بالناس صلاة التراويح .

وقد وُصِف بالملك العادل الزاهد ، وبلغ من الزهد مبلغا أناف فيه على ابن أدهم ، فإنه مع سعة سلطانه يأكل في شهر رمضان رغيفا من خبز الشعير من كسب يمينه .

وكان له اهتمـام جيد بالعلم ومن اهتمامـه بعلم الحديث أنه ألف كتـاب « الأربعين » قبل أن يتـولى السلطة، ثم ألف كـتابا آخـر بعد الولاية جمع فيـه أربعين حديثا وترجمـها إلى الفارسية وعلق عليـهما الفوائد النفيـسة ، وكانت له مهارة تامة بالفـقه ، ويُضرب به المثل في

استحضار المسائل الجزئية ، وقد صنف العلماء بأمره « الفتاوى الهندية» في ستة مجلدات كبار ، فاشتهرت في الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والرومية ، وعم النفع بها وصارت مرجعا للمفتين، وقد أنفق على جمعها مائتي ألف من النقود .

وكان ماهرا في الإنشاء والترسل ، لم يكن له نظير في زمانه في ذلك، وقد جمع شيئا منها كثيرا أبو الفتح قابل خان التَّتوي في «آداب عالمكيري » وعناية الله خان في « الكلمات الطيبات» و «الرقائم الكرائم » .

ومن مآثره أنه كان سخيا يبذل على الفقراء وأهل الحاجة العطايا الكبيرة ويسامحهم في الغرامات ، ومن ذلك أنه أبطل ثمانين نوعا من الضرائب في سنة تسع وستين وألف ، وكانت تُدِرُّ عليه ثلاثين لَكًّا في كل سنة (١) .

ومن ذلك أنه بذل أموالا طائلة في إصلاح الشوارع والطرق في نواحي الهند وافغانستان ، وحفر الآبار وأجرى العيون وأسس الجسور والرباطات وغير ذلك .

كما أنه اهتم بالمساجد فبنى مساجد كثيرة وعمر القديمة منها وجعل الأرزاق للأئمة والمؤذنين ، وجعل الرواتب للمساجد لتأمين ماتحتاج إليه من بسط وسرج وغير ذلك .

وكان مقتصدا في الخيرات غير مسرف في المال، فإنه كان لايعطي الشعراء ولا أهل الغناء خلافا لأسلافه فإنهم كانوا يسرفون في ذلك،

---

(١) أي مايعادل ثلاثة ملايين .

وكان إذا أعطى العلماء يشترط أن يكون ذلك في مقابل التدريس والإفادة ، وإذا بعث الأموال إلى الحرمين الشريفين - زادهما الله تشريفا - يشترط بأن تعطى لأهل الحاجة ، ولذلك كان الناس ينسبونه إلى البخل وحاشاه من ذلك .

ولم يزل على سيرته الحميدة حتى توفى بدكن سنة عشر ومائة وألف، رحمه الله تعالى [1] .

* * *

(١) المختار المصون ١٣٧٠ - ١٣٧٨ عن « الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام » بتصرف.

– جهاد السلطان أحمد شاه الدرانيّ –

هو أحمد شاه بن زمان خان الدرانيّ المعروف بالأبداليّ، نسبة إلى قبيلة كان أبوه أميرًا عليها، وهو أفغانيّ الأصل ومؤسس الدولة الأفغانية بقندهار .

ولد سنة ١١٣٦هـ ، ولما توفي أبوه قبض حسين شاه صاحب قندهار عليه وأسره عنده، فلما غزا نادر شاه قندهار سنة ١١٥١هـ أطلق أحمد شاه من أسره، ووجهه إلى بلاد فارس، وجعله على فرقة من الفرسان واستأثر به وتفرس فيه النجابة والنبوغ، وكان معه عند غزوه للهند سنة ١١٥١هـ ، وتوسم فيه نظام الملك مؤسس الدولة الآصفية في حيدر آباد آثار الرشد والعظمة ، وتنبأ بأنه سيكون في يوم من الأيام ملكًا كبيرًا ، ولما قتل نادر شاه حاول أحمد شاه أن يأخذ ثأره وبذل جهده فلم يساعده القدر لكثرة جيوش الفرس وقوتهم، فلجأ إلى معاقل الجبال في بلاد قومه الأفغانيين ونشر راية الاستقلال وجرى تتويجه في جامع قندهار سنة ١١٦٠هـ ولقب نفسه« أحمد شاه» و«در دوران» فاجتمع إليه كثير من الأمراء بقبائلهم العديدة، وبذل فيهم أموالاً كثيرة ، وأحسن صلتهم ، فغزا بهم الجهات المجاورة لمملكته ، فاستولى على تلك الولايات ، وعلى قسم من مملكة الفرس، وجعل مركز سلطته قندهار، ثم اجتاز إلى أراضي الهند وداس أرض بنجاب وكشمير ، وغزا الهند عدة مرات بين ١١٦١هـ و١١٧٠هـ ، وتوغل في البلاد حتى وصل إلى دهلي سنة ١١٧١هـ ، وصاحبها حينئذ عزيز الدين عالمكَير الثاني ووزيره عماد الملك الذي

نصبه ، وكان داخله الحسد لامتداد سطوة وزيره المذكور وحاول كسر شوكته فلجأ عزيز الدين إلى أحمد شاه واستماله إليه ووافقه على أفكاره فحمله على أن يبقى له السلطة ودخل أحمد شاه دهلي واستباح غنائمهما وولّى ابنه تيمور شاه على بنجاب بعد أن أقام شهرًا في دهلي ، وزوج ابنه بابنة صاحب الهند .

ثم خرج من دهلي بعد أن استخلفه عليها، فلما خرج قام الوزير فطرده من دهلي وقتل سلطانه وأقام مكانه محيي السنة بن كام بخش بن عالمكَير الأول فاهتبلت « المرهتة»[1] الفرصة وطردوا الأولياء وأقاموا أولياء من الهنود فجرد أحمد شاه عساكره سنة ١١٧٣هـ وقصدهم، فمضت عليهم سنة هو في التأهبات الحربية والمقاتلات الخفيفة إلى أن تحصن المرهتة في بعض الحصون المنيعة فحاصرهم أحمد شاه وأكرههم على القتال ، فانتشبت الحرب وكان يومًا مشهودًا ، قاتلت فيه المرهتة قتالاً شديدًا وأبلوا بلاءًا حسنا ، وقد رأى أحمد شاه باب الفرج غير أنهم أطبقوا عليه من كل جانب ، وضيقوا على عساكره وبذلوا الجهد في المقاتلة فانكسرت عساكر أحمد شاه واستولى المرهتة على دهلي وأسروا العائلة الملكية بجملتها واستولوا على كل المجوهرات غير أن أحمد شاه جدد القتال فكانت المعركة الحاسمة في ساحة پاني پت في سنة ١١٧٤هـ ، واجتمعت الجيوش الإسلامية تحت رايته فظفر في هذه الواقعة بالمرهتة وقتل منهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها من المرهتة ثمانية وعشرين ألفا ، وأسر اثنين وعشرين ألفا ، وفي تلك الأثناء خرج

---

(١) قوم من كفار الهنود .

عليه خارجة من لاهور ، فسار إليها وانقض على المتمردين بجموعه فهزمهم أقبح هزيمة وفتح للأفغانيين طريق كشمير ، وتوفي أحمد شاه سنة ١١٨٦هـ بقرب مدينة قندهار .

كان أحمد شاه من كبار القادة العسكريين ومؤسسي الحكومات الذين نبغوا في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، قد جمع شمل الأفغان ، ونظمهم في سلك واحد، وضبط البلاد، وحفظ الثغور، وسن القوانين العادلة ،وأقام الحسبة، وكان جامعًا بين صفات الفروسية ومكارم الأخلاق والنبل، محبّا للعلوم والآداب، أليفًا ودودًا، وقورًا مهيبًا إذا كان على منصة الحكومة ، متواضعًا بعيدًا عن التكلف في غير هذا الوقت،متدينًا حريصا على صحبة العلماء والصالحين، مكرمًا للسادة والمشايخ ، يذاكرهم في الأمور الدينية، والمسائل العلمية،رحيمًا كثير العفو عن الأعداء، كارهًا للقسوة محبّا للمساواة، منح الحرية الدينية لجميع الطوائف، وشجع على النكاح الثاني للأيامى، الذي كان يكرهه الأفغان ويتعيرون منه ، حمل العلماء والمؤلفين على وضع كتب في تاريخه، وتسجيل وقائعه وأيامه، وكان كاتبًا يؤلف، ويتمنى أن يصل إلى درجة الولاية .

ومن أشهر مآثره وأعظمها أنه هزم المرهتة الذين شكلوا أكبر خطر على الحكومة الإسلامية في الهند وعلى الكيان الإسلامي هزيمة منكرة، لم تقم لهم قائمة بعدها، وكان في توجهه إلى الهند لحماية المسلمين سهم كبير لشيخ الإسلام وليّ الله بن عبد الرحيم الدهلوي، الذي حث الأمير نجيب الدولة على دعوته إلى الهند، وكان - لو بقي

في الهند - تاريخ آخر للمسلمين فيها ، ولكنه كان مرتبطًا ببلاده ومصالحها ، لايحب أن يعيش بعيدًا عن مركز سلطته وقوته، فعاد إلى قندهار على أثر الفتح العظيم ، فاضطربت الأحوال في الهند، ولم يستطع المسلمون أن ينتفعوا بهذا الفتح طويلاً لضعف القيادة ، وتفرق الكلمة ، فكان ماكان ، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا [1].

وبعد : فهذه صفحات من جهاد السلطان الكبير أحمد شاه الدراني، والذي يلفت النظر هو معاركه مع كفار الهند « المرهتة» الذين انتهزوا فرصة الخلاف بين زعماء المسلمين فهجموا على البلاد وانتزعوا السلطة ، وأفسدوا في الأرض ، وإننا لنلاحظ أن السلطان أحمد شاه لما أخفق في قتالهم في المرة الأولى لم ييأس بل عاود الكرة بعد ذلك وهو يعلم أن مسلمي الهند لاطاقة لهم بهم، لأنهم محاربون مهرة ويدافعون عن عقائدهم الباطلة ، وقد وفق في المرة الثانية بالقضاء عليهم توفيقا عظيما، حيث لم تقم لهم بعد تلك المعركة قائمة، وانقذ دولة الإسلام في الهند، وهو يعتبر من المجاهدين الكبار الذين ابقوا دولة الإسلام في الهند مدة أطول .

ولاننسى دور العلامة المشهور ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي الذي كان سببا في قدوم السلطان أحمد شاه لجهاد الكفار ، حيث كان يعلم بأنه هو الذي يستطيع التغلب عليهم .

* * *

(١) المختار المصون / ١٣٥٦ - ١٣٥٨ ، عن « الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام ».

الأمويون والعباسيون والعثمانيون
والدويلات المستقلة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعـوة للطبـع والنشـر والتـوزيـع

١ شـــارع منشـــا - محـــرم بـك - الإســـكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضـــراء للنشـر والتـوزيـع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف/ فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

(١٤)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الثاني

دكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

بجامعة أم القرى

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء

للنشر والتوزيع

جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

فى

فتـــوح المغـــرب

١ - فتوحات عبد الله بن سعد -

كانت الفتوحات في أفريقية قد توقفت في عهد عمر رضي الله عنه بعد فتح مصر حيث لم يأذن لعمرو بن العاص رضي الله عنه بالتوغل بجيوش المسلمين قبل رسوخ حكمهم وقوتهم في مصر، واكتفى عمرو بتأمين حدود مصر من الناحية الغربية حيث فتح برقة وزويله من بلاد ليبيا والنوبة من بلاد السودان بقيادة عقبة بن نافع الفهري .

ولما تولى الخلافة عثمان رضي الله عنه ولَّى على مصر عبد الله ابن سعد بن أبي السرح وكان عبد الله مشاركا في فتوح مصر حيث كان على ميمنة جيش عمرو بن العاص وولاه عمر بن الخطاب على صعيد مصر مع عمرو بن العاص ، وكان عمرو يبعثه في بعض الغزوات فاكتسب خبرة واسعة بتلك البلاد ، فلما ولاه عثمان على مصر وماوراءها استأذنه في غزو أفريقيا من ناحية الغرب فاستشار عثمان أهل الشورى من أصحاب رسول الله ﷺ فأشار أكثرهم عليه بالإقدام على ذلك ، وقد سار عبد الله بن سعد بجيش قوامه عشرون ألفًا وانضم إليه عقبة بن نافع الذي كان مرابطا في ليبيا ، وجرت الموقعة الكبرى بين المسلمين والروم ومن معهم من البربر وكان الروم بقيادة جرجير ، وانتصر المسلمون عليهم كما تقدم .

واستمر عبد الله بن سعد في غزواته وفتوحه حتى أتم فتح المغرب

الأدنى [تونس] إلى أن توقف الجهاد بسبب الفتنة الكبرى التي كان فيها قتل عثمان رضي الله عنه [1] .

* * *

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٤ ، النجوم الزاهرة لابن تَغْـرى بَرْدي ١/ ٧٩ وانظر قادة فتح المغرب العربي لمحمود شيت خطاب ١/ ٥٤ .

٢ - فتوحات معاوية بن حُدَيج

كان أحـد القادة في فـتوح أفـريقيا مـعاوية بن حُـدَيج السكوني الكندي الذي اتخـذ مقـرا للمسلمين في تونس وثبَّت وجـود المسلمين فيها، وذلك في عام أربعة وثلاثين للهجرة، ثم فتح مدينة بنزرت عام واحد وأربعين .

قال ابن عـذاري : وفي سنة ٤٥ غزا مُـعاوية بن حـديج الكندي إفريقية ، وكانت حربًا كلَّها . قال الطبري : وذلك أن حُباحبة الرومي قدم على مـعاوية بن أبي سفيـان ، فسأله أن يبـعث معه جيـشًا إلى أفريقية، فوجَّه مُعاوية بن حُـدَيج في عشرة آلاف مقاتل . فسار حتى انتهى إلى الإسكندرية، فاستعمل عليـها حباحبة الرومي . ومضى ابن حديج حتى دخل أفريقية . وكان مـعه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن أبيه وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه ! وعبـد الملك بن مـروان ويحيى بن الحكم بن العـاص ، وغيـرهم من أشراف قريش فبعث ملك الروم إلى أفريقـية بطريقًا يقال له نجفور في ثلاثين ألف مقاتل فنزل الساحل فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله ابن الزبير في خيل كـثيفة ، فسار حـتى نزل على شرف عال ، ينظر منه إلى البحر، بينه وبين مدينة سوسـة اثنا عشر ميلا ، فلما بلغ ذلك نجفورًا، أقلع في البحر ، منهزمًا من غير قتال . فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسـة ، فوقف على البحـر ، وصلى بالمسلمين صلاة العصـر ، والروم يتعجـبون من جُرءته ، فأخـرجوا إليه خـيلاً ، وابن الزبير مُقـبلٌ على صلاته، لايهولُه خبرُها ، حـتى قضى الصلاة ، ثم

ركب ، وحمل على الروم بمن معه ، فانكشفوا منهزمين ، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القَرْن (١) .

وهكذا رأينا ذلك الزعيم الأفريقي يـأتي إلى أمير المؤمنين ويطلب منه توجيه جـيش لفتح أفريقية وتخليـصها من ظلم الروم ، وهذا أثر من آثار العدالة الإسلامية ، والمعـاملة الكريمة التي عامل بها المسلمون أبناء البلاد التي فتحوها ، فصار أعداؤهم الذين غزوهم عونا لهم على عدوهم المشترك ، دولة الروم ، وماكان هناك من سبب لتفضيل حماية المسلمين إلا ماكانوا يتمتعون به من العدالة والأمانة والوفاء .

وفي هذا الخـبر موقف لعـبد الله بن الزبـير رضي الله عنهـما ، حـيث لم يفزع من مـجيء جيش الروم وهو يصلي بالناس ، بل أتم صلاته بطمأنينة ، وهذا دليل على شجاعته وقوة خشوعه وحضور قلبه مع الله تعالى ، وقد اشتهر بأداء الصلاة الكاملة .

وقد أصيب الروم بالرعب والذهول من هذا المشهد الغريب، وكان ذلك من أسـباب انهـزامهم حـينما حـمل عليـهم ابن الزبير بالجـيش الإسلامي .

وأخرج ابن عبد الحكم من خبر عثمان بن صالح قال : فانتهى - يعني معـاوية بن حديج - إلى قونيـة وهي موضع مدينة قـيروان، ثم مضى إلى جـبل يقال له : القرن ، يعـسكر إلى جانبه ، وبعث عـبد الملك بن مروان إلى مدينة يقال لها : جلولاء في ألف رجل فحاصرها

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/١٦ ، وجبل القرن في تونس وجوله انشأ معاوية بن حديج مدينة القيروان .

أياما ، فلم يصنع شيئًا فانصرف راجعا ، فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى في ساقة الناس غبارا شديدًا ، فظن أن العدو قد طلبهم فكرَّ جماعة من الناس لذلك ، وبقي من بقي على مصافهم ، وتسرع سرعان الناس، فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون وغنموا مافيها . وانصرف عبد الملك إلى معاوية ابن حديج ، فاختلف الناس في الغنيمة فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان . فكتب أن العسكر ردء للسرية ، فقسم ذلك بينهم ، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار، وضرب للفرس بسهمين ، ولصاحبه بسهم ، قال عبد الملك: فأخذت لفرسي ولنفسي ستمائة دينار، واشتريت بها جارية[1] .

ولم تقتصر جهود معاوية بن حديج على الغزو البَرِّي فقد وجه حملة بحرية بقيادة عبد الله بن قيس إلى جزيرة صقلية ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : وأغزى معاوية بن حديج جيشا في البحر إلى صقليه في مائتي مركب فسبَوا وغنموا ، وأقاموا شهرا ثم انصرفوا إلى أفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر ، فاقتسموا فيئهم، وبعث ابن حديج بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان [2] .

* * *

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ١٣١ - ١٣٢ ، وانظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/١٨ .

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/١٦ - ١٧ .

٣ - فتوحات عقبة بن نافع الأولى -

أما الرجل الذي اقترن باسمه فتح بلاد المغرب ونال في ذلك شهرة واسعة فهو عقبة بن نافع الفهري القرشي ، وهو من مواليد العهد النبوي واختلف في صحبته ، وقال ابن الأثير : لاتصح له صحبة[1] .

وقد بدأ جهاده في فتوح مصر مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، واكتسب خبرة حربية عالية من صحبته لعمرو الذي كان يُعِدُّه للمهمات الحربية .

وقد بعثه عمرو على رأس جيش من المسلمين إلى « زويلة» وذلك في سنة إحدى وعشرين ، فأصبح مابين برقة وزويلة من بلاد ليبيا سلمًا للمسلمين .

وفي هذه السنة بعثه عمرو إلى بلاد النوبة جنوب مصر ، فالتقى المسلمون مع أهلها في قتال شديد ، ثم انصرف عقبة عنهم ، وبذلك كان أول من مهَّد لفتح بلاد النوبة من المسلمين .

كما أنه شارك في بعض غزوات أفريقيا تحت إمرة عبد الله بن سعد بن أبي السرح .

ومما يُذكر له رباطه مع جيشه في برقة عدة سنوات لحماية دولة الإسلام من الغرب ، وأصبحت تلك البلاد قاعدة لفتح البلاد الأفريقية ، وقد قام آنذاك بعدة غزوات بَرِّية وبحرية لتأمين البلاد وتأديب بعض المتمردين الذين ينقضون العهد [2] .

(١) أسد الغابة ٣/ ٤٣٠ .

(٢) انظر قادة فتح المغرب العربي ٩٤ - ٩٥ .

مغامرات في جوف الصحراء :

من غزوات عقبة بن نافع المشيرة ماقام به من الغارة على بعض بلدان الصحراء الكبرى ، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن عبد الحكم فيما رواه عن الليث بن سعد : ثم خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج عقبة بن نافع الفهري سنة ست وأربعين ، ومعه بسر بن أبي أرطاة ، وشريك بن سمى المرادي ، فأقبل حتى نزل بمغمداش من سِرْت قال : ويبلغه أن أهل ودَّان قد نقضوا عهدهم ، ومنعوا ماكان بسر بن أبي أرطأة فرض عليهم . وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بُسرًا قبل ذلك ، وهو محاصر لأهل طرابلس فافتتحها . فخلف عقبة بن نافع جيشه هنالك واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي . ثم سار بنفسه وبمن خلف معه أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قربة . حتى قدم ودان فافتتحها . وأخذ ملكهم فجدع أذنه . فقال : لِمَ فعلت هذا بي وقد عاهدتني ؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدبا لك ، إذا مسست أذنك ذكرته ، فلم تحارب العرب .

قال : ثم سألهم عقبة : هل من ورائكم أحد؟ فقيل له : جَرْمه . وهي مدينة فزَّان العظمى . فسار إليها ثماني ليال من ودان . فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا فنزل منها على ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة . وأرسل عقبة خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلا حتى أتى عقبة وقد لغب . وكان ناعما فجعل يبصق الدم . فقال له : لِمَ فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا ؟ فقال عقبة : أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب .

قـال: ثم مضى على جـهتـه من فوره ذلك إلى قـصور فـزان، فافتـتحها قـصرا قصرا ، حـتى انتهى إلى أقصاها ، فـسألهم هل من ورائكم أحد ؟ قالوا : نعم . أهل خاوار، وهو قصر عظيم على رأس المفازة ، في وعورة على ظهـر جبل، وهو قصبة كوار ، فـسار إليهم خمس عـشرة ليلة ، فلما انـتهى تحصنوا . فـحاصرهم شـهرا. فلم يستطع لهم شـيئًا . فمضى أمـامه على قصور كوار فـافتتحـها، حتى انتهى إلى أقصاها ، وفيه ملكها ، فـأخذه فقطع أصبعه . فقال : لم فعلت هذا بي ؟ قال : أدبا لك إذ أنت نظرت إلى أصبعك لم تحارب العرب .

قال : فـسألهم هل من ورائكم أحد ؟ فـقال الدليل: ليس عندي بذلك معرفة ولادلالة . فـانصرف عقبة راجعا ، فمـر بقصر خاوار ، فلم يعرض له ، ولم ينزل بهم ، وسار ثلاثة أيام . فـأمنوا ، وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكان اسـمه اليوم ماء فرس، ولم يكن به ماء، فأصابهم عطش شـديد أشفى منه عقبة وأصـحابه على الموت، فصلى عقبة ركعتين . ودعا الله . وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كـشف عن صفاة فانفـجر منها الماء ، فجـعل الفرس يمص ذلك الماء ، فأبصـره عقبـة ، فنادى في الناس أن احتفـروا فحفروا سـبعين حسيا، فـشربوا واستقوا فسمى لذلك ماء فـرس . ثم رجع عقبة إلى خاوار ، من غـير طريقـه التي كان أقبل منهـا، فلم يشعـروا به حتى طرقهم ليلا ، فوجـدهم مطمئنين . قد تمهدوا في أسرابهم. فـاستباح ما في المدينة من ذرياتهم ، وأموالهم ، وقتل مـقاتلتهم . ثم انصرف

راجعا ، فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر ، وقد جمّت خيولهم وظهرهم ، فسار متوجها إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض مزاتة ، فافتتح كل قصر بها ثم مضى إلى . . . فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلا إلى غدامس ، فافتتحت غدامس ، فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة ، فافتتحها وافتتح قصطيلية (١) .

وهكذا كان عقبة على رأس هذه الحملة المغامرة وكان بإمكانه أن يبعث قائدًا غيره وأن يبقى مع جيشه في أمان ، ولكنه كان من قوم يتسابقون إلى المعالي ، وتكون ساعات الأنس والراحة عندهم بين صليل السيوف وصهيل الخيول وقطع الفيافي ، فهو لا يبرُّ غيره بعمل تهواه نفسه وينتظر من ورائه رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

أما مسوغ هذه المغامرة بهذا العدد القليل فهو كون الجيش الخفيف أسرع تحركا في الصحراء ، ولكون البلاد الصحراوية تخلو عادة من التجمعات الكبيرة ، ويصعب الإمداد فيها لبعد المسافات .

وهكذا كان عقبة بن نافع ناجحا في تخطيطه الحربي كما كان ناجحا في سياسته الإدارية ، وإن أهم عوامل نجاحه قربه من الله تعالى واعتماده عليه في تفريج الكربات وتذليل الصعوبات .

إنشاء مدينة القيروان :

لما انتهى عقبة بن نافع من غزواته المذكورة أراد أن يتخذ للمسلمين مكانا يستقرون فيه لايشركهم فيه غيرهم ، ليكون أمانا لهم ،

---

(١) فتوح مصر و أخبارها / ١٣٢ - ١٣٣ باختصار .

ولينطلقــوا منه في أعمــالهم الجــهادية ، وفي ذلك يقــول إبراهيم بن القاسم فــيما ذكــره ابن عذاري : ووصل عقــبة بن نافع الفــهري إلى أفريقية في عــشرة آلاف من المسلمين ، فافتتحــها ، ودخلها، ووضع السـيف في أهلهـا ، فـأفنَى من بهـا من النصــارى . ثم قــال : إن أفريقية، إذا دخلها إمامٌ ، أجـابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ! فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتَّخذوا بها مدينة تكون عِــزًّا للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناسُ على ذلك ، وأن يكون أهلهــا مرابطين ، وقــالوا : نقرُب من البــحر ليتم لها الجهاد والرباط ، فقال عُــقبة : إني أخاف أن يطرُقها صاحبُ القسطنطينية بغتــةً فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحــر مالا يُدركها صاحبُ البحر إلا وقد عُلم به ، وإذا كان بينها وبين البحر مالايُوجب فيه التقصيرَ للصلاة[1] ، فهم مرابــطون ، فلما اتفق رأيهم على ذلك قال: قربوها من السَّبْخة فإن دوابكم الإبل، وهي التي تحمل أثقالكم، فإذا فَرَغْنَا منها لم يكن لنا بُدٌّ من الغــزو والجهاد ، حتى يفتح الله لنا منها الأوَّل فالأوَّل ، وتكــون إبلُنا على باب قصرنا في مَراعــيها، آمنةً من عادية البربر والنصارى .

قال : وفي سنة إحدى وخــمسين شرع عُقبــة في ابتداء بناء مدينة القَيْرَوان ، وأجابه العرَب إلى ذلك . ثم قالوا : إنك أمَرْتَنا بالبناء في شعار وغياض [٢] لاتُرام . ونحن نخــاف من السباع والحــيَّات وغــير

---

(١) يعني أن تكون أدنى من المسافة التي تقصر فيها الصلاة .

(١) الشعار الشجر الملتف ، والغياض الأراضي التي يجتمع فيها الماء فينبت فيها الشجر.

ذلك! وكان في عسكره ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وسائرهم من التابعين . فدعا الله - سبحانه - وأصحابه يؤمنون على دُعائه ، ومضى إلى السبخة وواديها ، ونادى : أيتها الحيَّات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ . فارحلوا عنَّا فإنَّا نازلون ومن وجدناه بعد هذا قتلناهُ ، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجِب، من أنَّ السباع تخرج من الشّعْرَاء [1] وهي تحمل أشبالها سمعًا وطاعةً ، والذئب يحمل جِرْوَه، والحيَّة تحمل أولادها . ونادى في الناس : كُفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها ، فخرج مافيها من الوحش والسباع والهوامّ والناسُ ينظرون إليها ، حتى أوجعهم حرُّ الشمس ، فلمَّا لم يروا منها شيئًا، دخلوا ، فأمرهم أن يقطعوا الشجر ، فأقام أهل أفريقية بعد ذلك أربعين عامًا لايرون بها حيَّةً ، ولاعَقْرَبًا ، ولاسَبُعًا. قال : فاختطَّ عُقبة أوَّلا دار الإمارة ، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطَّه، ولم يُحدث فيه بناء . وكان يصلي فيه وهو كذلك فاختلف الناس عليه في القبلة وقالوا : إن جميع أهل المغرب يضعون قِبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها ، فأقاموا أيَّامًا ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس ، فلمَّا رأى أمرهم قد اختلف بات مغمومًا، فدعا الله - عز وجل - أن يُفَرِج عنه . فأتاه آت في منامه فقال له : إذا أصبحتَ فخذ اللواء في يدك، واجعله على عُنُقك . فإنك تسمع بين يديك تكبيرًا لايسمعه أحدٌ من المسلمين غيرك . فانظُر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا

---

(١) أي من الشجر .

المسجد وهذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه ، ويذلُ بهـا من كفر به، فاستيقظ من منامه وهو جـزعٌ ، فتوضأ للصلاة وأخذ يصلي وهو في المسجد ومـعه أشرافُ الناس ، فلما انفجر الصـبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بـالتكبير بين يديه، فـقال لمن حوله : أتسمـعون ماأسمع؟ فقالوا: لا ، فعلم أنَّ الأمر من عند الله فأخذ اللواء فوضعه على عنُقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير فـركز لواءه ، وقال : هذا محـرابكم فاقتدى به سائر مـساجد المدينة .

ثم أخذ الناس في بناء الدُّور والمسـاكن والمساجد وعمـرت، وشد الناسُ إليها المطايا من كل أفُق وعظم قدرها . وكان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع وستمائة ذراع حتى كمل أمرُها .

وكان عقبة خير والٍ وخَيْرَ أميرٍ ، مُسْتجَاب الدعوة [١] .

وإننا أمام هذا الخبر نلاحظ عدداً من المواقف والعبر، فمن ذلك:

أولا : أن عقبـة بن نافع - رحمه الله تعالـى - قد أصاب الرأي السديد حينما اتخذ مكانا آمنا يكون مأوى للمجاهدين المرابطين، ومن تحت حراستهم من الذراري والمتاع .

وفي الاحتـياطات الأمنية التي ذكـرها في مسـوغ إبعاد المكان عن البحر دلالة على عـمق إدراكه الحربي، وتخطيطه لمواجهـة العدو حتى لايؤخذ المسلمون على غرَّة .

---

(١) البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/١٩ - ٢١ .

وانظر تاريخ الطبـري ٥/ ٢٤٠ ، والكامل لابن الأثيـر ٣/ ٢٣٠ وفـتـوح مصـر لابن عبدالحكم / ١٣٣ .

وفي حرص بعض أفـراد ذلك الجيش على القرب من البـحر مع خطورة ذلك دلالة على صدق إيمانهم وقوة تقواهم حيث كانوا يرجون ثواب المرابطين على البحر لمواجهته المباشرة للعدو .

ولكن القائد الذي يشـعر بمسئوليتـه عمن تحت ولايته كمـا يشعر بمسئوليته عن مستـقبل الإسلام ودولته لايندفع مع حماس بعض أقوياء الإيمان ، بل ينظر لمواضع خَطْوِه ونتـائج عملـه قبل الإقـدام ، وكون طائفة من الجيش يقبلهم الله تعالى شهداء عنده خير كبير لهم ، وهذا من أزكى مايتنافس فيه السـابقون ، ولكن يجب على القائد قبل ذلك أن ينظر إلى الأمور التي تقوِّي دولة الإسلام وتُظهر عزَّة المسلمين، في الوقت الذي يحرص فـيه على كـيد الكفار والنكـاية بهم، وحيث إن استـشـهـاد طائفة مـن المسلمين يضـعف من شأنهـم ويقوي جـانب أعدائهم، ويجـرِّؤهم على المسلمين فإن قصـد الشهادة وإن كان نبـيلاً لايجوز للقادة أن يتخذوه هدفا لهم ، ولكن إذا وقع ضرورةً فإن من واجب القادة أن يغتنموه في رفع مـعنويات الجنود ودفعهم إلى النكاية بالأعداء .

ومع هذه الملاحظة المهـمة فـإننا نجد عـقبة لايـكسر مافـي نفوس هؤلاء المتحـمسين من هذه الرغـبة السامـية نحو الحـصول على ثواب المرابطين في نحر العـدو ، بل يجمع لهم بين الأمـرين : اتخاذ المكان الآمن من مفاجآت العدو ، مع قربه من البـحر إلى الحد الذي لايعتبر مسافة قصر ،وهذا يجعلهم جميعًا من المرابطين في سبيل الله تعالى .

وإن هذا التصرف الحكيم يعطينا فكرة عما كـان يتمتع به عقبة من

بُعد النظر ، مع الإبقاء على معنوية أفراد الجيش ، والحفاظ على بروز شخصيتهم ، حتى يكون عطاؤهم في الجهاد مفتوحا، لاتحده العوائق، ولاتضعفه المثبطات .

ثانيًا : فيه عبرة بليغة فيما حدث من عقبة حينما نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغادرت ذلك المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أولياءه لما يريد بهم من نصر الإسلام ونشره في الأرض ، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة وأوقع في قلوبها الخوف منه ، وقدَّر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك .

وقد رأى ذلك قَبِيلٌ كثير من البربر فأسلموا ، كما ذكر ابن الأثير في روايته [1] .

هذا وقد حمل بعض المحققين هذا الخبر على أنه من الأساطير التي نسجها الرواة حول عقبة، وعللوا هذا الخبر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضجيج الجيش الإسلامي فحملت أولادها وولَّت هاربة .

وهذا التأويل من عجائب بعض المحققين حيث يُغفِلون تفكيرهم الصحيح من أجل ردِّ مالايؤمن به العقل المجرد ، كماأنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة ، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة في حياة الناس إلى مايشبه الأساطير ، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذي

---

(١) الكامل ٣/ ٢٣٠ .

اعتمدوه لاينسجم مع العقل السليم ، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفزع تأوي إلى جحورها الآمنة لتستخفي بها ولاتلجأ إلى الهرب حتى لاتتعرض للأذى مما فزعت منه ،ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادي وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك مايدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذي حملهم على الدخول في الإسلام من أجل ذلك ، ولم يكن في ذلك مايحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة .

وقد جاء في إحدى روايات ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثني زياد بن العجلان : أن أهل أفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمِسَتْ حية أو عقرب بألف دينار ماوُجدت .

ثالثًا : عبرة أخرى في تلك الرؤيا التي رآها عقبة بن نافع في أمر تحديد القبلة وماتلا ذلك من سماعه التكبير الذي لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى لهذا الولي الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التي تظهر فيها الكرامات على أيدي أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه في تفريج همه وهموم المسلمين في هذا الأمر .

* * *

٣- فتوحات أبي المهاجر -

أبو المهـاجر هو دينار مـولى مسلمـة بن مُخَلَّد الأنصـاري، وكان معاوية بن أبي سفـيان قد ولَّى على مصر مسلمـة بن مخلد، وكان أبو المهاجر قد تعـلم من مسلمة كثيراً من أمـور الحرب والإدارة، ورأى فيه كفاءة فـولاه على أفريقية التي كانت تطلق عـلى البلاد التي تقع غرب مصر، وكـان مركزها القيـروان في تونس، وكان ذلك في عام خـمسة وخمسين للهجرة، وعَزَل عنها عقبةبن نافع الفهري بعد ولايته الأولى.

ومن مواقف أبي المهـاجر الجهـادية أنه قاد الجـيش الإسلامي إلى «قرطاجَنَّة » عاصمة الروم في شمال أفريقية [١]فحاصرها وتحصن الروم بأسوارها العاليـة ، فشدد عليهم أبو المهاجر الحـصار ، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قرطاجنة طلبوا الصلح، فصالحـهم أبو المهاجر على أن يُخلو له جـزيرة « شريك»[٢] التي كان الروم يتخذونها مركزاً لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين .

وقد أشاد اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصنيع من أبي المهاجر واعتبر ذلك تخطيطًا حربيًا عـاليا حيث كسب المسلمون موقعًا مهمًا يستطيعون من خلاله أن يراقبوا تحركات الروم [٣] .

---

(١) وهي مدينة قديمة على ساحل البحر الأبيض بينهـا وبين تونس اثنا عشر ميلا - معجم البلدان ٧/ ٥٢ - .

(٢) وهي واقعة بين سوسه وتونس كما في مَعـجم البلدان وذكر محمود شيت خطاب أنها شبه جزيرة .

(٣) قادة فتح المغرب ١/ ١٣٩ .

ومن مواقفه أنه أول من أقام مرابطًا بجيشه لمدة سنتين في مدينة «مَيْلة» بين المغرب الأدنى والأوسط ، وذلك بعد أن فتحها ، وكان القواد قبله يغيرون ويفتحون البلاد ثم يرجعون ، وقد قام بجهود طيبة خلال تلك المدة في نشر الإسلام بين البربر .

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة « أوْرْبَة » من البربر وكان زعيمها « كسيلة بن لمزم » وكان البربر يجلونه ويحبونه ، فلما رأى أبا المهاجر قد رابط في ميلة » علم أنه لابد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى ، فصار يجمع الجيوش لصد المسلمين فاجتمع له جيش من البربر والروم .

وسمع أبو المهاجر بجمعه فسار إليه في مكان عسكره بتلمسان والتقى الجيشان هناك ، ودارت بينهما معركة حامية، انتصر فيها المسلمون، وأُسِرَ كسيلة فحُمِل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملَة الملوك ، وأظهر كسيلة الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه [1] .

وفي هذا الخبر دلالة على نجاح أبي المهاجر في القيادة الحربية حتى استطاع التغلب على ذلك الخصم المطاع الذي اجتمع له الروم والبربر.

ثم إن فيه دلالة على اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام حيث اهتم بإسلام ذلك الزعيم البربري ، وبإسلامه يمكن أن ينجذب قومه إلى الإسلام ، كما أنه يدل على نجاحه في الدعوة حيث استخدم في ذلك الجانب الأخلاقي ، وذلك بحسن التعامل وإكرام الزعماء المتبوعين تألفًا لقلوبهم وقلوب أقوامهم .

(١) فتوح مصر / ١٣٣ - ١٣٤ ، قادة فتح المغرب ١/ ١٣٩ .

ومما يذكر لأبي المهاجر أنه أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط .

وبعد هذه الرحلة الناجحة في الدعوة والجهاد عاد أبو المهاجر إلى القيروان ولما تولى يزيـد بن معاوية الخلافة عـزل أبا المهاجر عن ولاية أفريقية وأعاد إليها عقبة بن نافع الـفهري ، وقام عقبة برحلته الجهادية الطويلة كما سيأتي .

وكان بصحبته أبو المهاجر ، وكان أبو المهاجر يسدي إليه النصائح القيمة في مجال الإدارة والحـرب بالرغم مما حدث بينهما من الجفوة، ومن أبرز هذه النصائح إشارته عليه بإكرام زعـيم البربر القوي كسيلة، ومـحاولة تأليـفـه ليبـقى على الإسلام وكـان قـد أسلم على يد أبي المهاجـر، ولكن عقبـة أهان ذلك الزعيم ، حيث أمـره يوما أن يسلخ شاة بين يديه ، فـدفعـها كسـيلة إلى غلمانه ، فـأراده عقـبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره ، فقام إليهـا كسيلة مغضبا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته ، وبلغ ذلك أباالمهـاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة الـعرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه ؟ توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه .

فتهـاون به عقبة ، فلمـا انصرف غزوه نكث البربر مـاكانوا عليه وأقبلت النُّفرة إلى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : عاجلْه قبل أن يجتمع أمره .

واغتنم كسيلة فرصة انفراد عقبة في بعض جيشه كما سيأتي فقال

عقبة لأبي المهاجر : الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا أغتنم الشهادة ، فقال أبو المهاجر : وأنا أغتنم الشهادة مثلك ، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا [1] .

ومن هذا الخبر يتبين لنا تفوق أبي المهاجر من ناحية السياسة والإدارة ، فإنه قد خاض معركة كبرى واحدة دوخ بها الروم والبربر، وخضع له البربر ، ودخل بعض زعمائهم في الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومهم في الإسلام ، ووفر أبو المهاجر بذلك جهوداً كبيرة لابد من بذلها في فتح بلاد المغرب لو بقي أولئك البربر على كفرهم .

ولاشك في أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه ، إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين .

ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بإسلام ، ولم يدخلوا فيه عن قناعة وإنما من باب الاستسلام والخضوع للأقوى .

ولم يكن وضع كسيلة في تظاهره بالإسلام خافيا على أبي

---

(١) قادة فتح المغرب١/ ١٣٧ - ١٤٢عن الاستقصاء ١/ ٧١ - ٧٢،رياض النفوس١ / ٢٦- ٢٧ وانظر النجوم الزاهرة ١/ ١٥٨ - ١٥٩ .

المهاجر، وإنما قبل منه ظاهر أمره واستبقاه في جيشه ليأمن شره، ثم لعل إسلامه الظاهري يتحول إلى إيمان باطني مع مخالطة المسلمين ومعاملتهم الكريمة، وكلام أبي المهاجر السابق يدل على ذلك حيث شبَّه كسيلة بجبابرة العرب الذين كان رسول الله ﷺ يتألفهم للإسلام، وحيث قال لعقبة بعدما جرى منه ماجرى: توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه .

ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقاءه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم .

وسيتبين لنا في مواقف فتوح السند المكاسب الكبيرة التي حصل عليها المسلمون من حسن تصرف محمد بن القاسم في معاملة زعماء تلك البلاد ، حيث أصبح من دخل منهم في الإسلام أو حالف المسلمين سندًا قويًا لجيش المسلمين .

ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة .

وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهدًا في تصرفه ولايظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته وإنما كان رائدهما النظر لمصلحةالإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أوفق إلى الصواب في هذه القضية. رحمهما الله وأجزل مثوبتهما.

* * *

٤ - فتوحات عقبة الثانية -

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزِل عقبة بن نافع عن ولاية أفريقية ، ثم أعيد إليها عام اثنين وستين فقام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها مايزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب .

خرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان واستخلف على من بقي زهير بن قيس البلوي ، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم : إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله- ثم قال - يابنيَّ أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولاتضيعوها : إياكم أن تملئوا صدوركم بالشِّعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب مايهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه ، وأوصيكم أن لاتُداينوا ولو لبستم العباء فإن الدَّين ذُلٌّ بالنهار وهمٌّ بالليل، فدعوه تَسلْمْ لكم أقداركم وأعراضكم وتَبْقَ لكم الحرمة في الناس مابقيتم ، ولاتقبلوا العلم من المغرورين المرخِّصين فيجِّهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولاتأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا . - ثم قال - : عليكم سلام الله وأُراكم لاترونني بعد يومكم هذا - ثم قال - : اللهم تقبَّل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك .

وهكذا ماأن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على

الخروج للجهاد غير هياب ولامتردد ، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهُيامه به قوله في وصيته لأولاده « إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله » ، فهو قد باع نفسه من الله عز وجل ، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [**التوبة** : ١١١] .

فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد ، ونصب أمام عينيه الهدف السامي ، وهو إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض .

وكأن السنوات الثمان التي حيل فيها بينه وبين الجهاد كانت سجنا طويل الليالي عظيم الأثقال . . حتى إذا أُفرج عنه وصارت إليه القيادة سارع إلى حشد القوى والخروج في سبيل الله تعالى .

فماذا سننتظر من رجل قيادي وجهادي من الدرجة الأولى وقد مُكِّن من ممارسته هوايته العظمى بعد الحبس الطويل ؟ إنه سيسخِّر كل طاقاته التي وهبها الله له من أجل بلوغ غايته السامية .

ولقد وُفق عقبة بجنود يحبون فيه روح المغامرة والجهاد المتواصل، فبذلوا من طاقاتهم مايُرضي طموحه وشوقه إلى الإنجاز السريع والعطاء المثمر .

وإننا لنجد في وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليله ، فقد أوصاهم بثلاث وصايا :

الوصيـة الأولى : الاهتمام بانتقـاء العلم واختيار أطيـبه ، وذلك بالاهتمام أولاً بالقـرآن الكريم ، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل ، وماأبلغه من وصف يهـدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسـعى إليه كل مـؤمن ، وهو ابتـغاء رضـوان الله تعالى ونعـيمـه ، ولاشك أن سنة رسول الله ﷺ ممـا يدخل في مقاصـد القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [**الحشر** : ٧] .

ثم انتقـاء الطيب من كلام العـرب الذي يرشد إليه العـقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق .

الوصيـة الثانية : البـعد عن الاستـدانة ولو دفع إليها الفـقر لأن الدَّين ذلٌّ بالنهـار حيث يدفع المسـتـدينَ إلى بعض مواقف الذل أمـام الدائن ومن لهم علاقة به ، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه .

الوصية الثالثة : التحـري في تلقي العلم ، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتـقوى ، والبـعـد عن العلماء المغـرورين أهل الدنيا والجاه ، فإنهم يزيـدون المتعلم جهلا حيث يبعدونه عن حـقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل .

ونجد عقبة في نهاية وصـيته لأولاده يسلِّم عليهم سلام المودع، مما يدل على استـماتته في سـبيل الله تعالى ، ثم يقـول : « اللهم تقبَّل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك » .

وبهذا الاهتمام الكبـير نجح عقبة بن نافع رحمـه الله في فتوحاته

حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة .

وقد سار عقبة في جيش عظيم حتى انتهى إلى مدينة « باغاية» لايدفعه أحد ، والروم يهربون من طريقه يمينا وشمالا ، فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالا شديدًا ، فانهزموا عنه وقَتل فيهم قتلا ذريعًا ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكره المقام عليهم .

ورحل عقبة فنزل على «تلمسان» وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من البربر والروم ، فخرجوا إليه في جيش ضخم، والتحم القتال ، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن الله منَّ عليهم بالصبر ، فكانوا في ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجومًا عنيفًا حتى ألجئوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة .

واستمر عقبة في سيره نحو المغرب الأقصى حتى وصل بلاد الزّاب فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب فقيل له «أَرَبَه» وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة ، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال ، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم.

ورحل عقبة إلى« تاهرت » فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم .

وقام عقبة في الناس خطيبًا فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ، وأنتم اليوم في دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازاً لدينه ، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ،وربكم عز وجل لايُسلمكم ، فالْقَوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لايُردّ عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لايرد بأسه عن القوم المجرمين .

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضي الله عنه قد اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة . . ألا وهو التوكل على الله تعالى ، واستحضار عظمته وجلاله ، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد ، فهو لايبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت ، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيدًا من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه ، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين .

وماأعظم شَبَه عقبة بخالد بن الوليد رضي الله عنه ، الذي كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم - من غير غرور ولااستهانة- كلّما

تضخَّم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذه له قدوة في القيادة والإقدام الذي لايعرف التردد والسآمة .

وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلَّط على أعدائه الكفار ، والله تعالى لايُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين .

إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجَّه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به .

ولقد مرت علينا في معركة الأحزاب ومؤتة واليرموك وغيرها أمثلة رائعة لارتفاع نسبة اليقين لدى الصحابة رضي الله عنهم، إلى الحد الذي أصبحوا يشعرون فيه بقوة ارتباطهم بالله تعالى وعمق توكلهم عليه ورجائهم لنصره وتأييده ، حيث تضخم في حسهم وشعورهم هذا السلاح المعنوي الفعال ، وأصبح السلاح المادي أمرًا ثانويًا مكملا .

ولفرط إحساسهم بفعالية هذا السلاح المعنوي ، وقوة إدراكهم لضرورته فإنهم كانوا شديدي الحساسية من مخالفة أوامر الله تعالى، يحاسبون أنفسهم حسابا شديداً ، وينكرون على الغافلين الذين لايتنبهون لأهمية ذلك ، و يأخذهم قادتهم غالبا بالحزم والمتابعة المتواصلة في هذا المجال .

والتقَى المسلمون بأعدائهم في مدينة « تاهرت» وقاتلوهم قتالا شديداً ، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا

أخيرا ، وانهــزم أعداؤهــم من الروم والبربر ، وقُتل منهم عدد كـبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم .

وهكذا نصر الله تعـالى المسلمين في هذه المعركـة وماسبقـها من معارك مع عدم التكافئ في العدد والقـوى مع أعدائهم لتفوق المسلمين في السلاح المعنوي إلـى حد لايمكن أن تُجرى فـيه نسبـة مع الأعداء لخواء الأعداء من ذلك السلاح .

ومازال عقــبة يسير من نصــر إلى نصر رغم قوة أعدائه وكـثرتهم وكونه في بلادهم مع بعــده عن قاعدته « القيـروان » حتى وصل إلى المحيـط الأطلسي فقـال : « يارب لولا هذا البحـر لمضيت في الـبلاد مجاهدا في سـبيلك » ثم قال : اللهم اشْهَدْ أني قـد بلغت الجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لايُعبد أحد من دونك » .

ثم وقف ساعة ، ثم قـال لأصحابه : ارفعوا أيـديكم ، ففعلوا، فقال: اللهم إني لم أخرج بطرًا ولاأشرًا وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولايُشرك بك شيء ، اللهم إنا مـعاندون لدين الكفـر ، ومدافـعون عن دين الإسـلام ، فكن لنا ولاتكن علينا ياذا الجلال والإكرام ، ثم انصرف راجعا [1] .

وهكذا نجد عـقبـة بن نافع القائد المجاهد ، وقـد عشنا مـعه في مغامـراته وتنقلاته السريعـة التي قطع بها أكثر من ألف مـيل وخاض

(١) الكامل لابن الأثيـر ٣٠٨/٣ - ٣٠٩ ، البيـان المُغرب لابن عـذاري ٢٣/١ - ٢٧، قادة فتح المغرب العربي للواء الركن محمود شيت خطاب ١٠٨/١ -- ١٢٠ .

عددًا من المعارك الضارية كان النصر فيهـا حليفه ، حيث استمر يفتح البلاد ويُرهب الكفار ويظهر عزة الإسـلام ، ويحرر عقول الناس حتى يفهموا دعوة الإسلام .

وندرك من قوله المذكـور مدى هُيامه بالجـهاد وشعوره بالمسـئولية الكبـرى التي حملهـا على عـاتقه نحـو تبليغ الإسـلام وتقوية دولتـه والقضاء على دُول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها .

فهـو يقف على البحر المحـيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعـمور من الأرض من ناحية المغرب ، ثم نجده يُشـهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته ، وهذه الشهـادة تُشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعـالى ، وأنه لم يكن يسير خـطوة إلا وهو يستلهم التـوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه .

وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهـاد عند عقبة حيث بيَّن أن الحد الـذي يقف عنده الجهاد ، أن يـزول الشرك من الأرض، وأن لايُعبد إلا الله جل وعلا وحده ، ومادام الشـرك قائمًا فإن الجهاد لابد أن يكون موجودًا ، فالجهاد إذًا هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيـان البشري وإخضاع دول العـالم لحكم الإسلام كي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسرًا لكل الناس .

نهاية عقبة بن نافع :

قفل عقبة بن نافع من رحلته الطويلة في الغزو راجعا إلى القيروان من المغرب الأقـصى،ولما صار قريبـا من منطقة القيـروان أرسل غالب جـيـشـه علـى أفـواج إلى القـيـروان،وبقي هـو على رأس الفـوج

الأخير، ومعه مايقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين.

وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش ، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائمًا ، وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوبا لدى أفراد جيشه بحيث لايعصون له أمرًا ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد والإداري في أي عمل يتوجه إليه .

ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه ، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم ، فتآمروا عليه مع كسيلة البربري فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعًا لاقِبَلَ لهم به .

وفي هذا الوقت الذي أدرك فيه عقبة حصول الشهادة له ولجنده تظهر البطولات الكبيرة ، والتطبيق الحيّ لتوجيهات الإسلام العالية نحو التضحية وفداء الإسلام بالنفوس .

فقد كان بإمكان عقبة أن يتسلل مع رفقة قليلة من جيشه ليلحق بجيشه الكبير في القيروان، ولكنه آثر بهذه الفرصة أبا المهاجر الذي كان واليًا على أفريقية في الوقت الذي عُزل فيه عقبة عن الولاية، وكان عقبة قد اصطحبه معه في تلك الغزوات فلما شاهد عقبة الموقف الذي يغلب على الظن فيه استئصال المسلمين بالكامل قال لأبي المهاجر: « الْحَقْ بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا اغتنم الشهادة » .

وعقبة بهذا الكلام قد لاحظ أمرين مهمَّين عنده : أولهما أن يولي

على المسلمين في القيروان من يقوم بشئونهم ، وقد رأى أن أولى الناس بذلك أبا المهاجر ، والأمر الثاني اغتنام فرصة الشهادة التي طالما انتظرها ببالغ الشوق، وقد لاحت له بوادرها في ذلك اليوم .

ولكن أبا المهاجر يرد عليه بقوله : « وأنا أيضًا أريد الشهادة » .

وهكذا كان أبو المهاجر نموذجًا آخر من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا ، واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى .

ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ، ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى إستشهدوا جميعًا في بلاد « تهوذة» من أرض الزاب .

ويَذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها (١) .

إنه موقف عظيم من مواقف الثبات ، ومفخرة كبرى يعتز بها المسلمون ، حيث لايوجد في تاريخ أعدائهم أن جيشا بأكمله يثبت في القتال حتى يُقتل جميع أفراده ، إذ أن المشكلة الكبرى التي يواجهها قادة الأعداء ويضعون لها الحلول المتعددة هي لجوء أكثرهم إلى الفرار حينما تميل الكفة لصالح المسلمين كما مر علينا في مواقف كثيرة .

ولاشك أن هذا الموقف العالي من الثبات قد برهن للأعداء عن صدق المسلمين في دينهم ، وعلو مستواهم في الثبات والصبر، وذلك

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٣٠٩ ، البيان المُغرب ١/٢٨ ، قادة فتح المغرب العربي ٢/١١١ .

يجعلهم يترددون في مواجهتهم فيما لو كان عددهم أكبر من ذلك .

وإن مما هو مقـرر في نظام الحروب أن المقاتل المستـقتل الذي يريد الموت لايُقتل حتى يَقـتل عدداً من الأعداء على قدر شجاعـته وقوته، لأن طاقته الكاملة موجهة للإثخان في العدو ، بحيث يلغي من حسابه الدفاع عن النفس ،وهذا يدلنا على أن هؤلاء الثلاثمائة تقريبا قد قتلوا أضعافـهم من الأعداء في تلك المعركة، ولكن الأعداء كـانوا مصرِّين على القضاء عليهم لما يتوقعونه من المكاسب الكبيرة لهم في ذلك.

ولقد كان استـشهاد عقبة بن نافع ومن مـعه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حـدود أربع وستين سنة ، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض تلك المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره .

وهكذا استُشهد هذا القائد العـظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عامـا قضاها في فـتوح شمال أفـريقيا ،ابتـداء بمصر وانتهـاء بالمغرب الأقصى .

وكان قـائداً بارعًا وإداريًـا ناجحًا ، اسـتطاع بأخـلاقه وحكمـته وحزمه أن يكسب قلوب أتباعه وأن يُوجههم توجيهًا سليما نحو الجهاد وإعزاز الإسلام .

* * *

٥ - فتوحات زهير البلوي -

لما تم لكسيلة البربري القضاء على عـقبة بن نافع ومن معه زحف بجيشه على القـيروان ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : وفي سنة أربع وسـتين دخل كُسَيلة البُرْنُسي مـدينة القـيروان، وانتـزعهـا من أيدي المسلمين في مـحرم ، وذلك أنه اجـتمع مـعه جـميع أهل المـغرب ، وزحف إلى القيروان ، فعظم البلاء على المسلمين. فقام زُهَير بن قيس خطيبا في الناس، فقال : « يامعشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد منّ الله عليهم بالشهادة فـاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك ، فقـال حنشٌ الصنعاني : لا والله مانقـبل قولك، ولالك علينا ولايةٌ ولاعَمَلٌ أفـضل من النجاة بهذه العـصابة من المسلمين إلى مشـرقهم ، ثم قال : « يامـعشر المسلمين من أراد منكم القـفول إلى مشـرقه فليتـبعني ، فاتبـعه الناس ،ولم يبق مع زهير إلا أهل بيـته، فنهض في أثره ولحق بقصره ببرقة،فأقام بها مُرابطا إلى دولة عبد الملك ابن مروان .

وأقبل كسيلة البُرنُسي بعسـاكره . فلما قرب من القيروان ، خرج من كان فيها هاربين ،إذ لم يكن لهم طاقةٌ بقتاله لعظيم مااجتمع عنده من البربر والروم.فـأمَّن كسيلة من بقي بالقيـروان من المسلمين،وأقام بالقيروان أميرًا على سائر أفريقية والمغرب،وعلى من فيه من المسلمين، إلى أن وُلّي الخلافة عبد الملك بن مروان .

قال : وفـي سنة خمس وسـتين من الهجـرة وُلِّي عبـد الملك بن مروان . فلمَّا اشتدَّ سلطانه واجتمع أكابر المسلمين عليه سألوه تخليص

أفريقــية ومن بهــا من المسلمين من يد كســيلة اللعين فقــال: لايصلح للطلب بدم عــقبــة من الروم والبــربر إلا من هو مــثلُهُ دينًا وعقــلا ، فاستشار مع وزرائه فاجــتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي، وقالوا : هذا صاحبُ عــقبة ، وأعلمُ الناس بسيــرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه ، فوجه عبد الملك إلى زهير وهو ببرقة يأمره بالخروج على أعنَّة الخيل إلى أفــريقية ، ليــستنقذ مــن بالقيروان . فكتب إليــه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم، فأمدَّه عبد الملك ابن مروان بالخيل والرجال والأموال، وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه . فوفدت الجيوش على زهير ، وتسرَّع الناس معه إلى أفريقية .

قال: وفي سنة تسع وستين أقبل زهير بن قبس البلوي في عسكر عظيم إلى أفريقية .فبلغ كسيلة بن لمزم قدومه إليه وعزمه عليه .فجعل لايهابه ولايخاف منه . وكان كسيلة في خلق عظيم من البربر والروم، أضعاف مامع زهيــر مُضاعفة . فدعا كســيلة أشراف البربر وقال لهم: إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة فإن بها قومًا من المسلمين لهم علينا عهودٌ . ونحن نخــاف إن أخذنا القتال مــعهم أن يكونوا علينا. ولكن ننزل على موضع ممس[1] وهي على الماء . فإن عسكرنا خلقٌ عظيم، فإن هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم ، فــيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر وإن هزمونا كان الجبل منَّا قريبًا والشعْراء [2] فنتحصن بهما .

قال : ولمَّا رحل كســيلة عن القيروان ، نزل عليهــا زهير بن قيس

---

(١) هي مدينة في الجزائر في الجنوب الشرقي لجبال أوراس .

(٢) يعني الشجر الملتف .

ثلاثة أيام ولم يدخلها ، وفي اليوم الزابع رحل عنها حتى أشرف على عسكر كسيلة في آخر النهار ، فأمر الناس بالنزول . فلما أصبح وصلى زحف إليه ، وأقبل كسيلة ومن معه فالتقى الجمعان ، والتحم القتال بين الفريقين ، ونزل الضرُّ وكثر القتل في الفريقين، حتى يئس الناس من الحياة . فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل . ومضى الناس في طلب البربر والروم ، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم وجدُّوا في طلبهم إلى وادي ملوية بالغرب ، ففي تلك الوقعة ذهب رجال الروم والبربر المشركين ، وقُتل ملوكهم وأشرافهم وفرسانهم . ثم انصرف زهير إلى القيروان فأوطنها . ففزع منه أهل أفريقية ، واشتد خوفهم، فلجؤوا إلى الحصون والقلاع [1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : موقف جهادي مشرف من زهير بن قيس البلوي ، حيث دعا جيش المسلمين إلى جهاد كسيلة البربري، والحقيقة إن الجيش الإسلامي الذي فتح به عقبة بن نافع المغرب موجود في القيروان ولم يفقد منه إلا عقبة والذين استشهدوا معه ، فكان الوضع المقبول أن ينهض المسلمون هناك لجهاد عدوهم ، ولكن أكثرهم أطاع حنش الصنعاني الذي دعاهم إلى العودة إلى المشرق .

ومن تحليل ذلك الواقع يتبين لنا أن عودة ذلك الجيش كانت بسبب القلاقل والاضطرابات التي سادت دار الإسلام آنذاك ، حيث ثار أهل

(١) البيان المغرب لابن عذاري ١/ ٣٠ - ٣٣، الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٩ ،وانظر قادة فتح المغرب العربي ١/ ١٥١ - ١٥٧ .

المدينة على يزيد بن معاوية ، وبايع أهل مكة عبد الله بن الزبير وخرج الحسين إلى العراق فكانت حادثة مقتله ، ثم استطاع ابن الزبير بعد موت يزيد أن يستولي على الحجاز والعراق، ولعل حنش الصنعاني رأى أن المشاركة في إصلاح دولة الإسلام من داخلها أولى من الجهاد في أطراف دولة الإسلام، ومن أدلة ذلك أنه انضم إلى ابن الزبير لما رأى أنه أحق بالخلافة ، ولايُظَن به ولابأولئك المجاهدين أنهم تركوا ساحة الجهاد تفضيلا للراحة وهروبًا من لقاء العدو وهم الذين كانوا يتحرقون شوقا إلى الجهاد .

نهاية زهير البلوي وأصحابه :

عاد زهير إلى القيروان بعدما وطد أقدام المسلمين في تلك المنطقة، وحينما أَمِنَ على وضع المسلمين في القيروان سار ببعض الجيش إلى برقة ، وكان يخشى عليها من هجوم الروم حيث لم يترك بها إلا حامية صغيرة .

وقد حصل ماكان يخشى منه زهير حيث أغار الروم على برقة ونهبوا أموالها وسبوا بعض رجالها ، ووصل زهير إلى برقة والروم ينقلون الأسرى من المسلمين إلى مراكبهم ، فاستغاث به المسلمون فأسرع إلى نجدتهم على غير استعداد منه للقاء العدو ، وكان جيشه متعبا من السفر فلم يستطيعوا مقاومة الروم ، ومع وقوعهم في هذا الظرف السيء فإنهم ثبتوا للروم رغم قلتهم وكثرة أعدائهم حتى استشهد زهير وأصحابه [(١)] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٣٠٩ - ٣١٠ ، البيان المغرب لابن عذاري ١/ ٣٣ .

وهكذا وقع زهير البلوي في الوضع نفسه الذي وقع فيه عقبة بن نافع الفهري حيث باغتهما العدو على غير استعداد منهما فكانت النتيجة الظفر بالشهادة ، وإن كان ذلك قد أثر على وضع المسلمين في أفريقية .

وبهذا انتهى جهاد زهير بن قيس البلوي ، التقي العابد والقائد الشجاع، بعدما أزال طغيان البربر والروم في شمال أفريقيا فرحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ولعل الذي شجع الروم على الهجوم على برقة - إضافة إلى انشغال زهير بالجهاد في المغرب - ماحدث في دار الإسلام من فتن داخلية، حيث كانت الحرب قائمة - آنذاك - بين عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما وعبد الملك بن مروان .

* * *

٦ - فتوحات حسان بن النعمان

ذكر ابن عذاري أن عبد الملك بن مروان ولاه على أفريقية، وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفا ، وقال له : إني قد أطلقت يدك في أموال مصر فأعط من معك ومن ورد عليك ، وأعط الناس ، واخرج إلى بلاد أفريقية على بركة الله وعونه .

فتح قرطاجَنَّة : (١)

قال ابن عذاري :قدم أفريقية في عسكر عظيم ، فلم يدخل المسلمون قطُّ أفريقية بمثل مادخلها حسان بن النعمان ، فلما حصل بالقيروان ، سأل أهل أفريقية : من أعظم الملوك بها قدرا ؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية فسار حسان حتى نزل عليها . وكان بها من الروم خلقٌ لايُحصى كثرةً . فخرجوا إليه مع ملكهم ، فقاتلهم حسان حتى هزمهم ، وقتل أكثرهم . ثم نازلها حتى افتتحها، وهي كانت دار الملك بأفريقية .

فلما قدم حسان إليها ، وقتل فرسانها ورجالها ، اجتمع رأي من بقي بها على الفرار منها . وكانت لهم مراكب كثيرة ، فمنهم من مضى إلى صقلية ، ومنهم من مضى إلى الأندلس . فلما انصرف عنها حسان وعلم أهل بواديها وأقاليمها هروب الملك عنها بادروا إليها فدخلوها . فرحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف . فقتلهم قتلا ذريعًا ،وسباهم ونهبهم . وأرسل لمن حواليها فاجتمعوا إليه مسارعين خوفًا من عظيم سطوته ، وشدة

---

(١) ذكر ابن عذاري أنها مدينة عظيمة وأنها عن مدينة تونس على اثني عشر ميلا .

بأسه . فلما أتوه ولم يبق منهم أحدٌ أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها. فخربوها حتى صارت كأمس الغابر. ثم بلغه أن النصارى اجتمعوا وأمدهم البربر بعسكر عظيم في بلاد صطفورة ، فرحل إليهم حسان حتى لقيهم . وقاتلهم حتى هزمهم ، وقتل الروم والبربر قتلاً ذريعًا ، وحمل عليهم أعنة خيله ، فما ترك من بلادهم موضعًا إلا وطئه . ولجأ الروم هاربين خائفين إلى مدينة باجة فتحصنوا بها، وهرب البربر إلى إقليم بونة . وانصرف حسان إلى القيروان .

معركة المسلمين الأولى مع الكاهنة :

قال ابن عذاري : لمَّا دخل حسان القيروان ، أراح بها أيامًا. ثم سأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك أفريقية ليسير إليه فيبيده أو يُسلم، فدلوه على امرأة بجبال أوراس يقال لها الكاهنة ، وجميع من بأفريقية من الروم منها خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون : فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضادٌ ولامعاندٌ ، فدخل بجيوشه إليها . وبلغ الكاهنة خبره فرحلت من الجبل في عدد لايُحصى ، ولايبلغ بالاستقصاء وسبقته إلى مدينة باغاية . فأخرجت منها الروم ، وهدمتها ، وظنت أن حسانا يريد مدينة ليتحصن بها منها. فبلغ خبرها حسانًا فنزل بوادي مسكيانة . فرحلت الكاهنة حتى نزلت على الوادي المذكور . فكان هو يشرب من أعلى الوادي، وهي من أسفله . فلمَّا توافت الخيل دنا بعضهم من بعض، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار . فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم . فلمَّا أصبح الصباح التقى الجمعان ، فتقاتلوا قتالاً لم يسمع بمثله، وصبر

الفريقان صبرًا لم ينته أحدٌ إليه ، إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين . وقتلت الكاهنة العرب قتلا ذريعًا ، وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحابه . وسُمّيَ ذلك الوادي وادي العذارى. واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس . فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يُخبره بذلك ، وأن أمَمَ المغرب ليس لها غايةٌ ولايقف أحدٌ منها على نهاية ، كلما بادت أمةٌ خلفتها أممٌ ، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم . فعاد له جوابُ أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب ، فورد عليه في عمل برقة . فأقام بها وبنى هنالك قصوراً تُسمى إلى الآن بقصور حسان .

وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين . فلما رأت إبطاء العرب عنها، قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلانرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها ، حتى ييئس منها العرب، فلا يكون لهم رجوعٌ إليها إلى آخر الدهر ، فوجهت قومها إلى كل ناحية ، يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، فذكروا أن أفريقية كانت ظلاً واحدًا من إطرابلس إلى طنجة، وقُرى متصلة ، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونًا من إقليم أفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله . فخربت الكاهنة ذلك كله، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلقٌ كثيرٌ ، مُستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية .

وكانت الكاهنة ، لما أسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان، أحسنت إليهم، وأرسلت بهم إلى حسان ، وحبست عندها خالد بن يزيد. فقالت له يومًا : مارأيت في الرجال أجمل منك ولاأشجع ! وأنا أريد أن أرضعك ، فتكون أخًا لولدي ! وكان لها ابنان أحدهما بربريٌ والآخر يونانيٌ . وقالت له : نحن جماعة البربر لنا رضاعٌ : إذا فعلناه نتوارث به ، فعمدت إلى دقيق الشعير ، فَلَتَّتْهُ بزيت، وجعلته على ثَدْيَيْها . ودعت ولديها ، وقالت : كُلا معه على ثَدْيَيَّ، ففعلا ، فقالت : قد صِرتم إخْوَةً [1] .

وقد علل اللواء الركن محمود شيت خطاب انهزام المسلمين رغم كثرتهم بأسباب من أقربها أن المسلمين اغتروا بكثرتهم واحتقروا عدوهم خاصة وأنهم بقيادة امرأة منهم وهي الكاهنة، فلم يبذل المسلمون مايلزم لتلك المعركة من جهد وطاقة بينما استمات أعداؤهم حيث جعلوا تلك المعركة معركة حياة أو موت [1] .

وأهم من ذلك إن كان هذا هو الدافع للهزيمة مايترتب عليه من تخلف معية الله تعالى لعباده بالنصر والتأييد إذا اغتروا بكثرتهم وغفلوا عن ذكر الله جل وعلا واستمداد النصر منه ، فيصبح المسلمون هم وأعداؤهم في ميزان معنوي واحد لتخلف نصر الله تعالى عن الجميع ، وتبقى بعد ذلك الموازين المادية ، وقد تفوق فيها الأعداء في تلك المعركة .

---

(١) البيان المغرب ١/ ٣٤ - ٣٧ ، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣١ - ٣٢ .

(٢) قادة فتح المغرب ١/ ١٨٥ .

معركة المسلمين الثانية مع الكاهنة :

قـال ابن عذاري : ثم إن حـسـانا توافت عليـه فـرسان العـرب ورجالهـا من قِبَل أميـر المؤمنين عبـد الملك . فدعا حـسان عند ذلك برجل يثق به، وبعـثه إلى خـالد بن يزيد بكتاب . فـقرأه وكـتب في ظهـره : إن البـربر متـفـرقـون . لانظام لهم ولا رأيَ عندهم فـاطو المراحل، وجد في السير وجعل الكتابَ في خبزة وجعلها زادًا للرجل، ووجهه بها إلى الأمير حـسان . فلم يغب عن خالد بن يزيد إلا يسيراً حـتى خرجت الـكاهنة ناشرةً شـعـرها، تضـرب صدرها، وتقـول: ياويلكم! يامعشر البربر ! ذهب مُلْكُكم فيـما يأكله الناس فافترقوا يمينًا وشمالاً يطلبـون الرجل، فستره الله تعالى حتى وصل حـسانًا، فكسر الخبزة وقـرأ الكتاب الذي كتبه إليـه خالد ، فوجده قـد أفسدته النارُ. فقال له حسان : ارجع إليه ، فقال الرجل : إن المرأة كاهنةٌ :لايخفى عليها شيء من هذا [1] . فرحل حسـان بجنوده إليها . وبلغ الكاهنة خـبـره، فرحـلـت من جـبل أوراس في خلق عظيم . ورحل إليـهـا حسان. فلما كان في الليل ، قالت لابنيـها : إني مقتولةٌ ، وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعًـا موضوعًا بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حـسانًا . فقـال لها خـالد : فارحلي بنا وخلي له عـن البلاد، فامتنعت ، ورأته عـارًا لقومها . فقال لها خـالد وأولادها: فما نحن صانعون بعدك ؟ فـقالت : أما أنت ياخالد فستُـدرك ملكًا عظيمًا عند الملك الأعظم وأمـا أولادي فـيـدركـون سلطانًـا مع هذا الرجل الذي

(١) وجاء في رواية ابن الأثير : فعاد إلى خالد فكتب إليـه كما كتب أوَّلاً وأودعه قربوس السرج .

يقتلني ويعقدون للبربر عِزاً ، ثم قالت : اركبوا واستأمنوا إليه، فركب خـالد وأولادها في الليل ، وتوجـهوا إلى حـسـان . فأخـبره خـالدٌ بخبرها، وأنها علمتْ قتلهـا، وقد وجهت إليك بأولادها. فوكَّل بهما من يحفظهما ، وقدَّم خالدًا على أعِنة الخيل. وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت: انظروا مادهمكم فإني مـقتولةٌ. ثم التحم القتال، واشتد الحرب والنزال . فانهزمت الكاهنة ، واتبعها حسان حتى قتلها.

وكان مع حسان جماعةٌ من البربر استأمنوا إليه . فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب. فأجابوه وأسلموا على يـديه. فعقـد لولدي الكاهنة ، لكل واحد منهـما على ستة آلاف فارس ، وأخرجهـم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفـر من البربر . وانصرف حـسان إلى مدينة القـيروان ، بعدمـا حسن إسلامُ البـربر وطاعتهـم ، وذلك في شهر رمـضان سنة اثنتين وثمـانين . وفي هذه السنة استـقامت بلاد أفـريقـية لحسـان بن النعمان ، فدوَّن الدواوين ، وصالح على الخـراج ، وكتبه على عجَم أفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر ، فمن ذلك : أولاً ماقام به خالد بن يزيد القيسي من الكتابة إلى حسان بن النعمان وجعله ذلك الكتاب في خبزة ثم في قربوس السرج .

وهذا التصرف من خالد بن يزيد يدلنا على شـدة حزمه واحتياطه للأمر حـتى لايقع كـتابه بيـد أحد جواسـيس الكاهنة فـتفسـد خطة

(١) البيان المغرب ١/ ٣٤ - ٣٨ ، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣١ - ٣٣ .

المسلمين ويتعرض هو وبقية أسرى المسلمين للأذى والقتل من تلك الحاكمة الجبارة .

وقد أفاد في هذا الكتاب أن أهم عنصر من عناصر القوة لدى الكاهنة قد زال عنها وهو اجتماع قبائل البربر عليها حيث إنهم متفرقون وأن نظامهم قد اختل وأصبحت الفرصة مناسبة للقضاء على قوة أولئك البربر .

ثانيًا : في سياسة تلك المرأة الكاهنة الهوجاء عبرة ، فإنها فقدت سمعتها شيئًا فشيئًا حيث أساءت معاملة أهل تلك البلاد وظلمت وتجبَّرت ، ثم خطر ببالها أن العرب إنما يريدون البلاد لما فيها من عمران وأموال فأمرت أتباعها بهدم العمران وقطع الأشجار حتى أحالت المدن العامرة إلى خراب ، فكان ذلك وبالاً عليها حيث انقلب عليها أهل البلاد وأصبحوا يتمنون عودة المسلمين ليخلِّصوهم من ظلمها .

وهكذا هيأ الله للمسلمين الظروف الملائمة والممهدة للقضاء على ذلك العدو المتمكن ، وهذا يدلنا على أن المسلمين لم ينتصروا لمجرد قوتهم وشجاعتهم وإنما كان العامل الأول في انتصاراتهم المتوالية هو مااشتهروا به من العدل والأمانة والرحمة وسائر مكارم الأخلاق التي جعلت الشعوب المغلوبة على أمرها تتمنى قدوم المسلمين عليهم ليخلصوهم من بطش الظالمين وقهرهم .

ثالثًا : مما حدث بعد هذه المعركة من الحوادث المشتملة على مواقف حميدة أن جماعة من زعماء البربر جاؤوا إلى حسان بن

النعمـان مستـأمنين فقبل أمـانهم بشرط أن يعطوه اثني عشـر ألفًا من قبـائلهم يجـاهدون مع المسلمين ، فـأجـابوه وأسلمـوا على يديه ، وأحضروا له ذلك العدد ، فولّى ولَدَي الكاهنة على ذلك الجيش .

* * *

٧ - فتوحات موسى بن نُصَير -

لقد آل أمر المغرب بعد حسان بن النعمان الأزدي إلى آخر قادتها الفاتحين وهو موسى بن نصير اللخمي ، وذلك في أوائل سنة ست وثمانين تقريبًا ، وكانت ولايته من قِبَل أمير مصر عبد العزيز بن مروان .

ولما أكمل موسى بن نصير استعداد جيشه توجه من مصر إلى أفريقية وقام خطيبا في جيشه وكان مما قاله : « إنما أنا رجل كأحدكم فمن رأى مني حسنة فليحمد الله تعالى ، وليحضَّ على مثلها ، ومن رأى مني سيئة فلينكرها ، فإني أخطئ كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر الأمير أكرمه الله تعالى لكم بعطاياكم وتَضْعيفها ثلاثا ، فخذوها هنيئًا مريئًا ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا وله عندنا قضاؤها على ماعزَّ وهان ، مع المواساة إن شاء الله تعالى ولاحول ولاقوة إلا بالله » (١) .

وهذه خطبة عظيمة قدَّمها موسى بن نصير بين يدي ولايته أمام جنده ، وقد قرر فيها قواعد العدل التي بها تستقر أمور الولايات ، ويَعرف بها الجنود والرعية أن الأمير سيسير بالعدل بين الناس ، والإنصاف حتى من نفسه .

وإذا استقرت أمور الناس على العدل فإنهم يستخرجون كل مالديهم من مقدرة في العمل ، فيصبح الواحد منهم عن عشرة أو أكثر ممن لايُبرزون إلا بعض طاقتهم .

---

(١) قادة فتح المغرب ١/٢٢٨ عن الإمامة والسياسة ٢/٦١ - ٦٢ .

إن إظهار العدل والالتزام بتطبيقه هو أول علامات نجاح المسئول لأنه بالتمثل بهذا المبدإ يضمن جنودا مخلصين له ولقضيته، كما أنه يضمن خلو عمله من المشكلات والمآزق التي تنتج غالبا من تفضيل الأدنى على الأعلى ، وإبراز أصحاب القدرات الضعيفة والكفاءات القليلة مع تجاهل أصحاب الكفاءات العالية الذين يبذلون طاقات كبيرة في العمل .

ولقد كان موسى بن نصير موفقًا حينما وجه جنده إلى تقويم أعماله التي يقوم بها ، ثم القيام بحمد الله تعالى على الحسنات ، والنصيحة للقائد بالإكثار منها والمداومة عليها، وإنكار السيئات وبيان الأخطاء . . وذلك أن الإشادة بالحسنات والتذكير بها مما يدفع المسئول إلى مضاعفتها والالتزام بها ، وبيان الأخطاء في حينها مما يدفع المسئول إلى تصحيحها والحذر من تكرارها .

إن الأخطاء إذا تُركت فلم تعالج في أول حدوثها فإنها تترك آثارا سيئة ، وقد يترتب عليها أخطاء أخرى ، وقد تتكرر إذا لم يتنبه لها المسئول أو يُنبهه لها ناصح مخلص .

جهود ابن نصير في إخضاع المتمردين :

ما أن وصل موسى بن نصير إلى القيروان حتى وجّه ثلاث سرايا لإخضاع المتمردين من البربر ، وحيث إنه لم يواجه منهم تجمعا كبيرًا فإنه اكتفى بإرسال هذه السرايا ، وفي ذلك كسب للوقت حيث عاد قادة تلك السرايا بالنصر والغنائم ، وكان أهمَّ هذه المواقع التي اخضعها جبلُ « زغوان » الذي كان منيعا وكان البربر يلجئون إليه .

ولما تم إخضاع المغرب الأدنى وجَّـه ألف فارس إلى قبيلتي هوَّاره وزناتة من البـربر في المغـرب الأوسط فأغـاروا عليـهم وقـتلوا منهم وسبوا، ثم عرضـوا الصلح فصالحوهم ، وكذلك صالح مـوسى قبيلة كتامة .

ثم هاجم موسى قبيلة صنهاجة وهي من القبائل المتمردة ، فقتلهم قتل الفناء وسبَى منهم كثيرا .

أما أهل سجومة الذين سـبق أن أوقعوا بالمسلمين على غرة منهم وقتلوا عقبة بن نافع ومن معه فقد غزاهم موسى بعشرة آلاف، وأعطى اللواء ابنه مروان ، حتى إذا كـان بمكان يقال له « سجن الملوك» خلَّف الأثقال وتجرد في الخيول حـتى انتهى إلى نهر يقال له : « نهر ملويه» فقطع النهـر ، فلما وصل إليهم وجـدهم قد تأهبوا له فـاقتتلوا قـتالا شديدًا في جـبل شديد لايوصل إليـهم إلا من أبواب معلومـة، وبعد قتال استـمر ثلاثة أيام انهزم أهل سجومة ففـتح المدينة وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة بن نافع (عياضًا وعثمان وأبا عبيدة) أن يأخذوا حقهم من قَتَلَة أبيهم فقتلوا من أهل سجومة ستمائة من كبارهم .

هذا وإن انتـصـار المسلمين على أهل تلـك المدينة مع كـونهم في جبل منيع لايوصل إليه إلا من أبواب معلومة يعـتبر مثالا على تفوق المسلمين الباهر من الناحية العسكرية .

وهكذا أخضع مـوسى قبائل البربـر التي شقت عصا الطاعـة بعد مسير حسان بن النعمـان إلى المشرق ، وكذلك أخضع القبائل التي لم تكن خضعت بَعْدُ للمسلمين .

فتح مدينة طنجة :

ثم سار موسى يفتح المدن ويُخضع القبائل حتى دانت له بلاد المغرب كلها، ولم يبق أمامه إلا منطقة « طنجة » وكانت تخضع للأمير الرومي جوليان . فزحف نحوها موسى وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد ومازال يقاتل البربر ويفتح المدائن حتى بلغ مدينة طنجة ، فلما دنا منها بث السرايا لإخضاع ماحولها من البلاد ، وحاصر طنجة حتى افتتحها ونزلها وهو أول من نزلها واختط فيها من المسلمين فأسلم أهلها وجعلها محط إقامة للمسلمين كالقيروان .

أعمال ابن نصير الإصلاحية :

عاد موسى بن نصير إلى القيروان بعدما نشر الإسلام في البربر، وقد أبقى عندهم من يعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وولى على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد وترك عنده تسعة عشر ألفا من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم .

ولم يبق من بلاد المغرب بيد الكفار إلا منطقة سبتة التي كانت في مواجهة الأندلس فكان أهل الأندلس يمدونها بالمؤن والسلاح حتى استطاع أهلها أن يصمدوا أمام المسلمين فتركها موسى بن نصير لجولة قادمة،ولكن كان قد أمِن على بلاد المغرب من حولها في طنجة حيث أبقى طارق بن زياد ومعه ذلك الجيش الكبير من البربر والمسلمين(١) .

---

(١) البيان المغرب ١/ ٤٠ - ٤١ ، الكامل في التاريخ ٤/ ١١٢ .
وانظر قادة فتح المغرب ١/ ٢٢٨ - ٢٣٧ .

وهكذا تبين لنا ماقام به موسى بن نصير من الأعمال الجهادية في بلاد المغـرب بأجـزائه الثـلاثة الأدنى وهـو بلاد تونس والأوسط وهو الجزائر والأقصى وهو المغرب حـاليا تقريبًا ، وتم ذلك في وقت قليل نسبيّـا لأن القادة السابقين من عهـد عقبة بن نافع إلى عهـد حسان بن النعمان قد مهدوا لذلك وفتـحوا أكثر هذه البلاد ، ولكن البربر كانوا كلما فارقهم قائد قوي اغتنموا الفرصة فنقضوا عهودهم ، وكذلك كان الروم يغتنمون عهود الضعف للمسلمين وانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية فيعودون إلى احتلال البلاد مرة أخرى .

لكن موسى بن نصير في الفتح الأخير قد قضى على هذا الوضع المضطرب حيث أبقى حاميات قوية مـن العرب ومسلمي البربر ، كما قام بتطهير بعض الأوكار القريبة الـتي كان القادة العرب يتركون البربر فيهـا لمناعتها مـثل جبل « زغوان » في تونس ، كمـا أنه أسس قاعدة حربية مهمة في أقصى المغـرب وذلك في طنجة حيث أبقى فيها طارق ابن زياد في جيش كبيـر ، وبقي هو في القيروان في تونس فلم تطمع أي قبيلة من البربر في الانتقاض على المسلمين بعد ذلك ، إلى جانب أنه قام بتكثيف الجهود في الدعوة الإسلامية بين البربر حتى تحولوا إلى جنود مخلصين للإسلام ودولته .

لقد كـان طغاة تلك البـلاد وأصحاب الأهواء المنحـرفة يغـتنمون فتـرات الضـعف وانتقـاض سيـادة المسلمين ليقـوموا بدعـوة العامـة وجمعهم، فتتـحول البلاد إلى حالة من الفوضى والاضطراب ويحاول الأقوياء انتهاب الضعفاء ، ولكن ماأن يأتي قائد مسلم قوي حتى يفيء

إليه العقلاء طلبا لتخليص البـلاد من تلك الحال السيئة ، ولذلك كان هؤلاء خير معين لحسان بن النعمان حينما عاد مرة أخرى ليطهر البلاد من حكم الطغـاة المفسدين في الأرض فـتمكن بمعونتـهم من تخليص البلاد من طغاة البربر والروم كما سبق .

ثم فرح هـؤلاء العقلاء بمـجيء موسى بن نصـير لِماَ رأوا فـيه من الحزم والعزم القوي والعـدل الشامل فيسَّروا له مهمـة تطهير البلاد من أوكار الهدم والتدمير .

ثم لما زال حكم الطغاة سارع البربر إلى الدخول في الإسلام حتى تكوَّن منهم جيوش قوية كانت خير معين للعرب في حماية تلك البلاد من طغـاة البربر والروم ، حـيث لم يكن بإمكـان العرب لقلتـهم أن يبسطوا نفوذهم على شمال أفريقـيا ، تلك المنطقة الواسعة فكانوا قبل انتشار الإسلام بين البربر كلما اخضـعوا منطقة انتقضت عليهم مناطق أخرى .

وكان من حسنات موسى بن نصيـر إسراعه في تكوين جيوش من مسلمي الـبربر وحسن اختـيـاره للقادة منهم من أمـثال طارق بن زياد الذي طار ذكره بعد ذلك في فتح الأندلس .

لقد استطاع ابن نصير بمعونة من معه من القادة والدعاة أن يحوِّلوا بتـوفيق الله أولئك التـائهين الذين كـانوا يصرفـون طاقتـهم في تأمين شهـواتهم الدنيـوية إلى مجـاهدين يحملون بأفكارهم الهـدف الأعلى الذي يقاتلون من أجله وهو إعلاء كلمـة الإسلام، ثم إنهم لم يُحرَموا

مع العمل لهذا الهدف من الحصول على ما يريدون من الدنيا بالغنائم المباحة التي يصرفونها فيما يرضي الله تعالى .

وهكذا يستطيع القائد المسلم الذي نور الله بصيرته أن ينتزع من الطغاة الذين يتزعمون الناس أعداداً هائلة من الشباب الذين كانوا يعملون من غير هدف إلا الخضوع لتوجيهات هؤلاء الأبالسة الذين يغتنمون نداء الشهوات لدى هؤلاء الشباب فيحققون لهم بعض مايريدون في مقابل سيادة الفوضى وترويع الآمنين ، وقصر الفكر على متطلبات الحياة الدنيا والغفلة عن الآخرة .

لقد استطاع ابن نصير وأمثاله من القادة العظماء بالتزامهم بالهدف الإسلامي واستقامتهم على المنهج الرباني أن يحرروا أولئك العبيد من رقِّ عبودية الطغاة المتجبرين ، وأن يحولوهم إلى جنود يبذلون طاقتهم في عملية التحرير هذه ليحرروا أقواما آخرين مازالوا يرزحون تحت نير العبودية الخانقة ، بدلا من أن يبذلوا طاقتهم في الإغارة على الآمنين وقطع السبل وإشاعة الفوضى والاضطراب في حياة البشر، فتحول المغرب كله في الأخير إلى قاعدة انطلاق كبرى نحو فتح الأندلس ونشر الإسلام فيها ونقل أفرادها من عبودية البشر إلى عبودية رب البشر جل جلاله ، بعدما كان المغرب مسْرَحًا للغارات الهمجية التي لاهدف لها إلا تأمين متطلبات هذه الحياة الفانية، وإرضاء الطغاة الظالمين الذين انتهكوا حقوق البشر ، وسلبوا من الإنسان حرية التفكير، وحوَّلوا أفراد مجتمعهم إلى قطاعات من العبيد تُفكر حيث يصوغ لها التفكير زعماؤها ، وتنطلق في السلوك حيث يرسم لها

خطة العمل كبراؤها ، من غير هدف أعلى يحكم تصرفات القادة والجنود .

جهود ابن نصير في الجهاد البحري :

هذا وإلى جانب ماقام به موسى بن نصير من إخضاع بلاد المغرب فإنه توجه باهتمامه إلى الجهاد البحري حيث أكمل العمل الذي بدأ به حسان بن النعمان من إعداد مصنع كبير لبناء السفن في تونس وإصلاح الميناء فيها ، ثم أمر بصناعة مائة مركب .

وبعد الانتهاء من إعداد المراكب وجَّه حملة بحرية بقيادة ابنه عبدالله إلى جزيرة « صقلِّية » فافتتح مدينة فيها وعاد سالما غانما .

كما أنه بعث عياش بن أَخْيَل إلى « صقلية » فأصاب مدينة «سرقوسة» وبعث أيضًا عبد الله بن مرة إلى جزيرة « سردانية» فافتتح مدائنها .

وكذلك جهز موسى ولده عبد الله إلى جزيرتي «ميورقه» و«منورقه» في البحر الأبيض بين صقلية والأندلس فافتتحهما [1] .

وهكذا كان موسى بن نصير موفقا حينما قام ببناء ذلك الأسطول والشروع في غزو جزر البحر حتى يقطع الطريق على الروم الذي كانوا دائمًا يهددون أمن شمال أفريقيا ، وبهذه الغزوات البحرية الناجحة وبالقضاء على معاقل الروم في ساحل البحر الأبيض انقطعت حملات الروم التي سبق ذكر شيء منها .

---

(١) قادة فتح المغرب ١/٣٨ - ٤٠ نقلاً عن الإمامة والسياسة ٢/ ٧٠ - ٧١ النجوم الزاهرة ١/٢١٦ ، العبر ١/ ١٠٤ ، شذرات الذهب ١/٩٨، البداية ٩/ ٧٧ .

ولقد كان هذا الاهتمام بالغزو البحري وماتم من النجاح فيه ممهدا للغزو الأكبر والفتح الأعظم الذي تم في الأندلس بعد ذلك .

* * *

مواقف وعبر

فى

فتوح الأندلس

- جهاد طريف بن مالك -

كان مما هيأه الله تعالى للمسلمين أنه كان بين جوليان حاكم مدينة «سبتـة» وبين لُذريق حاكم الأندلس عداوة ومنافسة ، فـأرسل جوليان إلى موسى بن نصير رسالة يعرض فيها تسليم مدينة سبتة ويدعوه لفتح الأندلس ، وقد صادف ذلك رغبة في نفس موسى وطموحًا منه لنشر الإسلام في تلك البلاد .

كتب مـوسى إلى الوليد بن عبـد الملك يخبـره بما جرى بينه وبين حاكـم سبـتة ويسـتأذنه في غـزو الأندلس ، فكتب إليه الوليـد: بأن يختبرها بالسرايا وأن لايغرر بالمسلمين ، فبعث موسى عند ذلك رجلا من البـربر وهو طريف بن مـالك ويكنى بأبي زرعـة في مائة فـارس وأربعمـائه راجل ، فجـاز البحر في أربعـة مراكب حـتى نزل ساحل البحر في الأندلس فـيما يحاذى « طنجـة » وهو الذي عرف بعد ذلك بجزيـرة طريف فأغار مـنها على مايـليها حـتى بلغ مدينـة « الجزيرة الخضراء» ورجع سالما ، وذلك سنة إحدى وتسعين للهجرة .

وقد كانت هذه الرحلة استطلاعية لمعرفة قوة العدو وطبيعة البلاد.

* * *

فتوحات طارق بن زياد

في رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة جهز موسى جيشًا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف بقيادة طارق بن زياد ، وقد استفاد المسلمون من المعلومات التي أتى بها طريف بن مالك حيث سار طارق بجيشه من سبتة حتى نزل بالجبل المقابل لها والذي سمي فيما بعد «جبل طارق » ، بينما سار طريف قبل ذلك من طنجة ونزل فيما يقابلها حيث سمي جزيرة طريف ، ثم اتجه شرقا نحو جبل طارق، ولعله رأى أنه أفضل مكان لنزول الجيش الإسلامي لمناعته وقربه من سبتة مركز الانطلاق .

وقد سار طارق بالدفعة الأولى من جيشه على السفن الأربع، ووجد عند الساحل بعض الروم وقوفا فمنعوا المسلمين من النزول، فلم يقاومهم لأنه قصد الدخول بسرِّية حتى يتم اجتماع جنده ويتأهب للقاء عدوه فعدل إلى مكان آخر فيه وعورة فقام هو وجنده بتسهيله حتى نزلوا ولم يعلم بهم أهل البلاد ، ثم استقر في الجبل الذي رآه مكانا ملائما للحرب ورجعت السفن تنقل بقية الجيش حتى توافَى جميع أصحابه عند الجبل وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين .

وقبل أن أذكر ماقام به طارق بعد ذلك فإنني أحب أن أشيد بهذه لخطة الحربية الممتازة التي سار عليها طارق بتوجيه موسى بن نصير حيث استطاع اختيار المكان الملائم للتحصن من الأعداء حتى يتم اجتماع الجيش كله، إذ أن هناك احتمالاً كبيراً أن يهاجم الأعداء جيش المسلمين قبل تكاملهم، فوجودهم في ذلك الجبل يعطيهم مقدرة على

الدفاع عن أنـفسهم ، ثم إن مما يُشـاد به مقـدرة طارق وجيـشه علي التكتم عن الأعداء حـيث دخلوا ولايعلم الأعداء أنهم مـحاربون، ثم مازالوا يتجمعون في ذلك الجبل حـتى كمل عددهم من غير أن يشعر به عدوهم مع أن تلك المنطقة كان بها أمير من قبل لذريق ومعه جيش معدٌ لحماية تلك المنطقة .

ثم سار طارق منحـدرا نحو الجـزيرة الخضراء ، وقـد جرت بينه وبين القوط مناوشات حـربية انتصر فيها المسلـمون، وكان قائد الروم «تُدْمير » الـذي كان واليا على تلك المنطقة ، وقـد كتب إلى «لُذريق» يعلمه بأن قوما لايدري من أهل الأرض أم من أهل السـماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليَّ بنفسك .

وهكذا وصف المـسلمين بوصف يدل عـلى فـزعـه منهم، وأن قدومهم كان مـفاجأة كبرى له ،وكونه يتشكك في حقـيقة أمرهم هل هم من أهل الأرض أم من أهل السمـاء ، يدلنا على ماكان يتـمتع به أولئك الغـزاة المسلمون من حـيوية وثابة واندفـاع عارم أذهل الـقوط وجعلهم في حيرة من أمرهم .

إن أولئك الكفار لم يألفوا ذلك الهجوم الصاعق والارتماء المتفاني في أحضان الموت فـشكُّوا في كون أولئك المهاجمين مـن جنس البشر العاديين .

المعركة الفاصلة مع حاكم الأندلس :

لما علم حـاكم الأندلس لُذريق بزحف المسلمين بدأ يجهـز جيـشا كبـيراً لـيزحف به نحـو الجنوب ، وعلم طارق بأخبـار هذا التجـمع

الكثيف،- وهذا يدل على دقة رصد المسلمين لتحركات أعدائهم - فكتب إلى موسى بن نصير يخبره بذلك ويستمده ، فأرسل إليه قرابة خمسة آلاف مجاهد بقيادة طريف بن مالك ، حملتهم سفن المسلمين، وكان موسى بن نصير مذوجّه طارقا أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون عند طارق اثني عشر ألفا .

وقد جمع لذريق جيشا كبيراً هو مابين مائة ألف وأربعين ألفا حسب اختلاف الروايات ، وقد كانوا مغرورين بكثرتهم وقوة استعدادهم حتى إنهم حملوا معهم الحبال على دواب خاصة لكتاف أسرى المسلمين .

واستعد الفريقان للقتال ، وكان أكثر جيش طارق رَجَّالةً حيث لم يكن معهم من الخيول إلا القليل بينما كان جيش القوط يملكون الكثير منها (١) .

هذا وقد قال المؤرخ أحمد بن محمد المقَّري في بيان أحداث هذه المعركة ومابعدها :

وقال الرازي : كانت الملاقاةُ يوم الأحد لليلتين بقيَتَا من شهر رمضان ، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلَون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامُهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض،

---

(١) انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقَّري ١/ ٢٢٤ - ٢٤٢ .
وانظر التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجِّي / ٤٧ - ٦٧ .

قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم مايجلُّ قدره، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس، فجمع طارق الفْيءَ وخَمَّسَه ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سِوى العبيد والأتباع، وتسامع الناس من أهل برّ العُدْوَة [1] بالفتح على طارق بالأندلس وسَعَة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وَجْه، وخَرَقُوا البحر على كل ماقدروا عليه من مركب وقُشْر [2] ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجبال [3] .

وهكذا عَرَضَتْ كتب التاريخ هذه المعركة عرضًا موجزًا جدًا بينما كانت معركة كبيرةً وحاسمة حيث فتحت الباب للمسلمين ليتوغلوا بعد ذلك في فتح الأندلس دون مقاومة كبيرة إلا في معارك محدودة .

ولاشك أن تضحيات كبيرة قد قدمها المسلمون خلال تلك الأيام الثمانية التي ظنوا فيها فناءهم كما جاء في بعض الروايات ،كما أنهم قد توجهوا في تلك المعركة بإخلاص وروح معنوية عالية غطَّت على جميع جوانب النقص الكثيرة بالمقارنة بأعدائهم ، وإن أبلغ وصف لشجاعة هؤلاء المجاهدين المذهلة ، وإقدامهم الذي لاتَحدُّ منه العقبات ولاتقف دونه السدود قول حاكم تلك الولاية في وصفهم « لايُدرَى

---

(١) يعني في المغرب الأقصى .

(٢) القشر الزورق الصغير .

(٣) نفح الطيب ١/ ٢٤٣، وانظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي ٢/ ٨ .

أَمِنْ أهل الأرض أم من أهل السماء » وإذا كـان لايدري فإننا نقول : بل هم قدر الله تعالى النافذ وقضاؤه الذي لايرد .

ومما يؤسف له أن كـتب التاريخ لـم تسـجل أحداث هذه المعـركة الكبيرة إلا في بضعة أسطر ، ولقد كنَّا نود أن نعرف الأحداث اليومية لتلك المعركة وماجرى فيها من تضحيات ومواقف عالية من الصمود.

لقد كان المسلمون مقْـدِمين على خوض تلك المعركة الهائلة وهم فعـلا يتصورون إحدي الحـسنيين . . فإما شـهادة ينالون بها المقـامات العليا في الآخرة وإما نصر ينالون به المقام الرفيع في الدنيا إلى جانب ماأعده الله تعالى لهم في الآخرة ، فلذلك كان قـتالهم قتال المستميت وأصبـحت طاقتهـم أعلى بكثير من طاقـة أعدائهم، وصـبرهم على الشدائد أشد بكثير من صبر أعدائهم ، فكانت لهم نهاية المعركة .

هذا ولم يكن موسى بن نصير وهو المسئول الأول عن ذلك الفتح بمعزل عن أحداث هذه المعركة ومابعدها ، بل كان شديد الاهتمام بأمر أولئك المجـاهدين ، فكان إلى جـانب ماقـام به من إمـدادهم بالجنود معـهم بدعائه وتضـرعه إلى الله تعـالى ، كما قـال ابن الكردبوس : «وكـان موسى بن نصـير حين أنفـذ طارقـا مُكبّا على الدعـاء والبكاء والتضرع إلى الله تـعالى والابتهال إليه في أن ينصـر جيش المسلمين، وماعُلِم أنه هُزِم له جيش قط » [1] .

وهذا يدلنا على صـفة من صفـات موسى بن نصـير المهـمة التي كانت وراء انتصـاراته العظيمة ، وهي قوة صلته بالله تعـالى وشعوره

---

(١) التاريخ الأندلسي /٦٧ ، عن تاريخ الأندلس لابن الكردبوس / ٤٦ - ٤٧ .

الصادق بأن النصر بيد الله سبحانه وإن اختلفت موازين التكافؤ في المعركة .

فتح عدد من مدن الأندلس :

قال المقري : ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شَذُونة ، فامتنعوا عليه ، فشدَّ الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرّهم ، فتهيأ له فتحها عَنْوة ، فحاز منها غنائم ، ثم مضى منها إلى مُدَوَر ، ثم عطف على قَرْمُونة . فمر بعينه المنسوبة إليه ، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، ثم نازل أهل أستجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالا شديدًا حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حربًا مثلها، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها ، وكان مغتراً سيء التدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقًا هناك قد أتى لمثل ذلك، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشَفَه اعترف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ماأحَبَّ ، وضرب عليه الجزية ، وخلَّى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه.

إلى أن قال : ففرَّق طارق جيوشه معهم من أستجة ، فبعث مغيثًا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة ، وكانت من أعظم مدائنهم، في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعًا خيل العجم، ولم يبق فيهم راجلٌ ، وفضلت عنهم الخيلُ ، وبعث جيشًا آخر إلى مالقة ، وآخر إلى غرناطة مدينة إلبيرة، وسارهو في معظم

الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة ، وقد قيل : إن الذي سار لقرطبة طارق بنفسه ، لامغيث ، قالوا : فكمنوا بعُـدوة نهر شقندة في غيضة أرزشامـخة ، وأُرسلت الأدلاء فأمـسكوا راعيَ غنم فسُئل عن قـرطبة فقـال: رحل عنها عظمـاء أهلها إلى طليْطلة ، وبقي فـيها أمـيرها في أربعمـائة فارس من حمـاتهم مع ضعـفاء أهلها ، وسـئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها إلا أنه فيه ثغرة [1] ووصفها لهم ، فلما أجنهم الليل أقـبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسبـاب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دقدقة حـوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويدًا حتى عبروا نهر قرطبة ليلا ، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ضـيقًا بالذي نالهم من المطر والبرد ، فـترجل القوم حتى عـبروا النهر وليس بين النهـر والسور إلا مقـدار ثلاثين ذراعًا أو أقل، وراموا التعلق بالسـور فلم يجدوا متعلقًـا ، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهـم على الثغرة التي ذكـرها ، فأراهم إياها ، فـإذا بها غـير متسهلة ا لتسنٌم ، إلا أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها[2] من التعلق بهـا ، فصعد رجل من أشـداء المسلمين في أعلاها، ونزع مغيث عـمامته فناوله طرفهـا ، وأعان بعض الناس بعضا حـتى كثروا على السور، وركب مغيث ووقف من خـارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجـوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نَفـرًا منهـم، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة، فصعـد إلى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه ، وقـد بلغ الملك دخولهم

(١) ثغرة : مكان يمكن الدخول منه .

(٢) أفنانها : أغصانها .

المدينة ، فبادر بالفرار عن البلاد في أصحابه ، وهم زهاء أربعمائة ، وخرج إلى كنيسة بغربي المدينة ، وتحصن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينة وماحولها .

قال : وأما من وُجِّه إلى مالَقَة فإنهم فتحوها ، ولجأ عُلُوجها إلى جبال هنالك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى إلبيرة، فحاصروا مدينتها غرناطة ، فافتتحوها عنوة .

قال : ومضى الجيش إلى تدمير ، وتدمير : اسم العلج صاحبها، سميت به واسم قصبتها أريولة ، ولها شأن في المَنَعة ، وكان ملكها علجا داهية ، وقاتلهم مضحيا، ثم استمرت عليه الهزيمة في فُحصها، فبلغ السيف في أهلها مبلغًا عظيمًا أفنى أكثرهم ولجأ العلج إلى أريولة في يسير من أصحابه لايغنون شيئًا ، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال ، وتصدر قدَّامهن في بقية أصحابه يُغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مراسه [1] لكثرة من عاينوه على السور، وعُرِضوا على السور ، وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل إليه ، ونكَّر زيَّه ، فنزل إليهم بأمان على أنه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم ، فلما تم له من ذلك ماأراد عرفهم بنفسه ، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه ، وأخذهم بالوفاء بعهده ، وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرِّية ،

(١) مراسه - بكسر الميم - معالجة شأنه بالقتال ومعاناة ذلك .

فندموا على الذي أعطوْه من الأمان ، واسترجحوه [1] فيما احتال به، ومضوا على الوفـاء له ، وكان الوفاء عادتهم ، فسلمت كـورة تُدْمير من مَعَرَّة المسلمين [2] بتدبير تُدْمير ، وصارت كلـها صلحا ليس فيها عَنْوة ، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفـتح ، وخلفوا بقصبة البلد رجالا منهم، ومضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طُليطلة [3] .

وهكذا سار طارق وقواده يفتحون تلك البلاد بسرعة مذهلة وبدون مقاومة كبيرة .

لقد كان أهل الأندلس كسائر البلدان المتحضرة يعيشون آنذاك تحت حكم طغاة متجبرين ، وكان أولئك الطغاة يتصارعون على الحكم من أجل امتصاص خيرات البلاد والتجـبر على الناس وتحويل المستضعفين إلى مسـتعـبدين أذلاء ،فكان أهل البـلاد يتمنون الخـلاص من أولئك المتجبرين،ولعلهم سمعوا بما ناله أهل المغرب على يد المسلمين الفاتحين من أمن ورخاء وعدالة ، فأصبـحوا يتمنون الخلاص من طغاتهم على أيدي المسلمين ، ولذلك وجـدناهم يفـتحـون لهم صدورهم قـبل أن يفـتـحوا لهم بلادهـم ويسارعـون في تقـديم الولاء لهم، ويَخْـذلون حكامهم الذين عانوا مـنهم الأمَرَّين،ولقد انتشر الإسـلام سريعا على إثر انتـشار المسلمين في الأندلس فكانت أخـلاق المسلمين وعدالـتهم وتفانيهم في خـدمة دينهم وترفُّعهم عن الدنيا مـفتاح قلوب أهل تلك البلاد .

(١) استرجحوه : عدُّوه راجح العقل حسن التدبير .

(٢) أي إيذاؤهم لهم .

(٣) نفح الطيب ٢٤٣/١ - ٢٤٥ ، وانظر البيان المغرب ٢/٩-١٠ .

وفي خبر تدمير ومعاملة المسلمين لصاحبها منقبة عالية للمسلمين حيث وفَى المسلمون بعهدهم لذلك الحاكم الأندلسي مع سبق خديعته إياهم ، وذلك لشدة اهتمامهم بالوفاء بالعهد الذي ظلوا طيلة فتوحاتهم في الشرق والغرب مشهورين به ، ومن المؤكد أن سمعتهم العالية في ذلك قد انتقلت من المغرب إلى الأندلس وإلا فإنه من المستبعد أن يغامر ذلك الحاكم بنفسه حيث خرج للتفاوض مع المسلمين ثم عرَّفهم بنفسه بعد تمام الصلح .

إنه في حساب الربح والخسارة من الناحية الحربية قد يقال إن المسلمين قد خسروا بهذا الصلح سبع مدن لم يكن فيها إلا قوة ضعيفة للأعداء وأنه كان بإمكان المسلمين أن يستأصلوا أعداءهم وأن يستولوا على تلك المدن بما فيها من متاع الدنيا ، ولكن المسلمين في حساب الإسلام قد كسبوا مكسبًا عظيمًا حيث تقدموا شوطًا عاليًا في الرقي الأخلاقي الذي يعتبر من أهم مقومات الدعوة الإسلامية .

ولاشك أن هذا السلوك الحميد وأمثاله مما يفسَّر به سرعة دخول أهل تلك البلاد في الإسلام ، وتحوُّلهم إلى جنود يخدمون الإسلام ويقيمون صرح دولته في بلادهم .

* * *

فتوحات موسى بن نصير

أما بقية فتوح الأندلس فقد شارك فيها موسى بن نصير أمير المغرب، وهو الذي بعث طارق بن زياد لفتح الأندلس .

وقد كان موسى بن نصير قد أشفق على وجود المسلمين في الأندلس حيث توغل طارق في الفتح شمالا وبقي شرق البلاد وغربها لم يُفتح فخشي أن يطوقه الأعداء ، وجاء في بعض الروايات أن طارقا كتب إلى موسى يستمده لما خشي من إحاطة الأعداء به .

وقد عَبَر موسى مضيق جبل طارق في جيش قوامه ثمانية عشر ألفا وذلك في رمضان من عام ثلاثة وتسعين للهجرة ، واستخلف ابنه عبد الله على أفريقية .

وبعد وصوله إلى الجزيرة الخضراء استشار مستشاريه في خطة الفتح وذلك في المسجد الذي بناه هناك وهو الذي عرف بمسجد الرايات لكثرة الرايات في ذلك الجيش ، وبعد هذه الشورى اتجه إلى الشمال الغربي من الأندلس وذلك لحماية الفتح الإسلامي مما يبيِّته له الأعداء ولفتح بلاد لم يصل إليها الفتح الإسلامي ، ففتح مدينة شذونه ثم اتجه إلى قرمونة وكانت من أشد مدن الأندلس تحصينا وقد حاصرها المسلمون وأبى أهلها أن يستسلموا ، وكان في معية موسى جماعة من حلفائه من أتباع يوليان حاكم سبتة فأخبروه أن هذه المدينة لاتفتح إلا بحيلة ، فوجَّه إليها جماعة يوليان وطرقوا بابها على أنهم فلول من جيش البلاد .

وسار خلفهم موسى بخيله، ففتحوا لهم الباب وهجم عليهم المسلمون فقتلوا الحراس واستولوا على المدينة .

وهكذا تم فتح تلك المدينة بجهود يسيرة بتوفيق الله تعالى ثم بسداد الرأي وحسن التدبير من قائد المسلمين .

ثم توجه موسى بجيشه إلى أشبيلية وهي من أعظم مدن الأندلس وكانت عاصمة البلاد قبل ملك القوط ، فلما ملكوا البلاد نقلوا العاصمة إلى طليطلة ، وقد حاصر المسلمون أشبيلية عدة أشهر ثم فتحها الله لهم (١) .

وقد اتجه موسى بن نصير بعد ذلك إلى مدينة «ماردة» التي كانت من أشد مدن الأندلس تحصينا،حيث إن عرض سورها اثنا عشر ذراعًا وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا،ولحصانتها فإن فلول جيش القوط المنهزمة قد لجأت إليها،فتجمع فيها جيش قوي ، وقد حاصرها موسى عدة شهور دون جدوى،ولكن موسى لم ييأس حيث استخدم دبابة من صنع المسلمين آنذاك حمل فيها الجنود إلى السور فبدؤوا ينقبون في السور لإحداث ثغرة فيه ، فلما استطاعوا المضي فيه قليلا ثار عليهم جنود العدو فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسُمِّي ذلك البرج برج الشهداء.

وبالرغم من عدم وصول المسلمين إلى مايريدون من فتح السور

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٥١ - ٢٥٣ ، وانظر البيان المغرب ٢/ ١٣ والتاريخ الأندلسي / ٦٧- ٧٤ .

فإن أهـل البلاد وافقـوا على الصلح لما رأوا من إصـرار المسلمين على حصارهم (١).

هذا وإن في هذا الخبر دلالة على تفوق المسلمين من الناحية المادية حيث استطاعوا صناعة الدبابات حسب الإمكانات المتاحة لهم في ذلك الوقت ، فلم يكتفوا بقوتهم المعنوية الفائقة بل أضافوا إليها الاستعداد الحربي القوي المناسب لعصرهم .

ومن الملاحظ سـهولة فـتح الأندلس وأن بعض تلك الفـتوحـات كانت عن طريق الصلح، وذلك لأن القوط قد تشـتتوا وزالت دولتهم وهم الذين كانوا يتحمـسون للقتال ويدافعون عن دولتـهم ، أما عامة أهل الأندلس فقـد شعروا بالأمن والطمأنينة والعـدالة بوجود المسلمين فكانت مقاومـتهم إياهم ضعيفـة ، ولكن مع هذا فلاشك أن المسلمين قد عانوا مـشقة من السفر المتـواصل والإقدام على مغامرات مـجهولة النتائج وفي بلاد يَقْدمونها لأول مرة ويجهلون دروبها ومفاجآتها .

هذا وقد عـرضَتْ كتب التاريخ أخبـار هذه الفتوح بإيجـاز شديد لايبين إلا قليلاً من مواقف المسلمين التي لاشك أنها كانت عالية وقيمة بناء على مانتج عنها من سرعة استتباب الأمن وانتشار الإسلام وسرعة اندماج أهل البلاد مع الفاتحين .

إن جهودا كـبيرة قد بُذلت في الدعوة إلى الإسـلام كان لها الأثر في كل هذه النتائج،وإن من أبرز هذه الجـهود القدوة الحسنة والتـمثيل الصادق للإسلام،وخاصة من القادة والأمراء،الذين كانوا على جانب

(١) نفح الطيب ١/ ٢٥٢ ، و انظر البيان المغرب ٢/ ١٤ ، والتاريخ الأندلسي / ٧٤ .

كبير من فهم الإسلام والرغبة الصادقة في نشره والحكم به بين الناس.

هذا ومما ينبغي الإشادة به أن هذه الفتوحات الكبيرة المتواصلة جرت من موسى بن نصير وقد جاوز الخامسة والسبعين من عمره، ومع ذلك فإنه كان في همة الشباب وحيويتهم حتى إنه قد عزم في نهاية فتح الأندلس على فتح البلاد الأوربية وغزو القسطنطينية من الغرب لولا أن الوليد بن عبد الملك أمره بالتوقف والقدوم إلى دمشق وشدَّد عليه في ذلك .

ومما يدل على صلاحه أنه دعا الله تعالى أن يرزقه الشهادة أو يموت في المدينة فأجاب الله دعاءه ، حيث مات في المدينة وهو ذاهب إلى الحج برفقة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك عام سبعة وتسعين وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد [١] .

---

(١) التاريخ الأندلسي ١٢٧ عن نفح الطيب ١/ ٢٨٣ ، معالم الإيمان ١/ ٢٠١، رياض النفوس ١/ ٧٨ .

جهاد ولاة الأندلس في أواخر العهد الأموي

لما تولى إمارة الأندلس السمحُ بن مالك الخولاني عام مائة كان له نشاط واسع في الجهاد في جنوبي فرنسا ، وكان بينه وبين أهلها معارك عديدة، منها معركة بين المسلمين وحاكم « أقطانية» وقد اشتد فيها القتال واستُشهد فيها عدد كثير من المسلمين منهم الوالي السمح ابن مالك الخولاني . وذلك في يوم التروية أو عرفة سنة اثنتين ومائة.

ولما تولى إمرة الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي في صفر عام ثلاثة ومائة استأنف الجهاد في جنوبي فرنسا خلف جبال البُرْت، وقد توغل في بلاد الفرنجة واستشهد سنة سبع ومائة (١) .

معركة بلاط الشهداء :

تولى إمرة الأندلس عبد الرحمن الغافقي في شهر صفر من عام اثني عشر ومائة ، وقد واصل حركة الجهاد الإسلامي خلف جبال البرت وتوغل في فرنسا ، وكانت له مع الإفرنج مواقع كثيرة، إلى أن غزاهم في عام خمسة عشر ومائة ، وكان الفرنج قد استعدوا للمسلمين بجيش كبير مجموعٍ من عدة دولٍ أوربية بقيادة شارل مارتل، وقد التقى المسلمون بأعدائهم في شهر رمضان المبارك من ذلك العام ، واستمرت المعركة حوالي عشر أيام ، وكانت نهايتُها استشهاد قائد المسلمين . عبد الرحمن الغافقي وعدد كبير من جيشه ، وقد سُمِّيت المعركة لذلك « بلاطَ الشهداء » .

---

(١) نفح الطيب للمقري ٢١٩/١ - ٢٢٠ ، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي / ١٨٥ - ١٩١ .

كانت هذه المعركة حاسمةً بين المسلمين والنصارى حيث تعثَّر الجهاد الإسلامي بعدها ، وكانت نتيجتها خسارةً كبرى لأوروبا حيث حُرِمَتْ من نور الإسلام وحضارة المسلمين ، ولذلك اعتبرها الكُتَّاب الغربيون المنصفون نكبةً كبيرة أصابت أوروبا وضربةً عنيفة حرَمَتْها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان (١) .

وهكذا وصلت إلينا أحداث هذه المعركة الكبيرة وماسبقها من معارك بشكل موجز مقتضب ، ولاشك أن وراء استشهاد هذا العدد الكبير من المسلمين أحداثٌ ضخمة ومواقف عالية .

* * *

(١) نفح الطيب ٤/ ١٤ - ١٥ ، التاريخ الأندلسي / ١٩٣ - ٢٠٣ .

جهاد الدولة الأموية الأندلسية

– من مواقف عبد الرحمن الداخل –

بعد أن تم القضاء على الدولة الأموية في العالم الإسلامي وخلَفتها الدولة العباسية استطاع أحد شباب بني أمية أن يفرَّ من قبضة العباسيين وأن يُكَوِّن له دولة في الأندلس لاتخضع لدولة العباسيين ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وقد دخل الأندلس في سنة ثمان وثلاثين ومائة فأقام فيها دولة لبني أمية بعد حروب بينه وبين معارضيه ويعرف بعبد الرحمن الداخل لدخوله الأندلس (١) .

ولقد كان عهد عبد الرحمن الداخل عهد حروب داخلية بينه وبين المناوئين له ، وقد تمكن بعد صراع مرير طويل من القضاء عليهم جميعا، وقد كان يتمتع بالشجاعة والصبر والدهاء ، ولقد كان لكفاءته القيادية أثر واضح في نجاحه ، ولما كان ليس من منهج هذا الكتاب الخوض في المعارك التي جرت بين المسلمين فإنني لم أتعرض للكتابة عنها ، غير أني سأذكر شيئا عن الحرب التي كانت بينه وبين أحد مناوئيه وهو سليمان بن يقظان الكلبي لأن سليمان هذا قد استعان على عبد الرحمن الداخل بملك الإفرنج شرلمان، وبهذا يكون سليمان الكلبي قد خان الأمانة ومكن لأعداء الإسلام من بلاد المسلمين .

وفي بيان هذه الحرب يقول الدكتور محمد السيد الوكيل :

رأى شرلمان أن الفرصة سانحة لغزو الأندلس ، وكان هذا هو

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣٦٢ - ٣٦٣ ، البيان المغرب ٢/ ٤٧ .

حلمه الذي كان يحلم به وبخاصة وأنه قد أنهى فتوحاته في أوربا، بإخضاع السكسون ، وليس عليه إلا أن يحقق حلمه، في إقامة إمبراطورية بإخضاع الأندلس .

عبرت جيوش شرلمان جبال البرانس، واستولى على مدينة بَمْبَلُونة، واستمر في زحفه على مدينة سرقسطة ، ولكنه وجدها وقد أغلقت أبوابها في وجهه، حيث أحسَّ سكانها بقيادة الحسين بن يحيى، بخيانة سليمان بن يقظان، وأنه يريد أن يسلم المدينة إلى شرلمان ملك الفرنجة .

كان شرلمان يحلم بطرد المسلمين من الأندلس، وكان يمني نفسه بتحقيق هذا الحلم، حتى واتته الفرصة، فخرج في ربيع ١٦٣هـ-٧٧٨م وكان يعتقد أن مدينة سرقسطة ستفتح له أبوابها، ولكنه وجدها قد أغلقت أبوابها، وتحصن بها أهلها، إما رغبة من حسين بن يحيى في الانفراد بحكم المدينة أو غضبًا منه على سليمان، لأنه خان الأمانة ، ولم يرع حق عبد الرحمن الذي ولاه على المدينة.

واضطر شرلمان إلى محاصرة سرقسطة ، ولكن الحصار قد طال، حتى يئس شرلمان من فتحها، وإذا أضفنا إلى ذلك أن أنباء قد وصلت شرلمان ، تحمل إليه أنباء اضطراب قد وقع في بلاده مما اضطره إلى رفع الحصار عن سرقسطة ، وعاد إلى بلده وهو يحمل معه سليمان ابن يقظان ، لأنه أخل بوعده ، ولم يسلِّمه المدينة كما وعده .

انسحب شرلمان عائدًا بخيبة الرجاء ، ولما وصل مدينة بمبلونة سحب منها حاميتها التي كان قد تركها فيها بعد الفتح ، وهدم

أسوارها، وكـان الأمير عبـد الرحمن الداخل قد اسـتعد للانتـقام من شرلمان، فـحرض عليـه قبائل البـشكُنس، وتعاونت هذه القـبائل مع المسلمين ، وأبناء سليمان الذين كانوا يحاولون إنقاذ أبيهم .

وكانت المفـاجأة المفـزعة لجيش شـرلمان في ممرات جبـال البرانس الضيقة، حـيث انقضّت عليه الجيوش بالسهام والحجـارة، حتى قضوا على مؤخرة هذا الجيش الذي جاء به ليفتح الأندلس قضاء تامًا، وقُتل كثـير من قـواده العظام ، وقتل كذلك قـائده ورفيق حـياته (رولان) واشتد حزن شرلمان على هذا القائد ، وكـان مقتل هذا القائد موضوعًا لأنشودة من شعر الملاحم الفرنسي ، تعرف بأنشودة رولان .

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان بن يقظان من إنقاذه وتخليصه من يد الملك شرلمان، ورجعا به إلى سرقسطة .

وكانت هزيمة شرلمان هذه درسًا قاسيًا ، وتجربة جانبها الصواب ، حيث حاول تجربة حظه في فتح بلاد إسـلامية ، فباء بالفشل، ورجع بخيبة الأمل (١) .

وهكذا استعمل عبد الرحمن الداخل دهاءه فسلط القبائل المجاورة لجبـال البرانس ونظمهم مع المسلمين لـيقوموا بهـجوم مبـاغت لجيش شرلمان من مجاهل تـلك الجبال فأبادوا كثيرًا من جـيشه، فكانت تلك الحرب أنجح من المواجهة ولـم تكلف المسلمين خسائر .

وفي هذه المعركة عبرة فيـما حصل لسليمان بن يقظان الذي خان

(١) الأمـويون بين الشـرق والغـرب / ٢/ ١٤٢ عن كـتـاب تاريخ المسـلمين وآثارهم في الأندلس وكتاب الأمويون أمراء الأندلس .

الأمانة وتحالف مع الأعـداء فقد فشل في تلك المحاولة وأصـبح أسيراً لدى من تحالف مـعه، ثم اضطر ابناه إلى أن ينضما بـجيشهمـا لجيش عـبـد الرحـمن الداخل ليـخلصـا أباهمـا من الأسـر، وهكذا تمكن عبـدالرحمن من تسليط أعـدائه على أعدائه حتى ظـفر بعدوه الكبـير شرلمان .

رأي أبي جعفر المنصور بعبد الرحمن الداخل :

نظراً لما حـققـه عبـد الرحمن الداخل من إقـامة دولة أمـوية في الأندلس والقضاء على جـميع مناوئيه مع أنه كان طريد العـباسيين من قطر إلى قطر فـإنه قد نال إعجـاب أمير المؤمنين أبـي جعفـر المنصور وأثنى عليه بُالرغم من العداء القائم بين العباسيين والأمويين، فقد ذكر أبو عبد الله محمد ابن عذاري المراكشي أن أبا جعفر المنصور قال يوما لبعض جلسـائه : أخبروني عن صقر قـريش من الملوك ! قالوا : ذاك أميـر المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعـداء وحسم الأدواء .

قال : ماقلتم شيـئا ، قالوا : فمعاوية ؟ قال : لا، قـالوا: فعبد الملك بن مروان ، قال: ماقلتم شيئا، قالوا: ياأمير المؤمنين فمن هو ؟

قال : صقـر قريش عبد الرحـمن بن معاوية ، الذي عبـر البحار وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه، فمصَّر الأمصار وجند الأجناد ، ودوَّن الدواوين ، وأقـام ملكا عظيمـا بعد انقطاعـه بحسن تدبيره وشدة شكيمته .

إن معـاوية نهض بمركب حـمله عليه عـمر وعـثمـان ، وذلَّلاله

صعبه، وعبد الملك ببيعة أُبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عِتْرته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين .

فقال الجميع : صدقت والله ياأمير المؤمنين (١).

وقد توفي عبد الرحمن الداخل بعد أن أقام دولة قوية في الأندلس سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وخلَفه ابنه هشام على إمارة الأندلس (٢) .

* * *

---

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٦٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ٥/ ٨٣ ، البيان المغرب ٢/ ٤٧ .

- مواقف هشام بن عبد الرحمن في الأعمال الجهادية والإصلاحية - .

مواقفه الجهادية :

من ذلك ماذكره ابن عذاري من أن أمير الأندلس هشام بن عبدالرحمن جهز جيشا بقيادة أبي عثمان عثمان بن عبيد الله بن عثمان إلى بلاد أَلَبَة والقلاع ، وأنه لقي بها أعداء الله بجموعهم متوافرين فهزمهم الله على يديه ، وقُتلوا في السهل والوعر وكان عدد قتلى الأعداء أكثر من تسعة آلاف وذلك في عام ستة وسبعين ومئة .

ثم ذكر أنه في هذه السنة جهز جيشا بقيادة يوسف بن بخت إلى جِلِّيقيَّة فالتقى ببرمود الكبير قائد الأعداء في تلك الناحية، وأنه جرت بينهم معركة انهزم فيها عدو الله وغنم المسلمون عسكره، وبلغ عدد قتلى الأعداء عشرة آلاف سوى من قتلوا بعد المعركة .

ثم ذكر أنه في سنة سبع وسبعين ومائة بعث جيشا بقيادة عبدالملك ابن عبد الواحد بن مغيث وذلك في فصل الصيف إلى أرض الروم التي تقع شمال الأندلس ، وأنه بقي شهوراً يقاتل الأعداء ويخرب الحصون ، ثم أوقع بمدينة أربونة ، وكان فتحا عظيما مشهورا، بلغ فيه خمس السبي خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين .

ثم ذكر ابن عذاري أنه في سنة تسع وسبعين ومائة أغزى الإمام هشام بن عبد الرحمن عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة ، حتى انتهى إلى مدينة أسترقة داخل جليقية . فبلغه أن إذفُونش قد حشد بلاده ، واستمد البشكنش وأهل تلك النواحي التي تليه من المجوس وغيرهم ، وأنه عَسْكَرَهم مابين حيز جليقية والصخرة، وأنه

أذن لسكان السهل بالتفرق في شواهق جبال السواحل. فقدَّم عبدالكريم فَرَج بن كنانة في أربعة آلاف فارس، ثم رحل في إثره، فألفى أعداء الله ، فواضعهم الحرب حتى هزمهم الله، فقتل حماتهم، وأسر جماعة منهم ، ثم أمر بعد انحلال الحرب بقتلهم، وبث الخيل في القرى ، فانتسفت جميع ما أَلْفَتْه من زروعهم، وخربت مامرت عليه من عمارتهم. وتقدم بعد ذلك إلى وادٍ يُقال له كُوثيَّة ، فلقي به غُنْدُماره وهو في ثلاثة آلاف فارس فقاتله حتى انهزم عسكره، وأخذ غُنْدُماره أسيرًا، وقُتل من أصحابه عددٌ كثيرٌ. وأصاب العسكر جميع مافي تلك الناحية. وتقدم مستنجزًا لإذفونش، فلما بلغه قصده إليه تنحَّى عن الجبل الذي كان فيه منحازًا عنه إلى حصن له، كان قد بناه وأتقنه على وادي نلُون ، فتقرب منه عبد الكريم مُقْتفيًا لأثره ، لا يمر بمنزل فيما بينه وبينه إلا حرَّقه، ولا بمال إلا أصابه، حتى أطل على الحصن فانتقل منه إلى حصن مُلكه . واحتل عبد الكريم بالحصن الذي انتقل منه، فألفى فيه الأطعمة وضروب الذُّخر، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فَرَج بن كنانة، في عشرة آلاف فارس ، يقفو أثره، فلما قرب منه ، انهزم عنه وأسلم جميع عُدَّته وذخره ، فغنم المسلمون جميع ذلك (١) .

وهذا الاهتمام الجيد من الأمير هشام بن عبد الرحمن يدل على عنايته بحماية الدولة الإسلامية وسعيه في إقرار الأمن للمسلمين، فإن الاستسلام لحياة الركود وتعطيل الجهاد يجعل الأعداء يطمعون في

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٦٣ - ٦٥ .

الإغارة على بلاد المسلمين ويأخذونهم على حين غفلة منهم، أما إذا كانت ذكريات جهاد المسلمين ماثلة في أذهانهم فإنهم يرغبون في السلامة ولايفكرون في غزو بلاد المسلمين .

مواقفه الإصلاحية :

من أمثلة عدله ورغبته في الإصلاح ماذكره ابن عذاري في ترجمته قال: وكان هشام يبعث إلى الكُوَر قومًا عدولاً يسألون الناس عن سير العمال، ثم ينصرفون إليه بماعندهم ، فيقع نظره بهدم ماتكشفه المحنة له منهم . وإعترض له يوما متظلمٌ من أحد عماله، فبدر إلى الشاكي من رجال العامل من ترخاه شفقة منه على العامل. فبعث إلى الشاكي وقال له : احلف على كل ماظلمك فيه، فإن كان ضربك ، فاضربه، أو هتك لك سترًا، فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً ، فخذ من ماله مثله، إلا أن يكون أصاب منك حدًّا من حدود الله ! فجعل الرجل لايحلف على شيء إلا أُقيد منه . فكان زجره هكذا لعماله أبلغ فيهم من النكال والأدب. وكان كريما عادلاً فاضلاً متواضعًا عاقلاً ، لم تُعرف منه هفوةٌ في حداثته ، ولازلةٌ في أيام صباه. ومن كرمه أنه كان يصرُّ أموالاً في صُرر ، ويخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقد المسجد ، فإذا وجد واحدًا يصلي في مسجد أو لايصلي وضع بين يديه صرةً ، حتى كثرت عمارة المساجد .

وكان -رحمه الله ! - قد نظر في بنيان قنطرة قُرْطُبة، وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة . وتولى بناءها بنفسه، وتعطى الأجرة بين يديه. قال ابن وضاح : لما بنى هشام القنطرة ، تكلم بعض الناس

فيـه، وقالوا : إنما بناها لتصـيُّده ونُزهته! فـحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة .

قال القاضي أبو معاوية : أدركتُ صدراً من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدَّعة والعافيـة والهدوء بحيث لم يُعلم لها مثلٌ. وكان يحضر الجنائز ، ويزاحم فيها، كأنه أحد من الناس، تواضعًا.

وكان لبعض رجال هشام خصومةٌ في دار عند القاضي مُصعب بن عمران، ، فسجَّل عليه القاضي فيها وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشـام ، وقـال لـه : إن القـاضي سـجَّل عليَّ فـي داري التي كنت أسكنها، وأخرجني عنها ! فقال له هشام : وماذا تُريد مني ؟ والله لو سـجَّل عليَّ القاضي في مـقعـدي هذا ، لخـرجت عنه ! انقيـادًا منه للحق، رحمة الله عليه ! [1] .

فهـذه أمثلة من اهتـمام الأميـر هشام بن عـبد الرحمـن بالدعوة والإصلاح والعدل ، وإذا قرنت هذه الاهتمـامات مع الاهتمام بالجهاد كان في ذلك ضمان لقوة الدولة الإسلامية وبقائها .

* * *

(١) البيان المغرب ٢/٦٦ .

مواقف الحكم بن هشام الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية :

تولى الإمرة بعد أبيه هشام الذي توفي في عام ثمانين ومائة، وقد كانت له مواقف جهادية ، فمن ذلك ماذكره المؤرخ ابن عذاري قال: وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة خرج رذريق صاحب إفرنجة إلى جهة طرطوشة فأغزى الحكم ابنه عبد الرحمن في جيش كثيف، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملي الثغر بالغزو معه بجميع أهل الثغر ، فتقدم عبد الرحمن بالجنود وتوافت عليه الحشود وحفَّت به المطَّوعة ، فألْفَوا الطاغية خارجا إلى بلاد المسلمين، ودارت بينهم حروب شديدة ثبَّت الله فيها أقدام المسلمين فانهزم المشركون ، وكانت فيهم مقتلة عظيمة، ففني أكثرهم .

وقال أيضا : وفي سنة أربع وتسعين ومائة غزا الحكم إلى أرض الشرك . وكان السبب في هذه الغزاة أن عباس بن ناصح الشاعر كان بمدينة الفَرَج (وهي وادي الحجارة) . وكان العدوُّ بسبب اشتغال الحكَم بماردة وتوجيه الصوائف إليها مدة من سبعة أعوام قد عظمت شوكته ، وقوى أمرُه . فشنَّ الغارات في أطراف الثغور، يسبي ويقتل. وسمع عباس بن ناصح امرأة في ناحية وادي الحجارة ، وهي تقول : واغوثاه ياحكَم ! قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنَّا ، حتى استأسد العدوُّ علينا ! فلما وفد عباس على الحكم ، رفع إليه شعراً يستصرخه فيه، ويذكر قول المرأة واستصراخها به، وأنهى إليه عباس ماهو عليه الثغر من الوهن والْتِيَاث الحال .فرثى الحكم للمسلمين، وحمِيَ لنصر

الدين، وأمر بالاستعداد للجهاد، وخرج غازيا إلى أرض الشرك ، فأوغل في بلادهم ، وافتتح الحصون ، وهدم المنازل، وقتل كثيرًا ، وأسر كذلك ، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم ، يصلحون به أحوالهم ويفدون سباياهم، وخصَّ المرأة وآثرها ، وأعطاهم عددًا من الأسرى عونًا . وأمر بضرب رقاب باقيهم ، وقال لأهل تلك الناحية وللمرأة: هل أغاثكم الحكَم ؟ قالوا : شفا والله الصُّدُورَ ، ونكى في العدوّ، وماغفل عنَّا إذ بلغه أمْرُنا ! فأغاثه الله وأعزَّ نصره !

ثم ذكر في حوادث سنة تسع وتسعين ومائة أن الحكم أغزى عمَّه عبد الله البلنْسيَّ الغزوة الشنيعة المشهورة، وكانت ببرشلونة: ألفى المشركين قد حلُّوا بها يوم احتلاله، وكان يوم الخميس ، فأراد من معه مناشبة الحرب ، وتشوفوا للقتال ، فمنعهم حتى إذا كان في اليوم الثاني ، وهو يوم الجمعة وقت الزوال ، أمر بتعبئة الكتائب، ونَصَبَ الرُّدود، وقام فصلى ركعتين ، ثم نادى في الناس ، وركب هو ومن معه ، وناهض أهل الشرك، وماأحسبه فعل ذلك إلا فقهًا وعلمًا وتأسيًا بحديث النبي ﷺ حيث أمر بالقتال في تلك الساعة، فإنَّ فيها تهبُّ الأرواح ، وتفتح أبواب الجنة ، وتستجاب الدعوات . فمنحهم الله أكتاف المشركين ، وانهزموا . وقتل عامتهم ، وفرَّق جمعهم . فلما أقلع عن القتال وانجلتْ الحرب، نصب قناةً طويلةً ، فاثبتت في الأرض ، وأمر بالرُّؤوس ، فجُمعت وطُرحت حَوَاليها حتى غابت القناةُ فيها ولم تظهر .

ثم ذكر في حوادث سنة مائتين أن الحكم أغزى وزيره عبد الكريم ابن مغيث إلى بلاد المشركين، فدخلها وتوسطها ، وأهلك معائشها ومرافقها، وحطم زُروعها، وهدم منازلها وحصونها، حتى استوفى جميع قرى وادي أرون. فحشدت إليه الطاغية - دمرها الله - وانجلبت النصرانية من كل مكان ، وأقبلت الجموع ، ونزلت بعدوة نهر أرُون، وصار النهر حاجزاً بينهم وبين المسلمين. فلما أصبح نهض عبد الكريم بمن معه إلى مخائض الوادي ، ونهض أعداء الله إليهم، فقاتلوهم على كلّ مخاضة منها ، فجالدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين ، واقتحم أعداء الله النهر إليهم ، فاقتتلوا على مخاضته ، ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقةً ، فأضغطوهم في المضايق ، وأدخلوهم على غير طريق ، فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح والغرق في المياه ، فقتل من المشركين عددٌ عظيمٌ لايُحصى كثرةً ، ومات أكثرهم بالتردي ودرس بعضهم بعضا، وصاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالرماح والسيوف إلى القذف بالحجارة ، وأكثروا الحُرَّاس بالمخائض ، ووعروها بالخشب، وحفروا الحفائر ، وخندقوا الخنادق . ونزلت الأمطار ، وكان قد فرغ ماكان لأعداء الله من المرافق ، وضاقت الحال أيضا بالمسلمين ، فقفل عبد الكريم ظافراً لسبع خلون من ذي القعدة [1] .

في هذه الأخبار مثل من اهتمام أمير الأندلس الحكم بن هشام بأمر الجهاد وحماية دار الإسلام .

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٧٢ - ٧٥ .

وفي خبر المرأة التي استغاثت بالحكم مثل من الغرب يشبه ماجرى في الشرق من تلك المرأة التي استغاثت بأمير المؤمنين المعتصم بالله العباسي ، ولقد اشتهر خبر المعتصم ولم يشتهر خبر الحكَم لسهولة تداول تاريخ المشرق ، ولقد قام كل واحد من الأميرين بالجهاد وإغاثة المرأة التي استغاثت به .

وهكذا يتحفنا تاريخ قادة المسلمين بالروائع الجهادية في المشرق والمغرب، حيث يرى أولئك القادة أن سعادتهم الروحية ليست في التقلب في نعيم الدنيا ، وإنما هي في إغاثة الملهوفين وإنقاذ المكروبين وإعزاز الإسلام والمسلمين وإذلال الكفر والكافرين .

من مواقفه الإصلاحية :

من أخبار اهتمامه بالعدل ماذكره ابن عذاري في ترجمته قال: كان الحكم - رحمه الله - شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تُتَّقَى. وكان حسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته، وكان مبسوط اليد، وكان له قاض كفاه بورعه وعلمه وزهده، فمرض مرضا شديداً، فاغتم الحكَم لمرضه ، فذكر بعض خاصته أنه أرق ليلةً أرقًا شديداً ، وجعل يتململ على فراشه، فقيل له : أصلح الله الأمير ! ما الذي عرض ؟ فقال : ويْحكُم ! إني سمعت في هذه الليلة نادبةً ، وقاضينا مريضٌ ، وماأراه إلا وقد قضى نحبه . فأين لي بمثله ، ومن يقوم بالرعية مقامه ؟ فمات القاضي في تلك الليلة وهو المُصعب بن عمران قاضي أبيه . فولى بعده محمد بن بشير .

فكان أقصد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأنفذهم

بحكم. ورفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عــاملا للحكم اغتصبه جاريةً ، وصــيرها إلى الحكم ، فـوقعت من قلب الحكــم كل موقع، فأثبت الرجل أمره عند القاضي ، وأتاه ببينه تشهد على معرفة ماتظلم منه وبملكه للجارية وبمعرفـتهم بها، فأوجبت السُّنَّةُ أن تحـضر الجارية، فاستأذن القاضي على الحكم ، فـأذن له ، فلما دخل عليه ، قال له: أيها الأمير ! إنه لايتم عدلٌ في العامة دون إقامته في الخاصة ! وحكى له أمر الجارية ، وخيره بين إبرازها للبينة ليـشهد على عينها أو عزله، فقــال له الحكم : أوَلا أدعوك إلى خيــر من ذلك ! تبتــاع الجارية من صاحبها بأبلــغ مايطلب فيها . فقال القاضي : إنَّ الشــهود قد شهدوا من كــورة جيــان ، وأتى الرجل يطلب الحق في مظــانه ، فلما صــار ببابك ، تصرفه دون إنفاذ الحق له، ولعل قائلاً يقول : باع مالا يملك بيع مقــهور ، فلمــا رأى عزمــه على ذلك ، أمر بإخــراج الجارية من قصره، فشهد الشهودُ عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها .

قال : وكان هذا القاضي محمد بــن بشير ، إذا خرج للمسجد، وجلس للأحكام، جلس في رداءٍ معُصْفَر ، وشــعر مفرَّق، فإذا طُلب ماعنده وُجِد أفضل الناس وأورعهم .

وكان الحكم يقول : ماتحلَّى الخلفاءُ بمثل العدل ! [1] .

وهكذا يضرب الحكم مثالا من أروع الأمثــلة على الاهتمام بتعيين القضــاة الأكفــاء ويخضع لتطبــيق الحق حينمــا يتوجــه عليه، ويشــيد بالخلفاء الذين يتحلون بالعــدل، وهذه أفعال وأقوال حمــيدة، وخاصة

---

(١) البيان المغرب ٧٨/٢ - ٧٩ .

حينما تصدر ممن هم في أعلى قمة من المسئولية في بلادهم، وهي إلى جانب كونهـا من المُثل العالية التي تربَّى عليـها هؤلاء الأمراء في ظل تطبيق الإسلام فإنها من التجارب السياسية التي توارثها الساسة وعرفوا أن بها صلاح الدول والشعوب .

وفي هذا الخبر موقف جليل للقاضي محـمد بن بشير حيث أصر على الحكم بالعدل وإنفاذ الحق حتى على الحاكم ، وهو موقف يضاف إلى مواقـف القضاة الـعالية الـتي أقروا فيـها العـدالة وحفظوا لـلأمة الإسلامية أمنها وقوتها .

* * *

مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن ابن الحكم.

تولى إمرة الأندلس بعد موت جده عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم وذلك في عام ثلاثمائة [1].

كان له غزوات كثيرة ضد النصارى، قاد بعضها بنفسه وأسند قيادة بعضها لقادته ، وسأعرض نماذج من أبرز الغزوات التي تمت في عهده باختصار ، فمن ذلك :

غزوة مُطُونية :

وكانت في العام السادس والثلاثمائة حيث جهز أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر حملة بقيادة حاجبه بدر بن أحمد إلى دار الحرب، وكان سبب ذلك أن النصارى تطاولوا على من بجوارهم من أهل الثغور من المسلمين لما انقطعت الغزوات الصيفية لبلادهم ، فخرج إليهم الجيش الإسلامي بعدما تجمعت أمداده من أنحاء البلاد في يوم الثلاثاء لخمس بقين من شهر محرم ، وقد تجمع الأعداء وحشدوا قواتهم، فجرت بينهم وبين المسلمين معركة حامية انتصر فيها المسلمون وشفى الله صدورهم من أعدائهم ، وقتل من الأعداء عدد كبير وأسر منهم كذلك ، وكان الفتح يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول ويوم السبت لخمس خلون من ربيع الأول [2] .

---

(١) الكامل في التاريخ ٦/ ١٤٣ .

(٢) البيان المغرب ٢/ ١٧٢ بتصرف .

غزوة بلدة :

وفي شهر ذي الحجة من عام ستة وثلاثمائة غزا الناصر لدين الله بنفسه مدينة بلدة ، وقد مر في طريقه بحصن دوش أمانتش فنازله وحاربه حتى افتتحه ، ثم نهض إلى مدينة بلدة فحاصرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي الحجة ، فنزل من كان بها منْ المسلمين وذكروا أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأمَّنهم الناصر وقاتل الكفار في المدينة حتى أظفره الله بهم فقُتلوا عن آخرهم وملك المسلمون المدينة، واستولوا على بعض الحصون المجاورة [1].

غزوة مُويش :

وفي سنة ثمان وثلاثمائة غزا أمير المؤمنين الناصر دار الحرب، حيث خرج من قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر المحرم، وبعد أربعة أيام ورد عليه كتاب فتح من عامله على مدينة الفرج يذكر فيه أن المشركين من أهل جليقية أتوهم في جمع كثير وأن الله تعالى منحهم أكتاف الكفرة فقتلوا وأسروا كثيرا منهم فاستبشر الناصر وتفاءل باسم المحلة التي كان فيها يوم أن ورد عليه كتاب النصر وهي مخاضة الفتح .

وقد استمر الناصر في مسيره نحو بلاد العدو وأظهر التوجه إلى الثغر الأقصى ثم عرج بالجيش إلى طريق آلبة والقلاع ، ثم بعث سعيد بن المنذر الوزير في سرية إلى حصن وُخْشُمة فأغذَّ السير حتى قرب من الحصن ، وسرح الخيل يمنة ويسرة ، والمشركون في سكون

(١) المرجع السابق ٢/ ١٧٣ بتصرف .

وغفلة، إذ كان أميرهم قد كاتب أمير المؤمنين مكايداً له بمحاولة إبعاده عن بلاده بمواعيد وعدها من نفسه فأظهر أمير المؤمنين الناصر قبول ذلك منهم وأضمر الكيد بهم فغشيتهم الخيل المغيرة على حين غفلة فأصابوا مواشيهم ودوابهم فغنموها ورجعوا إلى العسكر سالمين، ثم كان هجوم الجيش على ذلك الحصن ففرَّ منه الكفار وأخلوه وذلك في صباح الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر .

ثم رحل أمير المؤمنين الناصر إلى حصن قاشترمورش وهو قاعدة الكفار هناك والموضع الذي كانوا يغيرون منه على المسلمين، فلما رآهم أعداء الله أخلوا الحصن وخرجوا هاربين، فدخله المسلمون وغنموا جميع مافيه ، وخربوا حصن القُبِلَّة المجاور له .

ثم ارتحل الناصر بالمسلمين إلى مدينة قُلُونية وكانت من أمهات مدنهم فاستولوا على ماحولها ثم وجدوها خالية قد شرد عنها أهلها إلى الجبال المجاورة لهم ، فغنم المسلمون جميع ماأصابوا فيها .

ثم ارتحل الناصر لخمس بقين من صفر إلى ثغر تطيلة لنجدة المسلمين بها حيث كان زعيم النصارى « شانُجه » قد ضايقهم وأخافهم، فسار بالمسلمين برفق لئلا يشق عليهم لاتصال سفرهم حتى وصل إلى تطيلة ، ثم قدَّم الخيل مع محمد بن لُبّ عاملها إلى حصن قَلَهُرَّة الذي اتخذه شانجه للإغارة على أهل تطيلة ، فلما قصدته الخيل أخلاه من كان فيه واستولى عليه المسلمون ، وبقي الناصر يومين حتى خربه وغنم مافيه واستولى على ماحوله .

ثم رحل بالجيوش يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول قاصداً

زعيم النصارى « شانجه » ، فخرج شانجه من حصن أرنيط بجيشه وتعرض لمقدمة جيش المسلمين فتبادر إليه الشجعان فانهزم الكفار وركبتهم الخيل ، فقتل من الكفار من قتل وفر بقيتهم إلى الجبال ، وحاز المسلمون كثيراً من رؤوس قتلى المشركين وتلقَّوا بها أمير المؤمنين الناصر ولم يكن له علم بالمعركة .

وورد الخبر على الناصر باجتماع أرذون وشانجه واستمداد بعضهما ببعض طامعين في اعتراض مقدمة جيش المسلمين أو قطع ساقتهم ، فأمر الناصر بتعبئة العساكر وضبط أطرافها ، ثم نهض بهم موغلا في بلاد الأعداء ، فأشرفوا من الصخور والجبال المنيعة وتعرضوا لأطراف جيش المسلمين ، وجعلوا يتصايحون ويولولون ليضعفوا من قلوب المسلمين ، فأمر الناصر بالنزول وإقامة الأبنية ، فلما نزل الأعداء من الجبال قاتلهم المسلمون فهزموهم وساروا خلفهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم ، ولجأ عند الهزيمة أكثر من ألف من الأعداء إلى حصن مويش فأحاط به المسلمون من جميع جهاته وحاربوا من لجأ إليه حتى فتحوه واخرجوا جميع من فيه وقتلوهم ، واستولوا على مافيه وماحوله [1] .

غزوة طُرُّش :

وفي يوم السبت الثامن من محرم سنة تسع وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر إلى « كورة رية » حتى نزل على حصن « طرش » وكان النصارى قد اجتمعوا فيه وتحصنوا به فحاصرهم المسلمون من

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٧٥ ، بتصرف .

جميع الجـهات ونصبوا المنجنيـقات على المرتفعات القـريبة منه، وكان الأعداء يبرزون في أول الأمر للقتال حـتى مزقتهم الحرب وقل عددهم فأغلقوا الحصن على أنـفسهم ، فاستمر المسلمـون في حصارهم حتى أخذهم الجهد وأشفقوا من الهلاك فـخاطبوا أمير المؤمنين ضارعين إليه في تأمينهم على أن يسلموا الحصن ويخرجوا عنه، فأجابهم إلى ذلك، فدخله المسلمـون وخرج منه النصارى ، ثم هُدم وأُلقيت أحـجاره في النهر، وبُني في موضع الكنيسة مسجد جامع [1].

غزوة مُنْت رُوبي :

وفي يوم السبت لعشر خلون من المحرم عام عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصـر لغزو كورة ألبيرة ، وسـار حتى نزل على حصن منت روبي ، وكان جبلا منيعا بـعيد المرام، وكان العجم قد لاذوا به، وهو متوسط بين كـورة ألبيرة وكورة جيـان وعلى طريق بجانة، فكان من سلك تلك السبيل مـن وارد أو صادر لايسلم من عادية أهل ذلك الحصن، وكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأمـوال، فأقام عليهم الأمير الناصر خمسـة وثلاثين يوما محاصرا حتى أباد كـثيراً منهم، ثم أبقى على الحـصن من جنوده من استـمـر على محـاصرتهم، وتقـدم إلى حـصون قـريبة في ألبـيرة ورية فـحـارب أهلها وأبقى من قـادته من يحـاصـرونهـا ، حـتى ضـعف الأعـداء ولم يبق لهم وجـود يضـر بالمسلمين[2].

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٨٠ ، بتصرف .

(١) المرجع السابق ٢/ ١٨٢ بتصرف .

غزوة بَنْبلونة :

وفي يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لدين الله لغزو بنبلونه ، وقد سار في عسكر كبير حتى دخل ثغر تطيلة فانضم إليه جنود من أهل ذلك الثغر ، ثم دخل بلاد المشركين يوم السبت لأربع خلون من ربيع الآخر فنزل من أول بلادهم على حصن قَلَهُرَّه ، وكان زعيم النصارى « شانجه » قد أخلاه ، فأمر الناصر بهدمه، ثم انتقل إلى بيطرة آلْتَه ، وكانت هناك حصون مانعة فأخلاها الأعداء ، ولجأ بعضهم إلى غيرانٍ في شفير جرف على النهر، فلم يزل المسلمون يتعلقون إليهم فيها ويتسورون عليهم من أعاليها حتى فتح الله عليهم فقتلوا الرجال وسبوا الذراري وغنموا الأمتعة .

ثم انتقل الناصر بعد ذلك إلى عدد من حصون الأعداء فاستولى عليها، وعزم على الدخول إليهم في عقر دارهم فدخل في مواضع لم يدخلها المسلمون قبل ذلك حتى نزل بقرية بَشْكُونشة التي ينسب إليها «شانجه » ، فجمع هذا القائد جنوده واستمد بالنصارى من كل مكان، فأمر الناصر بالتعبئة والاستعداد للحرب واثقا بالله - عز وجل- ومتوكلا عليه ، فسلك بجيشه بين جبال شامخة ، ورجا أعداء الله اقتطاع بعض جيش المسلمين وهبطوا من الجبال فدارت بينهم وبين المسلمين مناوشة يسيرة، ثم نهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود فعبروا النهر إليهم وصمموا بالحملة عليهم حتى اقتلعوهم عن موضعهم وهزموهم حتى اضطروهم إلى مرتقًى وعر فاقتحم المسلمون

عليهم وسهل الله لهم وعره فقتلوا جملة منهم وغنموا كثيرا من أموالهم ، وانصرفوا سالمين لم يصب منهم غير عدد قليل فازوا بالشهادة [1] .

وبعد فهذه أمثلة من الغزوات التي قام بها أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر لدين الله، وهذه الأمثلة تبين لنا الجهود الكبيرة التي بذلها حكام الأندلس وقادتهم وجنودهم في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين وتثبيت الدولة الإسلامية ، ومن هذه الأمثلة وغيرها ندرك أن ما اشتهر عن حكام الأندلس من أنهم كانوا يتقلبون في أنواع من النعيم ليس على إطلاقه، بل إن ذلك الرخاء والنعيم لم يتوفر لهم إلا في ظل رايات الجهاد الخفاقة التي اندحر بها الأعداء واستسلموا لقوة المسلمين .

* * *

---

(1) المرجع السابق ٢/ ١٨٥ بتصرف .

مواقف المنصور محمد بن أبي عامر الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية :

بعد أن توفي الحكم بن عبد الرحمن في عام ستة وستين وثلاثمائة تولى بعده ابنه هشام وكان ابن اثنتي عشرة سنة وكان أمر دولته لوزير أبيه جعفر بن عثمان المصحفي ، وكان لابن أبي عامر دور قوي في السياسة في عهد الحكم بن عبد الرحمن فرقّاه هشام إلى رتبة الوزارة، ثم استأثر ابن أبي عامر بالحكم وتخلص من جعفر بن أبي عثمان، ومن بعض القادة الذين ينافسونه في الحكم حتى انفرد أخيرًا بشئون الحكم، وكان يحكم باسم الأمير هشام [1] ، ومع ماوقع فيه من تدبير المؤامرات وقتل المنافسين فإن له مواقف جهادية كثيرة .

ومن أبرز غزواته غزوة « شَنت ياقوب» وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري هذه الغزوة بقوله :

وعند تناهي المنصور ابن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار، والنصر على الملوك الطاغية (دمرها الله) ، سما إلى مدينة شَنْت يَاقُوب بها من الأرض الكبيرة . وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رُومة وماوراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحواري أحد الإثني عشر رحمهم الله ، وكان أخصهم بعيسى عليه السلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياهُ . وقد زعم جماعةٌ منهم أنه ابن يوسف النجار. وشنت ياقوب هي مدفن ياقوب، فهم يسمونه أخا الرب (تعالى الله عن

(١) انظر الأموين بين الشرق والغرب / ٣٨٠ - ٣٨٨ .

قولهم عُلواً كـبيـراً) ويعاقوب بلسانهم يعـقوب، وكـان أُسْقُفًـا ببيت المقدس، فجعل يستقري الأَرَضين داعـيًا لمن فيها، فجاز إلى الأندلس حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فقتل بها، وله مائة وعشـرون سنة شمسيـة. فاحتمل أصـحابه رمته، فـدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم يطمع أحدٌ من ملوك الإسلام في قصدها، ولا الوصول إليها ، لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها، وبُعد شُقَّتها .

فخرج المنصـور إليها من قُرطبة غازيًا بالصـائفة يوم السبت لست بقين من جمـادى الآخرة سنة سـبع وثمانين وثلاثمـائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون.

ثم ذكـر خطوات مـسـيـره إلى أن قـال : ثم نـهض يريد شنت ياقوب، فقطع أَرَضين متباعدة الأقطار ، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجـان يمدها البحـر الأخضر . ثم أفـضى العسكر بعـد ذلك إلى بسائط جليـلة من بلاد فلطارش ومباسـيطة والدير ومايتـصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر،لامـسلك فيه ولاطريق ، لـم تهتد الأدلاء إلى سواه. فقدَّم المنصور الفَعَلَة بالحديد لتـوسعة شعابه وتسهيل مسالـكه، فقطعه العسكر وعـبروا بعده وادي منيُه، وانبـسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأَرَضين أَرِيضة، وانتهت مَغيرَتُهم إلى دَير قَسـطان وبسيط بلبنوط على البـحر المحـيط ، وفتـحوا حـصن شنت بلايه،وغنموه ،وعبروا سِبَاحَةً إلى جزيرة من البحر المحـيط لجأ إليها خلقٌ عظيمٌ من أهل تلك النواحي، فـسبوا من فـيها ممن لجأ إليـها .

وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتَّصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه .

ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليج لورقى في معبرين أرشد الأدلاء إليهما، ثم نهر إيله، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة، كثيرة الفائدة، منها بسيط أونبة وقرجيطة ودير شنت برية. ثم انتهوا إلى خليج إيلياء، وهو من مشاهد ياقوب أيضا صاحب القبر، تلو مشهد قبره عن النصارى في الفضل، يقصد نُساكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها . فغادره المسلمون فارغًا .

وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقوب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعفوا آثارها . ووكَّل المنصور بقبر ياقوب من يحفظه ويدفع الأذى عنه .

إلى أن قال : وإنكفأ المنصور عن باب شنت ياقوب، وقد بلغ غايةً لم يبلغها مسلمٌ قبله .

قال : ولم يجد المنصور بشنت ياقوب إلا شيخا من الرُّهبان جالسًا على القبر، فسأله عن مُقامه، فقال: أؤانس يعقوب. فأمر المنصور بالكفّ عنه (1).

فهذه غزوة من غزوات المنصور ابن أبي عامر الكثيرة، وقد خصصتها بالذكر لما فيها من المغامرات التي لم يسبق إليها في تلك البلاد، ولعل الذي دفعه إلى هذه المغامرات وتدمير ماوصل إليه من

(1) البيان المغرب ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٧ باختصار .

عامر تلك البــلاد الجبلية هو كون تلك المناطق الوعرة مــلاذًا للمخربين من النصارى الذين يقومون بالهجوم على بلاد المسلمين ثم يلجئون إلى تلك البلاد التي لم يكونوا يتوقعون أن أحدًا من الغزاة سيصل إليها .

قال ابن عذاري : وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة توفي المنصور ابن أبي عامــر رحمــه الله تعالى ، قــال: وكانت عدة غــزواته سبــعا وخمــسين غزوة بــاشرها كلهــا بنفســه ، وهو في أكثــرها يشكو علة النقرس، عفا الله تعالى عنا وعنه (١).

من مواقفه الإصلاحية :

وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري نبذة من إصلاحات ابن أبي عامر ومن ذلك : بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم . ابتدأ المنصور بنيانها سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وثمانين وثلاثمــائة ، وانتهت النفـقة عليــها إلى مــائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة ، وصارت صدراً في مناقبه الجليلة. وكانت قطعة أرض لشيخ مــن العامة ، ولم يكن للقنطرة عُدُولٌ عنهــا، فأمر المنصور أمناءه بإرضــائه فيــها ، فحــضر الشيخ عندهم، وأخــذ حذره منهم، فســاوموه بالقطعة وعــرفوه وجه الحــاجة إليهــا ، وأن المنصور لايريد إلا إنصافه فيــها . فرماهم الشيخ بالغرض الأقــصى عنده فيما ظنه : أن لا تخــرج عنه بأقل من عــشرة دنانيــر ذهبًا ، كــانت عنده أقصى الأمنيــة، وشرطها صحاحًــا . فاغتنم الأمناء غفلــته ، ونقدوه الثمن، وأشــهدوا عليه ، ثم أخــبروا المنصــور بخبره ، فــضحك من

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٣٠١ .

جهالته، وأنف في غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ماسأل ، وتدفع له صحاحًا كما قال . فقبض الشيخ مائة دينار ذهبًا ، فكاد أن يخرج عن عقله وأن يجنَّ عند قبضها من الفرح، وجاء محتفلاً في شكر المنصور. وصارت قصته خبرًا سائرًا .

ومن ذلك أيضا : بنيان قنطرة على نهر إستجة ، وهو نهر شنيل، فتجشم لها أعظم مؤنة . وسهَّل الطُّرق الوعرة والشعاب الصعبة [(١)].

فهذان مثلان من الإصلاحات العامة التي قام بها، ومما يلفت النظر في الخبر الأول رحمته بذلك الشيخ وتورعه عن غبنه، فهو لم يغتنم فرصة جهله بالأسعار كما فعل أصحابه، بل أعطاه حقه وزيادة على ذلك ، فهذا يدل على تنزهه من الظلم وإن كان ذلك غير معلوم لمن سيقع عليه .

قال : ومن ذلك أنه خط بيده مصحفًا كان يحمله معه في أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به .

ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله ، حتى اجتمع له منه صُرةٌ ضخمة عهد بتصييره في حنوطه عند موته ، وكان يحمله حيث ماسار مع أكفانه ، توقعًا لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك [(٢)] .

---

(١) البيان المغرب ٢/٢٨٨ .

(٢) المرجع السابق ٢/٢٨٨ .

وهذان الخبـران يدلان على قوة دينه وعـمق استحـضاره للحـياة الآخرة وتعظيمه لكتاب الله تعالى والجهاد في سبيله .

قـال : وكان عـدل المنصـور في الخـاصـة والعامـة . واطِّراحـه المهاودة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمرًا مضروبًا به المثل .

ومن عدله أنـه وقف عليه رجلٌ من العـامة يومًا بمجلـسه فناداه: ياناصـر الحق إن لي مظلمـة عنـد ذلك الوصـيف الذي على رأسك! وأشار إلى الفـتى صاحب الدرقة . وكان له فـضلُ محل عند ابن أبي عامر ، ثم قال : وقد دعوته إلى الحاكم ، فلم يأت ! فقال المنصور: أَوَعبـد الرحمن بن فـطيس بهذه المنزلة من العـجز والمهـانة وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ اذكر مـظلمتك ياهذا ! فذكر الرجل مـعاملةً كانت جارية بينهـما قطعها من غيـر نصف، فقال المنصور : مـاأعظم بليتنا بهذه الحاشية ! ثم نظر إلى الصّقْلَبيّ ،وهو قد ذهل عقله، فقال: ادفع الدرقة إلى فـلان ، وانزل صاغرًا ، وساو خـصمك في مقامـه حتى يرفعك الحقُّ أو يضعك ! ففـعل ، ومثُل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخـاص به : خُذ بيد هذا الظالم الفاسق ، وقدمه مع خـصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمـه بأغلظ مايوجبه الحق من سجن أو غيره ! فـفعل ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكرًا ، فـقال له المنصور: قد انـتصفـت أنت فاذهب لسـبيلك ، وبقى انتـصافي أنا ممن تـهاون بمنزلتي. فتناول الصقلبيَّ بأنواع من المذلة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك ، قـصة فـتاه الكبـير المـعروف بالميـورقي مع التاجـر

المغربي، فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور، وإليه أمر داره وحرمه، فدافع الحاكم ، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه ، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلمًا من الفتى ، فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه .

ومن ذلك ، قصة محمد ، فصَّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يومًا إلى الفصد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد ، فألفاه الرسول محبوسًا في سجن القاضي محمد بن زرب ، لِحَيْف ظهر منه على امرأته. قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة . فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رُقباء السجن، يلزمه إلى أن يفرغ عن عمله، ثم يعيده إلى محبسه . ففعل ذلك على مارسمه، وذهب الفاصد إلى شكوى ماناله،فقطع عليه المنصور ،وقال له: يامحمد، إنه القاضي وهو في عدله،ولو أخذني الحقُّ ماأطقتُ الامتناع منه ! عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق فهو الذي يطلقك . فانكسر الحاجم، وزال عنه ريحُ العناية . وبلغت قصته للقاضي، فصالحه مع زوجه ، وزاد القاضي شدةً في أحكامه [1].

فهذه الأخبار الثلاثة تدل على عدله وإنصافه أهل الحق من ظالميهم وإن كانوا من المقربين إليه ، وفي الخبر الأول نراه يُنحِي

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

باللائمة على ذلك القاضي الذي عجز عن استقدام المدعى عليه لكونه من المقـربين للمنصور ، فـهو يـرى بذلك أن القاضي يجب عليـه أن يكون قويا وأن لاتأخذه في الحق لومة لائم وأن لايفـرق في الخصومة بين كبير أو صغيـر ، ثم إنه بعد أن أخذ المظلوم حقه نراه يعاقب ذلك الفتى الظالم عقـوبة خاصة لكونه استغل قربه منه فـامتنع من الحضور إلى مجلس القضاء .

قـال : ومن ذلك قـصـة الجوهري الـتاجـر ، وذلك أن رجـلا جوهريًا من تجار المشـرق قصد المنصور من مدينة عدن بجـوهر كثير، وأحجـار نفيسـة ، فأخذ المنصـور من ذلك مااستـحسنه ، ودفع إلى الجوهـري التاجـر صُرَّته ، وكـانت قطعة يمانيـة . فأخـذ التاجـر في انصرافـه طريق الرَّملة على شط النهـر ، فلما توسطـها واليومُ قـائظٌ وعرقُه مُـنْصبٌ دعته نفسـه إلى التبرد في النهر ، فـوضع ثيابه وتلك الصُّرة على الشط ، فمرت حدأةٌ ، فاختطفت الصرة ، تحسبها لحما، وصاعـدت في الأفق بها ذاهبـة ، فقطعت الأفق الذي تنظـر إليه عين التاجـر ، فقـامت قيامـته وعلم أنه لايقـدر أن يستدفـع ذلك بعدوى ولابحيلة ، فأسـرَّ الحزن في نفسه، ولحقـته لأجل ذلك علةٌ اضطرب فيـها . وحـضر الدفع إلى التجـار ، فحـضر الرجل لذلك بنفـسه، فاسـتبان له مـابه من المهانة والكآبة ، وفـقد ماكـان عنده من النشاط وشدة العارضة . فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقـوع الأمر ؟ فكنا نستظهر على الحـيلة، فهل هَديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ؟ قال: مرَّ مُشرقًا على سَمْت

هذه الجنان الذي يلي قصرك ! يعني الرملة ، فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة ، فمضى ، وجاء بهم سريعًا ، فأمرهم بالبحث عمن غيَّر حال الإقلال منهم سريعًا ، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج ، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يامولانا ! مانعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السَّقي بأقدامهم عجزًا عن شراء دابة، فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة . فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور، فاستدناه والتاجر حاضرٌ ، وقال له : سببٌ ضاع منا وسقط إليك مافعلت به ؟ فقال: هو ذا يامولاي ؟ وضرب بيده إلى حجزة سراويله، فأخرج الصرة بعينها ، فصاح التاجر طربًا وكاد يطير فرحًا، فقال له المنصور : صف لي حديثها. قال : نعم ! بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة ، إذا سقطت أمامي ، فأخذتها، وراقني منظرها، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاحترزت بها، ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عُيُونًا كانت معها مصرورة ، وقلت: أقلُّ مايكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها . فأعجب المنصور ماكان منه ، وقال للتاجر : خُذ صرتك ، وانظرها ، واصدقني عن عددها . ففعل وقال : وحق رأسك ، يامولاي ، ماضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها ،وقد وهبتها له. فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ، ولانقص عليك فرحتك. ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان ثوابه موفوراً عليه . ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا من دنانيره وللجنَّان بعشرة دنانير ثوابا لتأنيه عن

إفساد ماوقع بيده، وقال : لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث ، لأوسعناه جـزاءً ! قال : فـأخذ التـاجر في الثناء على المنصـور ، وقد عـاوده نشـاطه، وقـال: والله لأبثنَّ في الأقطار عظيـم ملكك، ولأبينن أنك تملك طير عملك كما تملك إنسها ، فلا تعتصم منك ولاتؤذي جارك! فضحـك المنصور ، وقال: اقصـد في قولك يغفر الله لك ! فـعجب الناس من تلطف المنصور في أمره ، وحيلته في تفريج كربته [1].

فهذا مثال على دهاء المنصور ابـن أبي عامر ودقة ملاحظته، وهذا التفوق في النظر في القـضايا والبحث الدقيق في خفاياها ومـلابساتها إنما هو بالدرجة الأولـى توفيق من الله تعالى لمن حـملوا في أفكارهم همـوم الأمة وأصـبح إحقـاق الحق وإبطال الباطل مطلبـهم الكبـير، فالذهن في هذه الحال يتفـتق عن أنواع من مجالات الحلول التي يصل بها صاحبها إلى حل القضايا المشكلة ومعرفة الأمور المغيبة .

* * *

---

(١) البيان المغرب ٢/٢٨٨ - ٢٩٢ .

جهاد المرابطين في الأندلس

قبل أن أتحدث عن دور المرابطين في الجهاد في الأندلس أحب أن أعطي نبذة موجزة عن دولة المرابطين .

وأصل نشوء هذه الدولة التي حكمت بلاد المغرب والأندلس يعود إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي الصنهاجي ، أمير جدالة ، فإنه قد شعر بما كان عليه قومه من الجهل بالدين وعدم وجود علماء يعلمونهم ويذكرونهم ، فلما رجع من الحج عام أربعين وأربعمائة مرَّ على القيروان واتصل هو وجماعته بالعالم المربي أبي عمران بن موسى بن عيسى الفاسي فطلبوا منه أن يرسل معهم عالما يفقههم في أمور دينهم، فأحالهم إلى تلميذه العابد المربي وجاج بن زللو اللمطي ، الذي بني له- بعد تخرجه من شيخه - رباطا في الصحراء الكبرى في«نفيس» واجتمع حوله فيه تلامذته ، وكتب الشيخ إلى تلميذه هذا مع يحيى ابن إبراهيم « ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم . واللهُ لا يضيع أجر من أحسن عملا » .

وقد وقع اختيار الشيخ « وجاج اللمطي » على تلميذه « عبد الله ابن ياسين الجزولي » وكان اختياراً موفقًا كما تبين فيما بعد، حيث كان عبد الله هذا هو منشيءَ دعوة المرابطين وأستاذَ زعمائهم، وسار عبد الله بن ياسين نحو ديار الملثمين من جدالة ولمتونة مع يحيى بن إبراهيم ، وكان يحيى يقدِّمه لكل قبيله يتوجه لدعوتها بقوله « هذا

عبد الله بن ياسين محيي السنة » وقد أثار إعجاب قبائل البربر بعلمه وأخلاقه حتى قال أحد شيوخهم : أرأيتم هذا الجمل ! لابد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم .

وبدأ ابن ياسين دعوته بالوعظ والتعليم فأحبه الناس وأقبلوا عليه، ثم بدأ بإصلاح المجتمع وإنكار المنكرات وتطبيق أحكام الإسلام على العامة والكبراء ، فقاومه بعض الأكابر الذين يرفضون من الإسلام ماخالف أهواءهم فهدموا داره ونهبوا مافيها .

عند ذلك فكَّر هو وصاحبه يحى بن إبراهيم في إنشاء رباط في جزيرة منعزلة عند مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي، وتوافد التلاميذ على ذلك الرباط يتعلمون العلم الديني ويتلقون التربية الأخلاقية والجهادية ، وقد توسع ذلك الرباط حتى بلغ عدد جماعته أكثر من ثلاثة آلاف [1] ومن هؤلاء التلاميذ تكونت فرق المجاهدين التي أنشأت دولة المرابطين بعد جهاد طويل قاده منشئ هذه الدعوة عبد الله ابن ياسين، بمؤازرة صاحبه يحيى بن إبراهيم الجدالي، ثم بقيادة يحيى بن عمر اللمتوني، ثم أخيه أبي بكر بن عمر، إلى أن آل الأمر إلى يوسف بن تاشفين الذي وسع الجهاد وأقام دولة المرابطين الواسعة .

سبب جهاد المرابطين في الأندلس :

بعد أن سقطت إمارة طليطلة وأصبحت كل إمارات الأندلس مهددة بالسقوط في أيدي النصارى اهتم علماء الأندلس ووجهاؤها

(١) البيان المغرب لابن عذاري ٤/ ٧ - ٢٤، أمير المسلمين ابن تاشفين لإبراهيم الجمل/ ٣٧ - ٤٩ ، التاريخ الأندلسي / ٤١٩ - ٤٢٠ .

بسبيل إنقـاذ وضعهم المتدهور ، فاتّجـهتْ أنظارهم إلى طلب النجدة من أميـر المرابطين في المغرب ، ووافقهـم بعض حكامهم على ذلك، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ، فأرسلوا رسلهم إلى الأمير يوسف بن تاشفين ليسرع إلى نجدتهم [1] .

معركة الزّلاقة :

وبعـد أن وصلت رسل الأندلس إلى ابن تاشـفين يطلبون نجـدته سارع إلى ذلك بعد استشارة أهل الرأي ، وقد عبرت الجيوش المرابطية إلى الأندلس على دفعات حتى تكاملت ، وكـان عدد فرسان المرابطين سبعة آلاف ومعهم عدد كثير من الرَّجَّالة ، وذلك في شهر ربيع الأول من عام تسعة وسبعين وأربعمائة .

ويُذكر أنه في حـال عبور الأمـير يوسف بن تاشفين البـحر هبت ريح عاصف أثارت أمواجًا عالية ،فرفع الأمير يوسف يديه إلى السماء يدعـو الله عز وجل « اللهم إن كنت تعلم أن فـي جَوَازِنا هذا خِـيَرَةً للمسلمين فسهِّل علينا جوار هذا البحر،وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لاأجوزه»،فاستجاب الله دعاءه فسهَّل له عبور ذلك البحر [2].

وصل ابن تاشفين إلى الأندلس بـجيشه ، وسـارع أمراء الطوائف إلى الاشتراك بقواتهم ، وفرح أهل الأندلس بقدوم الأمير ابن تاشفين فرحًا عظيمًا ، وسـار المرابطون إلى إمارة بطليوس وعسكروا في سهل « الزّلاقة» ، وتوافدت عليهم جيوش الأندلس .

---

١) نفح الطيب ٦/ ٨٧ .

٢) التاريخ الأندلسي /٤٠٣ عن دول الطوائف ٣١٩ ، ٤٤٧ .

وكان أمير النصارى « الفونسو أذفنوش» يحاصر سَرَقسْطة في طريقه إلى الاستيلاء على بقية الأندلس ، فلما علم بقدوم جيش المرابطين فكَّ الحصار وبدأ يستعد وكاتب أمراء النصارى فأجابه عدد منهم واجتمعت عنده جيوش كثيرة ، فسار بجيشه مزهواً بتفوقه في العَدد والعُدد ، ونظر إلى جيشه فقال : بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء .

وبعد أن اجتمع أمراء الطوائف ضموا جيوشهم وأسندوا قيادة جيشهم إلى المعتمد بن عباد ، وصاروا في مقدمة الجيش ومنْ خلفهم جيش المرابطين .

وقبل المعركة جرت مراسلات بين الطرفين ، فقد أرسل ابن تاشفين - عملاً بالسنة - إلى الفونسو يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب ، ومما جاء في هذه الرسالة « وبلَغَنَا ياأذفنوش أنك دعوت إلى الاجتماع بك، وتمنيت أن تكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا ، فقد جزناه إليك ، وجمع الله تعالى في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ**﴾ (١). فغضب الفونسو لهذه الرسالة وردَّ بكتاب عنيف مملوء بالوعيد ، وقد اكتفى ابن تاشفين في الرد عليه بأن كتب على ظهر الرسالة « الذي يكون ستراه » .

وقد نظم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جيشه فجعل القوات الأندلسية تحت قيادة المعتمد بن عباد وجعلهم في المقدمة ،وجعل منهم

---

(١) سورة الرعد / ١٤ .

في الميمنة قوة بقيادة ابن الأفطس ، وجعل في الميسرة أهل شرقي الأندلس ، وجعل قوات المرابطين في الخلف ، وأفرد منهم قوتين من الفرسان جعلهما جيش احتياط إحداهما بقيادة داود بن عائشة والأخرى بقيادة أبي بكر سِيْر بن أبي بكر وهما من قادته الكبار.

ولما تقابل الجيشان كتب قائد العدو إلى المسلمين يوم الخميس الحادي عشر من شهر رجب يخبرهم أن المعركة ستكون يوم الإثنين، وكان ذلك منه خداعا ليباغتهم يوم الجمعة .

وقد أدرك المسلمون تلك الخديعة ، وأكد ذلك ماظهر في جيش العدو من الاستعداد للقتال ، فأخذ المسلمون حذرهم ، وزاد الأمرَ تأكيدًا أن أحد العلماء الصالحين وهو أبو العباس أحمدُ بن رُمَيْلَة القرطبي أخبر برؤيا صالحة ، وهي أنه رأى النبي ﷺ ليلة الجمعة فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة الغد ، فانتبه مسرورًا وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب ، وكان في جيش ابن عباد ، فوصله خبر الرؤيا فبعث إلى ابن تاشفين وأخبره ، فكان ذلك تحقيقًا لخديعة الفونسو المذكورة .

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من شهر رجب من عام تسعة وسبعين وأربعمائة زحف الفونسو بجيشه على المسلمين . وقد وجه بقواته إلى مقدمة جيش المسلمين ، وماكاد الأعداء يوجهون ضرباتهم إلى جيش الأندلس حتى ظهر الفشل والخلل فيهم فانهزم كثير منهم وثبت قائدهم ابن عباد في قلة معه .

وكان قائد المسلمين يوسف بن تاشفين يلاحظ مايجري بدقة فوجه

الفرقة الاحتياطية التي كانت بقيادة ابن عائشة لنجدة المعتمد ابن عباد، ثم لما احتدمت المعركة وكثّف الأعداء من هجومهم وجه ابن تاشفين الفرقة الاحتياطية الأخرى بقيادة البطل المشهور سير بن أبي بكر ، وقد استطاع ابن أبي بكر أن يوقف قوات القشتاليين التي يقودها هانيس ، ودارت بين القوتين معركة عنيفة انضم إليها قائد النصارى الفونسو .

وتراجع جيش الأندلسيين فاشتغل النصارى بقتالهم ومطاردتهم، وكانت الفرصة الذهبية التي خطط لها ابن تاشفين حيث كان يلتمس نقاط الضعف في العدو لينزل إلى الميدان بهجوم صاعق، فاغتنم فرصة انشغال الأعداء بمطاردة الجيش الأندلسي وبُعْدَهُم عن معسكرهم فداهمهم من الخلف وأباد الحامية التي حول معسكرهم وأضرم فيه النيران ، ثم نزل إلى الميدان وهجم بجيشه على مؤخرة الأعداء وصار المسلمون يحصدونهم بسيوفهم .

ولما علم قائد العدو « الفونسو » بما حل بمعسكره رجع بقواته فاصطدم بالمرابطين ودارت بينهم معركة حامية انهزم فيها النصارى .

ثم أراد ابن تاشفين أن يقضي على بقية النصارى فجمع جيشه في صفوف متراصة وهجم بهم على العدو ، واستطاع أحد جنود الفرقة السودانية أن يصل إلى الفونس وأن يقتل فرسه وطعنه في فخذه إلا أنه نجا من تلك الطعنة واستمر القتال إلى غروب الشمس، وفرّ بقية جيش النصارى،وتسلل الفونسو في الظلام مع خمسمائة فارس مات منهم أربعمائة في الطريق ووصل الفونسو إلى طليطلة ومعه مائة فارس[1].

(١) نفح الطيب ٦/ ٨٦ - ١٠٣،الكامل في التاريخ ٨/ ١٤١،أمير المسلمين يوسف بن=

وهكذا كانت معركة الزَّلاقة معركة حاسمة ارتفع بعدها شأن المسلمين وثبت وجودهم في الأندلس وانخفض شأن النصارى وانحازوا إلى معاقلهم .

لقد كان الفونسو عازما على إنهاء وجود المسلمين في الأندلس ، وساعده على ذلك تحالف أمراء النصارى في أوربا معه وتفرُّق المسلمين إلى دويلات صغيرة يعيش أمراؤها في تناحر وعداء مستمر ، وكانوا من ذلتهم يدفعون الجزية للنصارى ، وبلغت الخيانة ببعضهم إلى أن طلبوا المساعدة من أمير قشتاله الفونسو على قتال إخوانهم من أمراء المسلمين ، فاغتنم هذا الأمير الفرصة وبدأ يستولي على بلاد الأندلس إلى أن قيَّض الله له الأمير البطل القائد المحنَّك يوسف بن تاشفين فقضى على جيشه وحطم آماله .

ولقد كان عجيبًا أن يخوض ابن تاشفين هذه المعركة الهائلة وهو في الثمانين من عمره،ومع هذا العمر الكبير فإنه قاد جيشه وشارك في القتال وهو على ظهر فرسه،وهذا من الدلائل على صلاحه وعلو همته .

لقد كان من نتائج هذه المعركة الفاصلة أن الإسلام بقي في الأندلس مئات السنين بعد أن اتفق الأعداء من النصارى على القضاء على وجود المسلمين هناك .

عاد الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب في شهر شعبان من عام

= تاشفين لإبراهيم الجمل /١١٦ - ١٣٤ ، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي / ٤٠٣ - ٤٠٩ .

تسعة وسبعين وأربعمائة، وترك جزءًا من جيشه في الأندلس بقيادة سير ابن أبي بكر ليجاهد النصارى، وقد شارك معه في الجهاد أمير بطليوس، أما بقية أمراء الأندلس فإنهم قد تركوا جهاد النصارى ورجعوا إلى مُنازعاتهم، ولم يستفيدوا من الدروس الأليمة التي مروا بها يوم أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من أن يتحولوا إلى عبيد للنصارى.

حصار حصن لَبيط :

اشتد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس وتكررت هجماتهم خاصة على الجهة الشرقية التي كان المعتمد بن عباد يسيطر عليها، وكانوا يخرجون إلى المسلمين من حصن « لَبيط» المنيع وكان النصارى قد أحكموا بناءه ووضعوا فيه آلافًا من المقاتلين ، ولما أيس ابن عباد من الانتصار عليهم وخشي من وقوع بلاده تحت أيديهم سار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وشرح له الضرر الواقع على المسلمين من حصن لبيط وطلب منه نجدتهم ، فوعده ابن تاشفين بالقدوم إلى الأندلس بجيشه .

وبعد أن أكمل الأمير يوسف بن تاشفين استعداده سار وعبر مضيق جبل طارق فتلقاه المعتمد في الجزيرة الخضراء بالمُؤَن، وكتب ابن تاشفين إلى ملوك الطوائف يستنفرهم إلى الجهاد وحدد مكان اللقاء حصن لبيط ، وقد حاصره المسلمون حصارًا شديدًا إلى أن وافق أمير قشتالة الفونسو على إخلائه فأخلاه ثم هدمه ، وتخلص المسلمون

بذلك من بلاء كبير ، وعـاد ابن تاشفين إلى المغرب ، ولكن الأندلس عادت إلى أسوإ من حالها الأولى [1] .

عودة المرابطين إلى الجهاد :

هذا وقـد سـاءت أحـوال ملوك الطـوائف في الأندلس، وجـدَّد بعضـهم تحالفه مع النصـارى ضد إخوانه المسلمين ، فكثُـرتْ مناشدة المسلمين للأمـيـر يوسف بن تاشـفين بـتخلـيص الأندلس من هؤلاء الملوك، وأفـتـاه العلماء كـأبي حـامـد الغزالـي وأبي بكر الطرطوشي بضرورة توحـيد الأندلس تحت قـيادته ليتـمكن من إجلاء الصليـبيين منها، وقد استجاب لتلك النداءات وعمل بفتـوى العلماء فجهز جيشًا وعبر إلى الأندلس في أوائل سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وقام ببعض الأعمال الجـهادية ، ثم عاد إلى المغرب وترك عـددًا من قادته ليكملوا الجهاد في توحيد الأندلس ومقاومة النصارى ، وقد جرت معركة كبيرة بين المرابطين بقيـادة سير بن أبي بكر والنصـارى بقيادة البـرهانش كان النصر فيها حليف المسلمين وذلك في عام أربعة وثمانين وأربعمائة .

وفي عام واحد وتسعين وأربعمائة التقى المرابطون بقيادة محمد بن الحاج بالنصـارى القشـتاليين بقيـادة الفونسو قـرب كنشرة من أعـمال طليطلة وقد انهزم النصارى وتكبدوا خسائر كبيرة .

واستمر المرابطون في جـهادهم إلى أن توفي أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين في أول محرم من عام خمسمائة بعد عمر يقارب المائة سنة قضى أكثر من نصفها في الجهاد والإصلاح رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) التاريخ الأندلسي / ٤٢١ - ٤٢٢ ، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ١٣٥ - ١٤٢ .

وقد خلَفه في حكم دولة المرابطين ابنه علي الـذي سار على سيرة أبيه في مواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى .

معركة أقلِيش :

جرت هذه المعركة بعدمـا تولى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الحكم في أوائل عام واحد وخمسمائة، وقد كتب الأمير علي إلى أخيه تميم باستئناف الجـهاد، فتوجه المرابطون إلى مدينة أقليـش الواقعة شرق مدينة طليطلة فـفتحوها، وتركهـا جيش النصارى القشـتاليين وتحصنوا بقلعة أقليش المنيعة، وقد أمدَّ أمير قشتالة الفونسو السادس تلك الحامية بعشرة آلاف فارس، بقيادة ولي عهـده ابنه الوحيد شانُجه البالغ إحدى عشرة سنة، مع قائده الكبير البـرهانش وقادة آخرين، وكان عدد الجيش القشتالي يفوق كثيراً عدد الجيش الإسلامي، وقد جرت هذه الوقعة في السادس عـشر من شـوال عام واحد وخـمسمـائة، وقد انتـصر فيـها المسلمون انتصـاراً رائعًا أعاد ذكرى معـركة الزلاقة، وانهزم القشـتاليون هزيمة ساحقة قُتل فيها ابن ملكهم شانُجه المذكور[1] .

معركة إفراغة :

بعد انتصار المرابطين في معركـة أقليش جرت لهم أعمال جهادية انتصروا في أكثرها وأصيبوا في بعضها .

ومن أشهر المعارك التي خاضوها معركة إفراغة ، في رمضان سنة ثمان وعشـرين وخمسمائة ، وهذه المعـركة تعتبر من المعـارك المهمة،

---

(١) التاريخ الأندلسي / ٤٢٢ - ٤٢٥ عن البيان المغرب ، وتاريخ الأندلس ، ونظم الجمان ومصادر أخرى .

وكان الجيش الإسلامي مكوّنا من المرابطين والأندلسيين بقيادة الأمير أبي زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية ، ويعتبر من أعظم قادة المرابطين في ذلك العهد ، وكان جيش المسلمين أقلَّ من جيش النصارى الذي يقوده أدفنوش بن رُدْمِير ، وقد انتصر المسلمون في هذه المعركة بعد قتال عنيف [1] .

وهكذا قدم المرابطون للمسلمين صفحات جهادية بيضاء في المغرب والأندلس .

* * *

(١) عصر المرابطين الموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان / ١٢٠-١٢٦ ، التاريخ الأندلسي / ٤٢٦ - ٤٣٧ ، عن نظم الجمان ، والروض المعطار ، والبيان المغرب وغيرها .

مواقف وعبر

في

جهاد المسلمين في المشرق

فتوح بلاد ما وراء النهر

في

عهد الأمويين

١ - المحاولات الأولى للفتح -

كانت الفتوحات الإسلامية قد توقفت في آخر عهد عثمان رضي الله عنه لما اشتغل المسلمون بالفتن الداخلية ، واقتصر الأمر تقريبًا على محاولة إخضاع البلاد التي تنتقض على المسلمين ، ولم يعُدْ نشاط الفتوح بشكل ظاهر إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك حينما استقرت الأمور الداخلية تمامًا .

ولقد أتاح هذا الانقطاع الطويل نسبيا فرصة ترسيخ الإسلام في البلاد التي فتحها المسلمون وتنشئة الأجيال فيها على هذا الدين حتى أصبح الغزو ينطلق من خراسان وسجستان لغزو بلاد ماوراء النهر وكأنه ينطلق من الكوفة والبصرة في عهد عمر رضي الله عنه .

جهاد الحكَم بن عمرو الغفاري :

حينما تولى زياد بن عبيد على البصرة من قبل أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه عام خمسة وأربعين ولّى عددًا من الأمراء على خراسان ، ثم ولى الحكَم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه ، وفي ذلك يقول البلاذري : ثم ولّى زياد الحكم بن عمرو الغفاري ، وكان عفيفًا وله صحبة ، وإنما قال - يعني زياد - لحاجبه فِيل : ايتني بالحكم ، وهو يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي ، وكانت أم عبد الله بنت عثمان بن أبي العاص عنده ، فأتاه بالحكم بن عمرو ، فلما رآه تبرك به ، وقال : رجل صالح من أصحاب رسول الله ﷺ ، فولاه خراسان، فمات بها في سنة خمس وخمسين ، وكان الحكم أول من صلى من وراء النهر .

قال : وحدثني أبو عبد الرحمن الجعفي قال: سمعت عبد الله ابن المبارك يقول لرجل من أهل الصغانيان كان يطلب معنا الحديث: أتدري من فتح بلادك ؟ قال : لا ، قال : فتحها الحكم بن عمرو الغفاري [1] .

رحيل المسلمين إلى خراسان :

ذكر البلاذري أن زياداً ولَّى الربيع بن زياد الحارثي سنة إحدى وخمسين خراسان ، وحوَّل معه من أهل المصرَين[2] زهاء خمسين ألفا بعيالاتهم ، وكان فيهم بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي أبو عبد الله رضي الله عنه ، وبِمرْوَ توفي أيام يزيد بن معاوية ، وكان فيهم أيضًا أبو برزة الأسلمي عبد الله بن نضلة رضي الله عنه ، وبها مات ، وأسكنهم دون النهر [3] .

وهذا الخبر يعطينا صورة من الجهود الدعوية التي بذلها الصحابة رضي الله عنهم والتابعون في ذلك العهد ، فإن رحيل خمسين ألفا بأُسَرهم إلى خراسان سيكون له أثر في دعوة أهل تلك البلاد وبلاد ماوراء النهر ، وذلك بالقدوة الحسنة أوَّلاً ، ثم بالوعظ والتذكير .

جهاد عبيد الله بن زياد :

ذكر الإمام الطبري في حوادث سنة أربع وخمسين للهجرة أن معاوية رضي الله عنه ولَّى على خراسان عبيد الله بن زياد ، وأنه لما

(١) فتوح البلدان (٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٢) يعني الكوفة والبصرة .

(٣) فتوح البلدان / ٥٧٧ .

قدم على خراسان قطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل ، فكان هو أول من قطع إليهم جبال بخارى في جند ففتح رامِيثَن ونصف بيكَنْد -وهما من بخارى - فمِنْ ثَمَّ أصاب البخاريةَ - يعني السبي الذين سباهم من بخارى - .

وذكر في رواية أخرى عن عبادة بن محصن قال: مارأيت أحدًا أشد بأسا من عبيد الله بن زياد ، لَقِينَا زحفٌ من الترك بخراسان فرأيته يقاتل فيحمل عليهم فيطعن فيهم ويغيب عنا ، ثم يرفع رايته تقطر دما (١) .

وهذا موقف يُذكر لعبيد الله بن زياد حيث يقاتل هذا القتال الشديد وهو أمير القوم ، كما أنه أول قائد مسلم وصل إلى منطقة بخارى .

وذكر البلاذري أن معاوية رضي الله عنه استعمل عبيد الله بن زياد على خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة فقطع النهر في أربعة وعشرين ألفا ، فأتى بيكند ، وكانت خاتون (٢) بمدينة بخارى فأرسلت إلى الترك تستمدهم فجاءها منهم دَهْم (٣) فلقيهم المسلمون فهزموهم ، وحووا عسكرهم ، فبعثت إليهم خاتون تطلب الصلح والأمان، فصالحها على ألف ألف ، ودخل المدينة وفتح راميثين (٤)

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٢) هي أميرة بخارى في ذلك الزمن .

(٣) أي عدد كبير .

(٤) في فتوح البلدان رامدين وفي تاريخ الطبري راميثن وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان باسم راميثين وذكر أنها قرية ببخارى -٣/١٨- .

وبيكند وبينهما فرسخان ، ورامیثين تنسب إلى بيكند [1] .

ويقول الحافظ ابن كثير في بيان جهاد عبيد الله بن زياد : ولقي الترك هناك فقاتلهم قتالا شديدًا وهزمهم هزيمة فظيعة ، بحيث إن المسلمين أعجلوا امرأة الملك أن تلبس خفيها، فلبست واحدة وتركت أخرى ، فأخذها المسلمون وقوموا جواهرها بمائتي ألف درهم، وغنموا مع ذلك غنائم كثيرة [2] .

وفي هذا الخبر إشارة إلى لون من ألوان الترف الذي كان يعيش فيه أمراء الكفار ، حيث كانت خفا تلك الأسيرة تبلغ قيمتهما أربعمائة ألف درهم ، وهذا من مؤشرات زوال السلطة حينما يكون الأمر الذي يهتم به الأمراء ويتنافسون عليه هو مظاهر الحياة الدنيا .

جهاد سعيد بن عثمان بن عفان :

ولّى معاوية رضي الله عنه سعيد بن عثمان بن عفان رحمه الله ورضي عن أبيه خراسان وذلك في عام ستة وخمسين ، فعبر النهر، فلما بلغ خاتون أميرة بخارى عبوره النهر حملت إليه الصلح ، وأقبل أهل السغد والترك وغيرهم إلى سعيد في مائة وعشرين ألفا ، فالتقوا ببخارى ، وقد ندمَتْ خاتون على أدائها الإتاوة ونكثت العهد ، فلما التقوا انسحب بعض الأعداء من المعركة وانهزم بقيتهم ، فلما رأت خاتون ذلك أعطت سعيدا الرهن وأعادت الصلح .

ودخل سعيد مدينة بخارى ، ثم غزا مدينة سمرقند ، فأعانته

(١) فتوح البلدان / ٥٧٧ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٦٩ .

خاتون بأهل بخارى ، فنزل على باب سمرقند ، وحلف أن لايبرح أو يفتحها ، فقاتل أهلها ثلاثة أيام ، ثم لزم العدو المدينة وقد فشت فيهم الجراح ، وأتاه رجل فدلَّه على قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم ، فسار إليهم وحصرهم ، فلما خاف أهل المدينة أن يفتح القصر عنوة ويقتل من فيه طلبوا الصلح فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهنا من أبناء عظمائهم ، وعلى أن يدخل المدينة متى شاء ويخرج من الباب الآخر ، فأعطوه خمسة عشر من أبناء ملوكهم ، ثم انصرف فلما كان بترمذ حملتْ إليه خاتون الصلح ، وأقام على ترمذ حتى فتحها [1] .

جهاد عبيد الله بن أبي بكرة :

ومن أخبار الجهاد في تلك البلاد ماأخرجه الإمام الطبري عن أبي المخارق الراسبي قال: لما ولَّى الحجاج المهلب على خراسان وعبيد الله ابن أبي بكرة على سجستان وذلك في سنة ثمان وسبعين فمكث عبيد الله بن أبي بكرة بقية سنته ، ثم إنه غزا « رُتْبيل» يعني أحد ملوك بلاد ماوراء النهر - وقد كان مصالحا ، وقد كانت العرب تأخذ منه قبل ذلك خراجا وربما امتنع فلم يفعل ، فبعث الحجاج إلى عبيد الله ابن أبي بكرة : أن ناجزْه بمن معك من المسلمين ، فلا ترجع حتى تستبيح أرضه ، وتهدم قلاعه ، وتقتل مقاتلته وتسبي ذريته ، فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة ، وهو أمير الجماعة ، فمضى حتى وغل في بلاد رتبيل ، فأصاب من البقر والغنم

---

(١) فتوح البلدان / ٥٧٨ - ٥٧٩ ، وانظر البداية والنهاية ٨/ ٨٢ .

والأموال ماشاء ، وهدم قلاعا وحصونا وغلب على أرضٍ من أرضهم كثيرة ، وأصحاب رتبيل من الترك يخلون لهم عن أرض بعد أرض، حتى أمعنوا في بلادهم ،ودنوا من مدينتهم وكانوا منها ثمانية عشر فرسخا فأخذوا على المسلمين العقاب[1] والشعاب ، وخلَّوهم والرساتيق فسُقط في أيدي المسلمين ، وظنوا أن قد هلكوا، فبعث ابن أبي بكرة إلى شريح بن هاني : إني مصالح القوم على أن أعطيهم مالاً ويخلُّوا بيني وبين الخروج ، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، فلقيه شريح فقال : إنك لاتصالح على شيء إلا حسبه السلطان عليكم في أُعطياتكم ، قال: لو منَعَنا العطاء ماحيينا كان أهون علينا من هلاكنا ، قال شريح : والله لقد بلغْتُ سنّا ، وقد هلكَتْ لِدَاتِي ، ماتأتي عليَّ ساعة من ليل أو نهار فأظنها تمضي حتى أموت، وقال: ياأهل الإسلام تعاونوا على عدوكم . . إلى أن قال : ياأهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإليّ ، فاتبعه ناس من المتطوعة غير كثير وفرسان الناس وأهل الحفاظ ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلا فجعل شريح يرتجز يومئذ ويقول :

أصبحت ذا بَثٍّ أقاسي الكِبَرا ... قد عشت بين المشركين أعصرا
ثَمَّتَ أدركت النبيَّ المنذرا ... وبعده صديقَه وعمرا
ويوم مِهران ويوم تُسترَا ... والجمع في صِفِّينهم والنَّهَرا
وياجُمَيْرات مع المشقَّرا ... هيهات ماأطول هذا عمرا

فقاتل حتى قتل في ناس من أصحابه [2] .

(١) بكسر العين جمع عقبة وهي الطريق الجبلي .

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٣٢٢ ، البداية والنهاية ٩/ ٢٩ .

وهذه الأبيات تدلنا على أن شريح بن هانئ رضي الله عنه قد عُمِّر طويلا فقد أدرك الجاهلية ثم صحب النبي ﷺ وشارك في فتوح فارس الأولى ، ثم كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الحروب الداخلية فشهد صفِّين والنهروان ثم مازال مجاهدا بعد هذا العمر الطويل الذي يقارب المائة عام أو يزيد حيث إن تلك المعركة التي استشهد فيها كانت عام تسعة وسبعين للهجرة .

وهذا من عجائب ذلك الجيل الفريد حيث اختلط الشوق إلى الجهاد في دمائهم وصار جزءًا من حياتهم ، وأصبحت الشهادة في سبيل الله تعالى أسمى أمانيهم ، فأكسبوا بذلك أمتهم الإسلامية عبر الأجيال ذلك الميراث الكبير في الدولة الإسلامية العظمى .

هذا وإننا في محاولة تقييم ماحدث في مواجهة ذلك الحصار الذي أحكم الأعداء إغلاقه على المسلمين لابد أن نقول إن قائد ذلك الجيش عبد الله بن أبي بكرة قد وقع في شيء من الخطأ حينما توغل في تلك البلاد وهو غير خبير بها ولم يقَدِّم أمامه طلائع يكشفون له الطريق ويبلغونه خبر الأعداء .

كما أنه أخطأ حينما لم يعقد مجلس الشورى لبحث سُبل الخروج من تلك المعضلة ، بل أبرم الصلح مع ملك الترك على دفع مبلغ من المال ليفتح للمسلمين مخرجا يخرجون منه ويعودون من حيث أتوا ، فكان من نتائج ذلك أن عارض أكبر قادته قائد أهل الكوفة شريح بن هانئ ، ثم حصل بسبب ذلك افتراق جيش المسلمين.

إن الذي أقدم عليه عبد الله بن أبي بكرة رأي سديد لأن فيه

إنقاذاً للمسلمين من تلك المعضلة التي قد ينتج عنها مهلكة ، ولكن الرأي السديد يفقد مفعوله إذا انحلت جماعة الجيش وتفرقت كلمة قادتهم ، ولو أن الأمر تمَّ عن طريق الشورى لربما برزت آراء جيدة من أناس لهم وزنهم يُقنعون الطرف الآخر المعارض للصلح، أو لربما انبثق من بين الرأيين رأي وسط يكون فيه حل لتلك المعضلة ، فكم واجه المسلمون من معضلات ثم حلوها بالشورى .

أما موقف شريح بن هانئ فإنه يدل على قوة إيمانه وصدق توجهه نحو رضوان الله تعالى والدار الآخرة ، ولقد أتْبع القول بالعمل فقاتل الأعداء حتى استشهد هو وبعض من معه .

ولكن هل يقال إنه في ذلك الإقدام قد خالف أمر القائد وطاعة القائد واجبة ؟

نعم يعتبر ذلك مخالفة ، ولكنه فهم أن القائد قد ارتكب مخالفة شرعية في ذلك الانهزام والتسليم للأعداء ، والبَتِّ بذلك الأمر بدون مشورة أهل الرأي ، وإنما الطاعة في المعروف، لكن كان الأولى في هذا الموقف أن يبذل جهده في إنكار ماحدث وأن يحاول تغيير رأي القائد وإقناع الناس ليساعدوه في ذلك فإن حصل له مايريد من الرأي وإلا فإن عليه أن يتبع الجماعة ، وأن لايكون سببا في فرقة المسلمين ، لأن ذلك يعزز من موقف الأعداء ، وهو لم يكسب في موقفه الشجاع نصراً للمسلمين بشكل ظاهر ، وإنما كسب الشهادة هو ومن رُزقها معه، وخلَّد لتلك البلاد شرفا عاليا أن ضمت بين أحضانها جثث أولئك الصالحين الأتقياء ، فرحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم على ماقدموا أحسن الجزاء .

أما الذين نجـوا من تلك المعركة فـإنهم خرجـوا من بلاد رتبيل - كما جاء في رواية الطبري المذكورة - فاستقبلهم من خرجوا إليهم من المسلمين بالأطعمـة ، فإذا أكل أحدهم وشبع مـات ، فلما رأى ذلك الناس حذروا يطعـمونهم ، ثم جعلوا يطعـمونهم السمن قليـلا قليلا حتى استمرؤوا .

جهاد ابن الأشعث :

جاء في خبر الإمام الطبري المذكور أن الحجاج بن يوسف تأثر من ذلك فكتب إلى عبد الملك يستأذنه في بعث جـيش كبير لتأديب الترك وفتح بلادهم فأذن له في ذلك فبعث أربعين ألفًا من أهل الكوفة وأهل البصرة بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وأنه سار إلى بلاد ماوراء النهـر فأوقع بالأعداء واستـولى على بعض بلادهم وأموالهم ، ثم قفل راجعًـا على أمل أن يعود إليهم في العـام القادم ، وأنه كتب إلى الحجـاج بذلك فلامـه واتهمـه بالضعف وأمـره بالعودة لإكـمال الفتح، ثم ماكان من فتنة ابن الأشـعث حينما ثار على الحجاج وخلع بيعته وجـرت بينه وبين الحجاج حروب طويلة كانت نهـايتها على ابن الأشعـث في دير الجمـاجم حيث انتـصر عليـه جيش الشـام بقـيادة الحجاج[1] .

جهاد المهلب بن أبي صفرة :

إضافة إلى ذلـك كانت هناك جهود طيـبة في التمهيـد لفتح بلاد ماوراء النهـر من المهلب بن أبي صفـرة الذي كان واليا على خـراسان

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٣٢٣ - ٣٦٧ .

فقد أناب ابنه المغيرة على « مرو» وارتحل بجيشه حتى قطع النهر وقاتل الترك ، ثم استقر ببلدة «كِسْ» ورابط فيها سنتين محاولاً تثبيت أقدام المسلمين في أوائل تلك البلاد ليستطيعوا بعد ذلك التوغل داخل تلك الممالك بأمان (١) .

ومن المواقف المذكورة في تلك الحروب ماكان من يزيد بن المهلب وقد أرسله أبوه إلى مرو ليخلفه في إمارتها لما توفي أخوه المغيرة وقد واجه جيشًا من الترك في خمسمائة رجل وكان هو في ستين أو سبعين فطلب الترك منهم شيئًا فأبى يزيد ولكن صاحبه مُجَّاعة العتكي أعطاهم شيئًا من المتاع ، فذهبوا ثم غدروا ورجعوا فقال يزيد : أنا كنت أعلم بهم فقاتِلوهم ، فقاتَلوهم واشتد قتالهم وأصاب يزيد عظيما من عظمائهم وأصيب هو في ساقه ، ثم تحاجزوا وطلب الترك منهم شيئًا من المتاع فرفض يزيد ، فقال له مُجَّاعة : أذكرك الله قد هلك المغيرة ، وقد رأيت مادخل على المهلب من مصابه ، فأنشدك الله أن تصاب اليوم – وكان المهلب قد وجد على فقد ابنه المغيرة وجدًا شديدًا – فقال يزيد : إن المغيرة لم يَعْدُ أجله ولست أعدُو أجلي ، فرمى لهم مُجَّاعة بعمامة صفراء فأخذوها وانصرفوا (٢) .

وهذا دليل على قوة إيمان « يزيد »بقضاء الله وقدره ، حيث طلب منه مجاعة تفادي القتال إبقاء على نفسه فرد عليه ببيان حتمية بلوغ الأجل المحدد من العمر وعدم تجاوز ذلك بلحظة واحدة .

---

(١) تاريخ الطبري ٣٢٥ – ٣٢٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣٥١/٦ .

وهكذا يصنع الإيمان القــوي من المؤمنين رجــالا أبطالا لايهــابون خوض الأهوال ولاركوب الصعاب .

*　　*　　*

٢ - فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي -

أما العهد الذهبي بالنسبة لفتوح بلاد ماوراء النهر فقد بدأ بولاية قتيبة بن مسلم الباهلي ، هذا الرجل الشجاع والقيادي الماهر والإداري المحنك، حيث بذل كل طاقته في ذلك الفتح حتى ارتبط به وأصبح بحقٍّ فاتح تلك البلاد .

ولقد استفتح إمارته بخطبة جهادية رائعة قال فيها :إن الله أحلَّكم هذا المحل ليعزَّ دينه ، ويذُبَّ بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما [(١)] ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾[الصف: ٩] وَوَعَدَ المجاهدين في سبيله أحسن الثواب،وأعظم الذخر عنده فقال﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] ثم أخبر عمن قُتل في سبيل الله أنه حيٌّ مرزوق فقال﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾[آل عمران: ١٦٩] فَتَنَجَّزوا موعود ربكم،ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم،وإياي والهوينَى[(٢)] .

(١) يعني ذلا .

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٤٢٤ .

وهكذا يتبين لنـا من خطبة قتـيبة أن هدفـه الأول في إمارته على خراسان هو دفع الناس إلى الجـهاد في سبيل الله تعـالى بحزم وقوة، فانطلق في تحـقيق هذا الهدف غـير متردد ولاوجل ، حـتى فتح بلاد ماوراء النهر وأقرَّ حكم الإسلام فيها ، وأشرف على الصين و أخذ من ملكها الجزية .

ولقد سارع بعض الأمراء القريبين منه إلى عـقد الصلح معه لسبق علمـهم بقوته وحزمـه ،وأنه لن يتركـهم حتى يوطئ الخـيل بلادهم، فأطلقوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين وبادروا إلى الصلح .

وقد أخـرج ابن جرير في ذلك عن مـحمد بن المـثنى أن « نيزك طرخـان» - يعني ملك طرخان - كـان في يديه أسـراء من المسلمين، وكتب إليـه قتيبة حين صـالح ملك شومان فيـمن في يديه من أسرى المسلمين أن يطلقـهم ، ويهـدده في كتـابه ، فـخافـه نيزك، فـأطلق الأسرى، وبعث بهم إلى قتـيبة فوجه إليـه قتيبه سُلَيـمًا الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكرة يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه ، وكتب إليه كتابا يحلف فيه بالله : لئن لم يَقْـدَم عليه ليغزونَّه ، ثم ليطلبنه حيث كان ، لايقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك ، فقدم سليم على نيزك بكتاب قتيبة - وكـان يستنصحه - فقال له : ياسُلَيم ماأظن عند صاحبك خـيرا ، كتب إلي كتابا لايُكتب إلى مـثلي ، قال له سليم: ياأبا الهيَّاج إن هذا رجل شديد في سلطانه ، سهل إذا سوهل، صعب إذا عوسر ، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك ، فما أحسن حالك عنده وعند جمـيع مضـر، فقـدم نيزك مع سليم على قـتيبـة فصـالحه أهل

باذغيس في سنة سبع وثمانين على أن لايدخل باذغيس [١] .

ومن هذا النص ندرك بعض مظاهر عظمة قتيبة القيادية فقد حصل في هذا الكتـاب التهـديدي القوي على فك أسـرى المسلمين كمـا أنه تفادى بذلك إقـحام المسلمين في مـعارك جانبـية تشغـلهم عن الهدف الأهم وهو فتح بلاد ماوراء النهر .

فتح مدينة بيكند :

أخرج الإمام الطبري عن عدد من الرواة : أن قتيبة لما صالح نِيزَك أقام إلى وقت الغـزو ، ثم غزا في تلك السنة - سنة سـبع وثمانين- بيكند ، فسار من « مرو» [٢] وأتى « مرو الرُّوذ» ثم أتى « آمل» ، ثم مضى إلى « زَمّ » فقطع النهـر ، وسار إلى بيكند - وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر يقال لها مـدينة التجار على رأس المفازة من بخارى- فلما نزل بعَـقْوتهم [٣] استنصـروا الصُّغْد واسـتمـدوا من حولهم ، فأتوهم في جـمع كثير وأخذوا بالطريـق فلم ينفذ لقتيـبة رسول، ولم يصل إليه رسول ، ولم يَجْرِ له خبر شهرين وابطأ خبره على الحجاج، فأشـفق الحجاج على الجند ، فـأمر الناس بالدعاء لهم في المسـاجد، وكتب بذلك إلى الأمصار وهم يقتتلون كل يوم .

قال : وكـان لقـتيبـة عين يقـال له تَنْذُر من العجم فـأعطاه أهل بخارى الأعلى مالاً على أن يفثأ عنهم قتيبة [٤] ، فأتاه فقال : أخْلِني

(١) تاريخ الطبري ٦/٤٢٨ .

(٢) يعني مرو الشاهجان .

(٣) أي بساحتهم .

(٤) يعني أن يصرفه عن قتالهم .

. فنهض الناس واحتبس قتيبة ضرار بن حصين الضَّبِّي ، فقال تنذر : هذا عامل يقـدم عليك وقد عُزِل الحجـاج . فلو انصرفت بالناس إلى مرو ، فدعا قتيبة « سـياه » مولاه فقال : اضرب عنق تنذر، فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك وإني أعطي الله عـهداً إن ظهـر هذا الحديث من أحـد حـتى تنقضي حـربنا هذه لألحـقنَّك به ، فاملـك لسانك ، فـإن انتشـار هذا الحـديث يفتُّ في أعضاد الناس ، ثم أذن للناس .

قال : فـدخلوا فراعَهم قتلُ تنذر ، فـوجموا وأطرقوا ، فـقال: قتيـبة: مايروعكم من قتل عـبد أحانه الله ؟ (١) قـالوا : إنا كنا نظنه ناصحًا للمسلمين ، قال : بل كان غاشـا فأحانه الله بذنبه فقد مضى لسبيله فاغدوا على قتال عدوكم ،والْقَوهم بغير ماكنتم تلقونهم به » .

وهكذا يكون الحـزم وسـداد الرأي ،والتـعلـق الكريم بالأهداف العالية، إنه حينما أثار ذلك المولى الخائن أمر عزل الحجاج وبعْث والٍ آخر على خراسان ، لم يَدُر في خلد قتيبة أمر مستقبله ومستقبل قبيلته وأعوانه ، وإنما كان الـذي يهيمن عليه هو مـستقبله مع أعـدائه، فقد نصب أمامه هدفا عاليا يسعى لتحقيقه ،وهو أن يُظهر عزة الإسلام في الأرض ، وأن يُخـضع ممالك الطغـيان لهـذا الدين . وإذا كان الأمـر كذلك فليبق أميرًا أوليكن الأمير غيره . كما أن في موقفه هذا تغليب جـانب الحذر من مـكائد الأعداء وعـدم الخـفة والإسـراع في التـأثر بأراجـيفـهم التي يقصـدون منها الـفَتَّ في أعضـاد المسلمين وتوهين أمرهم.

---

(١) أي أهلكه .

وفيما قام به من المبادرة إلى قتل ذلك الرجل، وأخذ العهد على جليسه حزم وسداد في الرأي لأن فيه قطعاً لموارد الفتنة قبل استفحالها.

وهكذا تحطمت مكيدة الأعداء أمام حزم هذا القائد الكبير ورسوخ يقينه .

قال : « فغدا الناس متأهبين وأخذوا مصافهم ومشى قتيبة فحضّ أهل الرايات ، فكانت بين الناس مشاولة[1] ثم تزاحفوا والتقوا ، وأخذت السيوف مأخذها ، وأنزل الله على المسلمين الصبر فقاتلوهم حتى زالت الشمس، ثم منح الله المسلمين أكتافهم ، فانهزموا يريدون المدينة ، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلا وأسراً كيف شاؤوا ، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل ، فوضع قتيبة الفَعَلَة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم ، واستعمل عليهم رجلاً من بني قتيبة » .

وهكذا كان جزاء الاحتساب والصبر وحسن الظن بالله تعالى والثقة بنصره ، فقد كان الأعداء في بلادهم ، ويأتيهم المدد متى أرادوا من الطعام والسلاح والمقاتلين ، ولكن المسلمين محصورون لامَنَعَة لهم بعد الله جل وعلا إلا بثقتهم بأنفسهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله تعالى .

قال : « وارتحل عنهم يريد الرجوع : فلما سار مرحلة أو ثنتين، وكان منهم على خسمة فراسخ نقضوا وكفروا ، فقتلوا العامل

---

(١) يعني قتالا في الرماح .

وأصحابه، وجَدَعوا آنُفَهم وآذانهم ، وبلغ قتيبة فرجع إليهم وقد تحصنوا فقاتلهم شهراً ، ثم وضع الفَعَلَة في أصل المدينة فعلقوها بالخشب ، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتنهدم ، فسقط الحائط وهم يعلقونه فقتل أربعين من الفعلة ، فطلبوا الصلح فأبى وقاتلهم فظفر بهم عنوة ، فقتل من كان فيها من المقاتلة » .

وهكذا كان قتيبة مصراً على الفتح ، حازمًا في عدم قبول الصلح، وذلك لأنهم نقضوا العهد ، وقتلوا المسلمين ومثلوا بهم، فما جزاؤهم إلا القتل وتطهير الأرض منهم .

وبهذا انتهى قتيبة من أول معركة شرسة يخوضها مع أولئك الأعداء ، وأصبح لها مابعدها ، وعَرف فيه الترك رجلا قويًا لايهادن الباطل ولايهاب الأهوال .

قال : « وكان فيمن أُخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين فقال لقتيبة : أنا أفدي نفسي ، فقال له سُلَيْم الناصح : ماتبذل ؟ قال : خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف ، فقال قتيبة : ماترون ؟ قالوا : نرى أن فداءه زيادة في غنائم المسلمين ، وماعسى أن يبلغ من كيد هذا ! قال : لا والله لاتروِّع بك مسلمة أبدا ، وأمر به فقتل (١) .

وهكذا أصر قتيبة على قتل ذلك الرجل الذي كان يخطط للأعداء ويحرضهم على المسلمين ، وكان قتيبة موفقًا حينما لم يقبل منه الفداء مع ضخامته لأنه يقاتل المسلمين بفكره وتدبيره ولن يكتفي بهذا الموقف

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٤٢٩ - ٤٣١ .

الخائن بل سيستمر في تدبير المؤامرات ضد المسلمين ، فالحكمة كل الحكمة في قطع دابره .

وحينما لاحظ بعض مستشاري قتيبة ضخامة المال الذي يريد أن يفدي نفسه به ، وهَوَّنُوا عليه مايمكن أن يقوم به من مكيدة لاحظ هو مستقبل وضع المسلمين في ذلك البلد ، فرأى أن ذلك المبلغ وأضعافه لايعادل ترويع امرأة من المسلمين ، بما يترتب على مكائده من أذى يلحق بالمرابطين في تلك البلاد ، وهذا يدلنا على الأهداف السامية التي كانت وراء إقدام قتيبة على فتح تلك البلاد .

هذا وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثمان وثمانين أن قتيبة غزا «تومشكث وراميثنة » من قرى بخارى وأن أهلهما صالحوه فانصرف عنهم، وجعل على ساقة الجيش أخاه عبد الرحمن في طائفة من الجيش وأن الترك اجتمعوا مع الصغد وأهل فرغانة بقيادة ابن أخت ملك الصين في مائتي ألف ، وأنهم لحقوا بعبد الرحمن فقاتلهم بجيشه وثبت لهم وأرسل إلى قتيبة فرجع وقد كادوا يستأصلون المسلمين فثبتهم الله وهزموا أعداءهم .

وهذا موقف عظيم يذكر لعبد الرحمن بن مسلم الذي كان غالبا في المقدمة عند الغزو وفي الساقة عند القفول ، وفي هذا الموقف دلالة على عظمة المسلمين وشجاعتهم النادرة حيث ثبت جزء من جيش قتيبة لمائتي ألف ولم يفروا (١) .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٤٣٦ ، تاريخ خليفه / ٣٠٠ .

فتح مدينة بخارى :

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم الباهلي غزا بخارى عام تسعة وثمانين وأنه فتح قرية دونها تسمى «راميثنه» وأنه رجع من غزوته تلك ، وأن الحجاج كتب إليه يأمره بالعودة إلى غزو ملك بخارى، وأن قتيبة رجع فلقيه الصُّغْد وأهل كِشّ ونَسَف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ، ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان ، فلقوه بجمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين ، ثم أعطاه الله الظفرعليهم فقال نَهار بن تَّوسعة :

وباتت لهم مِنَّا بخرقان ليلة   وليلتنا كانت بخرقان أطولا

ثم ذكر أن قتيبة لم يستطع فتح بخارى ذلك العام فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج :أن صوِّرْها لي، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج :أَنْ ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وأتِها من مكان كذا وكذا .

قال وقيل : كتب الحجاج : أنْ كِسْ بكشٍّ وانسُف نسف ، ورِدْ وردان ، وإياك والتحويط ، ودعني من بُنَيَّات الطريق .

ومن كتابات الحجاج هذه وماقبلها نأخذ فكرة عن اهتمامه البالغ باستمرار الغزو والفتح ، وقد كان ذلك من أسباب قيام ابن الأشعث بالثورة عليه ، حيث اكتفى ابن الأشعث بغزو أدنى بلاد ماوراء النهر، فلامه الحجاج واتهمه بالضعف .

ثم استمر الحجاج في حث قتيبة على مواصلة الغزو وأمره أن لايرجع حتى يفتح بخارى ، ولما استعصى ذلك على قتيبة أمره

الحجاج ببعث صورة لتلك المدينة ، فنظر باجتهاده إلى موطن الضعف فيها فأشار على قتيبة بالمكان الذي يدخلها منه ، ثم أمر قتيبة بأن يدمِّر المدن التي تقف عقبة في طريقه ،وذكر منها مدينة نسف، وأمره أن يتجه رأسًا إلى وردان ملك بخارى ، وأن يجعلها بعد الفتح معقلا له ينطلق منها ، وعبَّر بقوله « ارجع إلى مراغتك » عن الأمر بلزوم فتح بخارى تشبيهًا لها بمراغة الدابة التي تتقلب فيها .

وأمره أن يجتنب سياسة التحويط حول الهدف ابتغاء اليسر والسهولة ، وأن يسلك الطريق المستقيم الموصل إلى الهدف المقصود دون تعريج على الأهداف الجانبية التي تحقق بعض الغنائم والنصر المؤقت .

وهذا يدلنا على أن الحجاج باهتمامه ومتابعته المتلاحقة للقادة كان عاملا مهما في فتح بلاد ماوراء النهر ، وتلك حسنة توضع في مقابل سيئاته المشهورة .

وفي فتح بخارى أخرج الإمام الطبري بإسناده عن إدريس بن حنظلة « أن كتاب الحجاج لما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان من انصرافه عن « وردان خذاه » ملك بخارى قبل الظفر به والمصير إليه، ويُعرِّفه الموضع الذي ينبغي له أن يأتي بلده منه ، خرج قتيبة إلى بخارى في سنة تسعين غازيا فأرسل وردان خذاه إلى الصغد والترك ومن حولهم يستنصرونهم ، فأتوهم وقد سبق إليها قتيبة فحصرهم ، فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إليها ليقاتلوهم ، فقالت الأزد : اجعلونا على حدة ، وخلّوا بيننا وبين قتالهم ، فقال قتيبة: تقدموا ،

فتقدموا يقاتلونهم ، وقتيبة جالس عليه رداء أصفر فوق سلاحه، فصبروا جميعًا مليًا ، ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة ، وجازوه، حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكَيْن ، فكرُّوا راجعين ، وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك ، فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم ، فوقف الترك على نشز[1].

هذا وإن في إقدام الأزد على مواجهة ذلك الجيش الغازي موقفًا يذكر لهم ، فإن التنافس في مواجهة الأخطار فضيلة وشرف، وفي تقهقرهم أمام الترك دلالة على قوة بأس الترك ومهارتهم في القتال، وهذا يدلنا على سبب مهم في تأخر المسلمين في فتح بلادهم وتردد بعض القادة في التوغل في أرضهم ، حيث يتمتع الترك ومن حولهم من القبائل بقوة قتالية عالية وصبر على الجلاد، وإن من أهم أسباب ذلك كون حياتهم تميل إلى شيء من الخشونة ، فلم تفسدهم الحضارة المادية كما هو الحال في دولة فارس .

هذا وإن في ثبات قتيبة في مركز القيادة مع هذا التقهقر دلالة على رباطة جأشه ، ومقدرته الفائقة على التفكير وحسن التصرف في مواجهة المواقف الصعبة المفاجئة ، فقد أوعز حالاً إلى مجنبتي جيش المسلمين بالهجوم على الأتراك فأطبقوا عليهم وهزموهم ، وألجئوهم إلى مرتفع من الأرض يُحَصِّنه نهر بينهم وبين المسلمين .

قال : « فقال قتيبة : من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ فلم يُقدِم عليهم أحد ، والأحياء كلها وقوف ، فمشى قتيبة إلى بني تميم،

---

(١) يعني مرتفع من الأرض .

فقال: يابني تميم إنكم أنتم بمنزلة الحطمية ، فيومٌ كأيامكم ، أَبِي لكم الفداء ، قال : فـأخذ وكيع اللواء بيده وقـال : يابني تميم أتسلمونني اليوم ؟ قالوا : لا ياأبا مطِّرف - وهُرَيْم بن أبي طلحة المجاشعي على خيل بني تميم ، ووكيع رأسهم - والناس وقوف ، فأحجموا جميعًا ، فقال وكيع : ياهريم قَدِّم ، ودفع إلـيه الراية ، وقال : قدم خيلك ، فتقدم هريم ، ودبَّ وكيع في الرجال ، فانتهى هريم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف ، فقـال له وكيع : أَقحِم ياهريم ، قال: فنظر هريم إلى وكيع نظر الجـمل الصئول ، وقـال : أنا أقحم خيلي هذا النهـر، فإن انكشفـت كان هلاكهـا ! والله إنك لأحمق ، قـال: يابن اللَّخناء ألا أراك ترد أمري ! وحذفه بعمود كان معه ، فضرب هريم فرسه فأقحمه وقال: مابعد هذا أشد من هذا ، وعَبَّر هريم الخيل ، وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر وقال لأصحابه : من وطَّن منكم نفسه على الموت فليعبر ، ومن لا فليثبت مكانه ، فـما عبر معه إلا ثمانمائة راجل ، فدبَّ فـيهم ، حتى إذا أعيـوا أقعدهم فأراحـوا حتى دنا من العدو ، فـجعل الخـيل مجنبـتين ، وقال لهريم : إني مطـاعن القوم فاشغلهم عنا بالخيل ، وقال للناس : شُـدُّوا ، فحملوا فما انثنوا حتى خالطوهم . وحـمل هريم خيله عليـهم ، فطاعنوهم بالرماح ، فـما كفُّـوا عنهم حتى حدَّروهم عن مـوقفهم ، ونادى قـتيبـة : أما ترون العدو منهزمين ! فما عبـر أحد ذلك النهر حتى ولَّى العدو منهزمين ، فاتبعهم الناس .

وهكذا تبين لنا مـوقف بني تميم الشـجـاع حيـث أحجـمت كل القبـائل عن مواجهـة أولئك الذين تحصنوا بذلك المرتـفع ، فلم يُقْدم

على هذا الموقف الهائل إلا وكيع بن أبي أسود التميمي وقبيلته، ولقد أحسن صنعًا حينما عرض قومه على الموت، فاختار منهم من تطوع مقبلا على الشهادة ، لأن مثل هذا الموطن المهلك لايقدم عليه من له رغبة في الحياة ، فاستطاع هؤلاء الأبطال - على قلتهم - أن يزيلوا الأعداء من موقعهم ذلك ، لأن كل واحد منهم يعدل عشرات من الجنود العاديين .

وقال قتيبة : من جاء برأس فله مائة ، فأُتِيَ برؤوس كثير من القتلى .

وهذا يعتبر دافعًا جيدًا للجنود ليبذلوا كل طاقتهم في ملاحقة العدو.

وجُرِح يومئذ ملك الترك خاقان وابنه،وتمَّ فتح مدينة بخارى(١) .

فتح مدينة سمرقند(٢) :

أخرج الإمام الطبري في ذلك عن شيوخه : أن قتيبة لما قبض صلح خوارزم قام إليه المُجَشَّر بن مزاحم السُّلَمي فقال: إن لي حاجة فأخْلِني ، فأخلاه ، فقال : إنْ أردت الصُّغْد يوما من الدهر فالآن فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا ، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام ، قال : أشار بهذا عليك أحد ؟ قال : لا ، قال : فأعلمته أحدا؟ قال : لا ، قال : والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك ، فأقام يومه ذلك ، فلما أصبح من الغد دعا عبد الرحمن- يعني أخاه-

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٤٢ - ٤٤٤ ، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٣ .

(٢) سمرقند من أهم مدن ماوراء النهر وتعتبر الأن من المدن المهمة في أوزبكستان .

فقال سِرْ في الفرسان والمُرَامية وقدِّم الأثقال إلى مرو، فَوُجِّهت الأثقال إلى مرو ، ومضى عبد الرحمن يتبع الأثقال يريد مرو يومه كله ، فلما أمسى كتب إليه : إذا أصبحت فوجِّه الأثقال إلى مرو، وسِرْ في الفرسان والمرامية نحو السغد ،واكتم الأخبار فإني في الأثر.

قال : فلما أتى عبد الرحمن الخبرُ أمر أصحاب الأثقال أن يمضوا إلى مرو ، وسار حيث أمره ، وخطب قتيبة الناس فقال : إن الله تعالى قد فتح لكم هذه البلدة في وقتِ الغزوُ فيه ممكن ، وهذه السغْد شاغرة برجلها قد نقضوا العهد الذيً كان بيننا مَنَعُونا ماكنا صالحنا عليه « طرخون» وصنعوا به مابلغكم وقال الله تعالى ﴿ **وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾ [**الفتح** : ٢١].

قال : فأتى السغْد وقد سبقه إليها عبد الرحمن بن مسلم في عشرين ألفا ، وقدِم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبخارى بعد ثلاثة أو أربعة من نزول عبد الرحمن بهم ، فقال : إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

فحصرهم شهرا ،فقاتلوا مرارًا في حصارهم من وجه واحد» [(١)].

وهكذا كان قتيبة حازما حينما اغتنم تلك الفرصة وقَبِل مشورة المجشَّر السلمي ، وكان من مظاهر حزمه احتياطه البالغ في كتمان خبر مسيره إلى أهل سمرقند حتى يصل إليهم قبل أن يستمدوا الملوك المجاورين لهم ، فهدَّد صاحب المشورة إن هو أعلنها ، ووجَّه أخاه

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٢ ، باختصار .

عبد الرحمن وأمره أن يكتم الخبر ثم خطب الناس وأعلمهم بمسيره ومسوغات ذلك بعد أن وثق من عدم شيوع الخبر قبل وصول أخيه عبد الرحمن إلى ساحة القوم .

وقد بين في خطبته أن القوم قد نقضوا العهد فزال عهدهم واستحقوا العقاب وأصبح تطهير البلاد منهم أمرًا لازما .

وفي رواية أخرى للطبري عن نهشل بن يزيد عن عمه – وكان قد أدرك ذلك كله – قال : لما رأى غوزك – يعني ملك سمرقند – إلحاح قتيبة عليهم كتب إلى ملك الشاش وإخشاذ فرغانة (١) وخاقان : إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِل إلينا كنتم أضعف وأذل ، فمهما كان عندكم من قوة فابذلوها ، فنظروا في أمرهم فقالوا: إنما نؤتى من سفلتنا ، وإنهم لا يَجدُون كوَجْدنا، ونحن معشر الملوك المعنيُّون بهذا الأمر ، فانتَخبوا أبناء الملوك ، وأهل النجدة من فتيان ملوككم ، فليخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة فليُبَيِّتْ فإنه مشغول بحصار الصُّغد ، ففعلوا وولَّوا عليهم ابنًا لخاقان ، وساروا وقد أجمعوا أن يبيِّتوا العسكر .

وبلغ قتيبة فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس، فكان شعبة بن ظهير وزهير بن حيان فيمن انتخب فكانوا أربعمائة ، فقال لهم: إن عدوكم قد رأوا بلاء الله عندكم وتأييده إياكم في مزاحفتكم ومكاثرتكم ، كل ذلك يُفلِجكم الله عليهم فأَجْمَعُوا على أن يحتالوا غِرَّتكم وبياتكم ، واختاروا دهاقينهم وملوكهم وأنتم دهاقين العرب

---

(١) الشاش وفرغانة من مناطق دولة أوزبكستان اليوم ، وتعتبر طاشكند العاصمة من منطقة الشاش .

وفرسانهم ، وقد فضلكم الله بدينه ، فأبلُوا الله بلاء حسنا تستوجبون به الثواب ، مع الذب عن أحسابكم .

قال : ووضع قتيبة عيونا على العدو حتى إذا قربوا منه قدر مايصلون إلى عسكره من الليل ، أدخل الذين انتخبهم ، فكلَّمهم وحضَّهم ، واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من العسكر عند المغرب ، فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم الذين وُصفوا لهم ، ففرَّق صالح خيله ، وأكمن كمينًا عن يمينه، وكمينا عن يساره ، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت ، وصالحٌ واقف في خيله ، فلما رأوه شدوا عليه ، حتى إذا اختلفت الرماح شدَّ الكمينان عن يمين وعن شمال، فلم نسمع إلا الاعتزاء ، فلم نَرَ قَومًا كانوا أشد منهم .

قال : وقال رجل من البراجم : حدثني زهير أو شعبة قال: إنا لنختلف عليهم بالطعن والضرب إذا تبينت تحت الليل قتيبة ، وقد ضربت ضربة أعجبتني ، وأنا انظر إلى قتيبة فقلت : كيف ترى بأبي أنت وأمي ، فقال : اسكت دَقَّ الله فاك ، قال : فقتلناهم فلم يُفلت منهم إلا الشريد ، وأقمنا نحوي الأسلاب ونحتزُّ الرؤوس حتى أصبحنا ،ثم أقبلنا إلى العسكر ، فلم أر جماعة قط جاؤوا بمثل ماجئنا به ،مامنا رجل إلا معلِّق رأسا معروفا باسمه ، وأَسيرٌ في وثاقه.

قال: وجئنا قتيبة بالرؤوس فقال: جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرا ، وأكرمني قتيبة من غير أن يكون باح لي بشيء، وقرن بي في الصلة والإكرام حيَّان العدوي وحُلَيسًا الشيباني، فظننت

أنه رأى منهما مثل الذي رأى مني ، وكسر ذلك أهلَ السغْد، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية فأبى وقال: أنا ثائر بدم طرخون كان مولاي وكان من أهل ذمتي [١] .

وفي بيان صفة جيش الأعداء المنتخب جاء في إحدى روايات الطبري « فسألناهم [٢] عمَّن قتلْنا ، فقالوا : ماقَتلْتم إلا ابن ملك أو عظيمًا من العظماء أو بطلا من الأبطال ، ولقد قتلْتم رجالا إن كان الرجل ليعدل بمائة رجل » [٣] .

وهكذا جاء المدد لأهل سمرقند الذي من أجله كتم قتيبة خبر إقدامه عليهم ولكن مجيئه كان بعد أن أحكم حصار المدينة ، ولقد كان مجيء ذلك الجيش المنتخب من أبناء الملوك والأبطال خيراً كثيراً على المسلمين في مستقبل جهادهم ، حيث قتلوا خيرة فرسان فرغانة والشاش ، وأسروا بعضهم ، فسهَّل عليهم ذلك غزو بلادهم .

وهكذا أرادها ملوك الشاش وفرغانة مكيدة للمسلمين ليأخذوهم على غرة ، وانتخبوا أفضل ماعندهم من المقاتلين ، ولكن المسلمين قد تفوقوا عليهم كثيراً في الرصد الحربي ، فعلموا عن تحركهم، فانتخب قتيبة جيشًا من أهل النجدة بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، ثم بث عيونه فعلم منهم الليلة التي سيصلون فيها .

---

(١) طرخون حاكمهم الأول الذي عقد الصلح مع قتيبة وقد خلعوه وولوا نيزك ، يعني أن أهل الذمة الذين يدفعون الجزية يجب على المسلمين حمايتهم - تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٦- ٤٧٨ - .

(٢) يعني الأسرى .

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٤ .

ورجعت مكيدة الأعداء عليهم ، وكان صالح موفقًا حينما وضع لهم الكمينين ، فلم يفجأ جيش الأعداد إلا المقاتلون من المسلمين على قارعة الطريق ، وكان خروج الكمينين عند التحام المعركة مفاجأة أخرى مذهلة ، بدَّدت طاقاتهم ، فقُتل أكثرهم وأُسر بعضهم .

وهكذا يظهر المسلمون في كل حروبهم في القرن الأول أعظم تفوقًا في التخطيط الحربي، وفي المواجهات الميدانية .

ولقد كان غير خاف على قتيبة أن ذلك الجيش المنتخب سيتقدمه رَصَد وعيون، خاصةً وأن فيهم أبناء ملوكهم، فلم يُخرج الجيش الإسلامي المُنتخب لقتالهم إلا ليلة وصولهم، حيث أخرجهم مع المغرب، ومن المرجح أن عيون الأعداء قد خَبَّروا الطريق إلى جيش المسلمين في النهار فأفادوا جيش الأعداء القادم بعدم استعداد المسلمين للقائهم، وإنما قصد قتيبة أن يأخذهم ليلا على غرة كما أرادوا هم ذلك فنجح في توريطهم، وكان عامل المفاجأة له أكبر الأثر في هزيمتهم .

ومما يشاد به حضور قتيبة تلك الليلة ومراقبته سير المعركة ، فلم يعتمد على القائد المكلف ويَبِتْ هو بأمان وطمأنينه وذلك لاحتمال أن يتغلب جيش الأعداء بعض الشيء وينجحوا في اختراق جيش المسلمين المعدِّ لهم ، وهنا لابد أنه كان في تخطيط قتيبة أن ينتدب لهم من يقاومهم قبل وصولهم إلى الجيش المرابط حول المدينة ، فلما رأى ماقام به جيشه المنتخب من اصطلام جيش العدو وإبادته حمد الله تعالى على نجاح الخطة ، هذا وإن شعور الجيش بحضور قائده الأعلى ومراقبته يعطيهم دفعة قوية نحو بذل أقصى ماعندهم من قوة ، خاصة

وأنه لايُفترض في كل الأحوال توفر من لايخلطون إرادة الآخرة بشيء من جاه الدنيا .

ومما يشاد به أيضًا خطبة قتيبة بن مسلم التي ربط بها ذلك الجيش بالله تعالى ، فنبَّههم إلى أن ماقاموا به من انتصارات إنما هي بتوفيق الله جلا وعلا ، وأن الأعداء قد هالهم واقع تلك الانتصارات ، فاختاروا أفضلهم في الحرب لالتماس غرة المسلمين ، ثم ثناؤه على جيشه المنتخب ببيان أنهم عظماء المسلمين وفرسانهم ، وهذا يعطيهم دفعة قوية نحو البذل والتضحية ، ثم الإشارة المهمة إلى مايرجح كفة المسلمين إن تعادلوا مع أعدائهم في الكفاءة القتالية ،وهو أن الله تعالى فضَّل المسلمين بدينه ، فكل الفريقين منتخَبون من أهل الكفاءة الحربية ولكن الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها المسلمون لايعادلها أي قوة معنوية أخرى ولايقاربها .

ثم إشارته المهمة إلى الهدف الأعلى من قتالهم، وهو أن يبلغوا رضوان الله تعالى عنهم ، إلى جانب مايشتركون به مع غيرهم من كونهم يدافعون عن أحسابهم ، وهذا دليل على قوة ارتباط قتيبة بالله تعالى ، الأمر الذي كان له أبلغُ الأثر في انتصاراته المتوالية .

ونعود الآن إلى خبر فتح قتيبة مدينة سمرقند .

قال الإمام الطبري في سياق روايته المذكورة عن شيوخه : « وَضَع قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها ، وهو في ذلك يقاتلهم لايُقلع عنهم، وناصَحه من معه من أهل بخارى وأهل خوارزم ، فقاتلوا قتالا شديدًا وبذلوا أنفسهم » .

وهكذا كان المسلمـون متفـوقين حتى في العتـاد الحربي ، فليس للمـدن المحـصنة من سـلاح آنذاك إلا المجـانيق ونحـوها من الآلات الثقيلة، والحصون وحدها هي التي كانت تقي الأعداء من المسلمين في ذلك الوقت ، أما المسـلمون فليس لهم حصـون إلا ظهور خـيولهم، وهذه لايمكن أن يحدَّ من حركتهـا أي سلاح يخترعه الأعداء، ولذلك لم يتـمكن أعداؤهم في كل مـيدان من اسـتعـمال الأسلحـة الثقـيلة ضدهم، وليس بإمكانهم أن يجاروهم في جـولاتهم على ظهور الخيل لتفوق المسلمين الباهر في هذا المجال .

ثم ذكر في الرواية المذكورة أن قـتيبة اختار الشـجعان وأهل الغناء في الحرب فجـمع لهم جيد السلاح وزحف بهم فرسـانا ورجالا نحو السور ، وثلم ثلمة بالمنجنيق، وقـال قتيبة : ألحُّوا عليـهم حتى تعبروا الثلمة ، فـقاتلوهم حتى صـاروا على ثلمة المدينة ، ورماهم الصـغد بالنشاب فـوضعوا تَرَسـتَهم ، فكان الرجل يضع ترسـه على عينه ثم يحمل ، حتى صاروا على الثلمة ، فقالوا له : انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غدا .

ثم ذكر صلحـه معـهم ، وأنه دخل المدينة وبُني له فيـها مسـجد وصلى فيـه ، وأنه أُتَي بالأصنام فسلُبت[1] ، ثم وُضـعت بين يديه، فكانت كـالقصر العـظيم حين جمعـت ، فأمر بتـحريقـها ، فـقالت الأعاجم : إن فيها أصناما من حرقها هلك ، فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدي ، فجاء «غوزك» [2] فجثا بين يديه وقال: أيها الأمير إن شكرك

---

(١) يعني أزيل ماعليها من حلية الذهب وغيره .

(٢) يعني ملك سمرقند .

علي واجب ، لا تعرض لهـذه الأصنام ، فدعا قـتيبـة بالنار ، وأخذ شعلـة بيده ، وخرج فكبَّـر ثم أشعلهـا ، وأشعل الناس فـاضطرمت فوجدوا من بقايا ماكان فيها من مـسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال (١) .

وهكذا كان قتيبة صارما في أمر الله لايهادن على الباطل ، فلابد من إزالة معالم الوثنية حتى تتحرر العقول من تعظيمها، وهذا هو أهم أهداف الغـزو الإسلامي ، لأن المقصـود به تحرير الـعقول من هيـمنة خرافات الوثنية ، وحينما يتم حرق تلك الأصنام ثم لايحصل بحرقها ضرر على المسلمين يتبين لعامـة الناس الذين ضللهم كبراؤهم أن تلك الأصنام لاتضر ولاتنفع ، فتـتخلَّى عقولهم من سـيطرتها وسيطرة من يُروِّجـون لهـا ، لتكون بعـد ذلك هذه العـقـول أهلا للتـحلِّي بدين التوحيد الذي لايفرض سلطة دينية بين الله تعالى وعباده .

ولقد أحسن قتيبة صنعا حين تولى حرقها بنفسه لأن ذلك أبلغ في التنفير منها وتحرير العقول من سيطرتها .

فـتح إقليمي الشاش وفرغانة :

وقد ذكر الإمام الطبـري خبر غزو قتيبـة بلاد الشاش وفرغانة سنة أربع وتسعين وأنه لما قطع النهـر فرض على أهل بخارى وكِشّ ونَسَف وخُوارَزم عـشرين ألـف مقاتـل ، قال : فـساروا معـه إلى السـغْد، فوُجِّهوا إلى الشاش ، وتوجه هو إلى فرغانة وسار حتى أتى «خُجَنْدَة» فجمع له أهلها فلقوه فاقتتلوا مراراً كل ذلك يكون الظفر للمسلمين.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٢ - ٤٧٦ ، البداية ٩/ ٨٥ ، الكامل ٤/ ١٢٦ .

قال : ففزع الناس يوما فركبوا خيولهم ، فأوفى رجل على نشز، فقال : تالله مارأيت كاليوم غرة ، لوكان هيج [يعني قتال] اليوم ونحن على ماأرى من الانتشار لكانت الفضيحة ، فقال له رجل إلى جنبه : كلا ، نحن كما قال عوف بن الخَرِع :

نَـؤُمُّ الـبلاد لحـب اللـقا ولانتَّقي طـائـرا حـيث طارا

سَنِيحًا ولاجَـارِيًا بارحـا على كل حال نلاقي اليسارا

وفي هذا دلالة على قوة معنوية أولئك الجنود حيث يقول هذا الذي تمثل بهذين البيتين : إنا على استعداد تام لأي عدو يلقانا لأن المبدأ الذي نجتمع عليه هو حب لقاء العدو .

قال : ثم أتى قتيبة كاشان مدينة فرغانة ، وأتاه الجنود الذين وجههم إلى الشاش وقد فتحوها وحرقوا أكثرها، وانصرف قتيبة إلى مرو[1] .

وهكذا ذكر الإمام الطبري أخبار فتح الإقليمين المذكورين باقتضاب، ولكن يُفهم من ذلك أن النهاية كانت سيادة حكم المسلمين على تلك البلاد .

وقد تقدم معنا أن أهل فرغانة والشاش قد قدَّموا لنصرة أهل سمرقند خيار جيشهم من أبناء الملوك ووجوه الناس والأبطال ، وأن المسلمين كمنوا لهم في الطريق ليلا فأبادوا أكثرهم وأسروا بعضهم ، فكانت هذه الفاجعة كافية لإثارة الرعب في قلوب أهل تلك البلاد فأصبحت مقاومتهم بعد ذلك ضعيفة .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٤٨٣ - ٤٨٤ .

ثم ذكر الإمام الطبري فتح قتيبة بلاد « كاشغر » وهي تقع حاليًا في تركستان الشرقية التابعة للصين ، وذلك في سنة ست وتسعين.

وذكر أن قتيبة أرسل إلى شِعْب عصام من يُسهِّل له الطريق إلى كاشغر ، ثم ذكر أنه بعث كثير بن فلان إليها فَسَبَى منها سبيًا ، فختَّم أعناقهم مما أفاء الله تعالى على قتيبة [1] .

وهكذا أيضًا ذكر فتح هذا الإقليم باختصار ، وقد تجاوزه قتيبة متجهًا إلى الصين كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وبهذا يكون قتيبة قد أتم فتح أقاليم بلاد ماوراء النهر وأظلها حكم الإسلام قبل نهاية القرن الأول ، واستمر دخول أهلها في الإسلام ، حتى أصبحت بعد ذلك تكوِّن جزءًا مهما من بلاد المسلمين، وأنجبت علماء أفاضل كان لهم دور بارز في نشر الإسلام وترسيخ دعائمه وخدمة العلوم الشرعية ، ويأتي على رأس قائمة هؤلاء العلماء الإمام أبو عبد الله البخاري ، ثم يأتي الإمام الترمذي والنسفي والبيهقي، وغيرهم من العلماء الكبار .

وقد أصبحت هذه البلاد تُسمَّى فيما بعد تركستان الغربية وتركستان الشرقية ، وقد وقعت الأولى تحت الاحتلال الروسي عقودا من الزمن،وقسموها إلى خمس دول ،وهي أوزبكستان وطاجكستان، وتركمانستان وقرقيزيا ، وكازخستان .

أما تركستان الشرقية فإنها لاتزال تحت الاحتلال الصيني. وماتزال تركتسان بشطريها تحتفظ بإسلامها مع ماطرأ عليها من بُعْد وانحراف .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٠٠ .

خضوع مملكة الصين للمسلمين :

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم توغل شرقا حتى قَرُبَ من بلاد الصين وذلك في سنة ست وتسعين .

قال: فكتب إليه ملك الصين : أن ابعث إلينا رجلا من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ،ونسائله عن دينكم ، فانتخب قتيبة من عسكره اثنى عشر رجلا - وقال بعضهم عشرة - من أفناء القبائل، لهم جَمَال وأَلْسُن وشعور وبأس ، بعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه ، فكلَّمهم قتيبة وفاطنهم [1] فرأى عقولا وجمالا ، وأمر لهم بعُدَّة حسنه من السلاح والمتاع الجيد، من الخز والوشي واللِّيِّن من البياض والرقيق - من الثياب - والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهَّمة تُقَادُ معهم ، ودواب يركبونها .

قال : وكان هبيرة بن المُشَمْرِج الكلابي مفوَّهًا بسيط اللسان، فقال: ياهبيرة كيف أنت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير قد كفيت الأدب ، وقل ماشئت أقُلْه وآخذ به [2]، قال : سيروا على بركة الله وبالله التوفيق ، لاتضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أن لاأنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختِّم ملوكهم، وأَجْبي خراجهم .

قال : فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج ، فلما قدموا أرسل

---

(١) أي اختبر فطنتهم .

(٢) يعني قد كفيت المنطق الذي تقتضيه المواقف المختلفة ، وقل ماتريد من شئون الحرب والسياسة أبلغه عنك .

إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمام ، ثم خرجوا فلبسوا ثيابا بيضا تحتها الغلائل، ثم مَسُّوا الغالية وتدخَّنوا ولبسوا النعال والأردية ، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا ، فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا : رأينا قوما ماهم إلا نساء .

قال : فلما كان الغد أرسل إليهم ، فلبسوا الوشْي وعمائم الخز والمطارف ، وغدوا عليه ، فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى وهم أولئك .

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم ، فشدُّوا عليهم سلاحهم ولبسوا البَيْض والمَعَافِر وتقلدوا السيوف واخذوا الرماح، وتنكَّبوا القِسِيّ، وركبوا خيولهم ، وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين ، فرأى أمثال الجبال مقبلة ، فلما دنَوا ركزوا رماحهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمِّرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا: ارجعوا ، لِماَ دخل قلوبهم من خوفهم .

قال : فانصرفوا فركبوا خيولهم ، واختلجوا رماحهم، ثم دفعوا خيولهم، كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء قط .

فلما أمسى أرسل إليهم الملك : أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم رجلا ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له حين دخل عليه : قد رأيتم عظيم ملكي ، وإنه ليس أحد يمنعكم مني ، وأنتم في بلادي ، وإنما أنتم

بمنزلة البيضة في كفي ، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم، قال : سل ، قال : لِمَ صنعتم ماصنعتم من الزِّي في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ قال : أما زيُّنا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا ، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لعدونا ، فإذا هاجنا هَيْج وفزع كنا هكذا .

قال : ماأحسن مادبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له : يَنْصَرِفْ ، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه ، قال له : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلَّف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولانخافه .

قال: فما الذي يُرضي صاحبك ؟ قال : إنه حلف أن لاينصرف حتى يطأ أرضكم ، ويُخَتِّم ملوككم ، ويُعْطَى الجزية ، قال: فإنا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختِّمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها .

قال : فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختَّم الغِلْمة وردهم ، ووطئ التراب (1) .

وهكذا أظهر أعضاء هذا الوفد عزة الإسلام أمام ملك الصين

(1) تاريخ الطبري ٦/ ٥٠٠ - ٥٠٣ ، الكامل ٤/ ١٣٦ .

وحاشيته ، واجتهدوا في الظهور أمامهم بالهيئات الثلاث التي حارت إعجاب الملك بعد أن عرف تفسيرها ، وإن كانت الهيئة الحربية هي التي أوقعت الرعب فيهم ، وهي التي كان الصحابة رضي الله عنهم يظهرون بها عند مقابلة الكفار .

وفي الحوار الذي دار بين ملك الصين وهبيرة نجد هبيرة موفقا في عرض قوة المسلمين ، وإظهار عزتهم ، حتى أحدث ذلك الخوف في قلب ملك الصين ، فتنازل عن تهديده للمسلمين ورضي بأن يحقق لهم جميع مايريدون في مقابل أن يتفادى القتال معهم وذلك حينما أشعره بأن قوة المسلمين ليست في هذا الجيش الذي حضر بلاده فقط، وإنما جيشهم ممتد من بلاده إلى بلاد الشام التي هي منابت الزيتون .

ولقد كان ملك الصين ووزراؤه أصحاب عقول رشيدة حيث اعتبروا بالدروس التي تلقاها من قبلهم ، فلم يقحموا دولتهم في صراع مع المسلمين ، وقد سبق ذكر اعتذار ملك الصين من إمداد ملك الفرس لما استنجد به ، وبين له أن المسلمين - بناء على الصفات التي نقلت عنهم - لايمكن أن يقف أمامهم أحد .

ومما يذكر في هذه المحاورة إشارة هبيرة إلى أن المسلمين لايخافون من الموت ، ولايمكن أن يخيفهم أحد بالقتل ، ولايصنع ذلك فيهم شيئًا ، لأنهم يؤمنون بالقدر ، ويعتقدون أن لكل إنسان أجلاً لايتجاوزه ، فإذا كتب الله تعالى انقضاء الأجل فإن أكرم أنواع الموت الشهادة في سبيل الله تعالى ، وهذه العقيدة العظيمة كانت وراء إقدام المسلمين على خوض الأهوال ومقارعة الأبطال، لأن الإقدام على

الخطر لايقدِّم الأجـل ، والإحجام عنه لايؤخـره عن موعـده المحدد، وإذا كان ملك الصين قد فهم هذا المعنى فإنه مما يـثير مخاوفه لأن هذا الاعتـقاد مرعب للكـفار ، حيث إنهم حـينما يقاتلون المـسلمين فإنما يقاتلون قـوما لايهابون الموت ، والذي يقـدم على قتال خصـمه وهو يحمل هذا الشعور لايمكن أن يقف أمامه أحد .

نبذة عن حياة قتيبة ونهايته :

يجدر بنا أن نذكر شيئًا من فضـائل قتيبة بن مسلم الباهلي وتاريخ حياة هذا القائد العظيم، فـهو الذي نقل الإسلام ورسخ دعائم الدولة الإسلامـية في بلاد ماوراء النهر التي تمـتد من بحر قزوين غـربا حتى حدود الصين شرقا .

هذا القائد كـان نبوغه مـبكرا حين كان في العراق، ولمَّا يتـجاوز الثلاثين من عمره ، وقد ظهر نبوغه حينما اعترض على الحجاج، وقد استشـار الناس في شبيب الخارجي الذي أعيـاه قتاله ، فلم يتكلم إلا قتـيبة ، فـقال للحـجاج : إنك لم تنصح لله ولا لأمـير المؤمنين في قتالهم ، فغضب الحجاج ، ولكنه كان في وضع يحتاج فيه إلى الناس لشدة هـجوم الخوارج فـقال له : وكـيف ذاك ؟ قال : تبـعث الرجل الشريف وتبعث معـه رعاعًا من الناس فينهزمون عنه ويستـحي فيقاتل حتى يقتل ، قال : فما الرأي ؟ قال : أن تخرج بنفسك ويخرج معك نظراؤك فيـواسونك بأنفـسهم ، وعمل الحـجاج بمشـورته وخرج لهم فكانت هزيمتهم [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٢٧٣ .

ولقد أفاد الحجاج من هذه المشورة في قتال ابن الأشعث حيث خرج له بنفسه وقاد المعارك الأخيرة الحاسمة .

ومازال قتيبة محل إعجاب الحجاج حتى ولاه على بلاد « الرَّى» واستعان به في القضاء على فتنة ابن الأشعث ، ثم ولاه خراسان ، فانطلق منها لفتح بلاد ماوراء النهر ، واستغرق فتحها عشر سنوات من سنة ست وثمانين حتى سنة ست وتسعين .

هذا وإن كان قتيبة رجلا ذا مواهب عالية من الشجاعة والمقدرة الإدارية والحربية فإنه يؤخذ عليه إهماله مبدأ الشورى في كثير من أموره، ولئن كان قد سلم من كثير من المشكلات الناجمة عن القرار المنفرد لتوفيق الله له أوَّلاً ثم لما يتمتع به من طاقة فكرية عالية وخبرة حربية واسعة فإن إهمال الشورى قد جر عليه مشكلة قضت على حياته وحياة إخوانه ، وذلك حينما بادر من غير مشورة فخلع الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ثم قام خطيبًا فعاب جميع القبائل الذين كانوا معه أشد العيب ، فكان نتيجة ذلك أن غضبت القبائل فولَّوا عليهم وكيع بن أبي أسود التميمي ، وثاروا على قتيبة فقتلوا إخوانه ثم قتلوه وكانت نهاية مؤلمة لهذا البطل الفاتح [١] .

* * *

(١) انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري ٥٠٦/٦ - ٥١٦ ، الكامل / ١٣٨/٤، البداية والنهاية ١٧٤/٩ .

٣ – فتوحات يزيد بن المهلب –

لما ولي الخلافة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ولي على خراسان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وذلك في عام سبعة وتسعين(١) .

فتح جرجان :

قال الإمام ابن جرير الطبري : وفي هذه السنة – يعني سنة ثمان وتسعين – غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان .

ثم ذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك لما ولّى يزيد بن المهلب على خراسان كان أهم شيء عنده أن يفتح جرجان وطبرستان (٢) لأن هذين الأقليمين كانا على طريق خراسان ، وقد تحول الطريق من فارس وكرمان، لعدم وجود الأمان للمسلمين في جرجان وطبرستان .

وكان يحكم جرجان عدد من الأمراء منهم صول التركي وفيروز ابن قول ، وكان بينهما نزاع وقتال، فذهب فيروز إلى يزيد بن المهلب يستنصر به فأغار صول على إمارته وأخذها ، فلما قدم فيروز على يزيد بن المهلب قال له يزيد : ماأقدمك ؟ قال: خفت صولاً فهربت منه، قال له يزيد : هل من حيلة لقتاله ؟ قال: نعم ، شيء واحد إن ظفرت به قتلته أو استسلم لك، قال: ماهو ؟ قال إن خرج من

---

١) تاريخ الطبري ٦ / ٥٢٣ .

٢) موقع الإقليمين في شمال إيران واسمهما الآن مازندران – معجم أماكن الفتوح –

جرجان حتى ينزل البحيرة [1] ثم أتيته فحاصرته بها ظفرت به، فاكتب إلى الإصبهبذ [2] كتابا تسأله فيه أن يحتال على « صول » حتى يقيم بجرجان ، واجعل له على ذلك جُعلاً ومَنّه ، فإنه يبعث بكتابك إلى صولٍ يتقرب به إليه لأنه يعظمه ، فيتحولُ عَن جرجان فينزلُ البحيرة.

فكتب يزيد بن المهلب إلى صاحب طبرستان : إني أريد أن أغزو «صولاً » وهو بجرجان ، فخفت إن بلغه أني أريد ذلك أن يتحول إلى البحيرة فينزلها ، فإن تحول إليها لم أقدر عليه، وهو يسمع منك ويستنصحك ، فإن حبسته العام بجرجان فلم يأت البحيرة حملت إليك خمسين ألف مثقال ، فاحْتَل له حيلة تحبسه بجرجان ، فإنه إن أقام بها ظفرت به، فلما رأى الأصبهبذ الكتاب أراد أن يتقرب إلى «صول» فبعث بالكتاب إليه، فلما أتاه الكتاب أمر بالرحيل إلى البحيرة، وحمل الأطعمة ليتحصن بها .

وبلغ يزيد أنه قد سار من جرجان إلى البحيرة، فاعتزم على السير إلى جرجان ، فخرج في ثلاثين ألفا ، وأقبل حتى أتى جرجان فدخلها بدون مقاومة تذكر، ثم سار إلى البحيرة فحاصرها، فكان يخرج إليه صولٌ في الأيام القليلة فيقاتله ثم يرجعُ إلى حصنه، فمكث الترك محصورين ستة أشهر ، حتى شربوا الماء المالح فأصيبوا بداء السُّؤَاد ، فوقع فيهم الموت، وأرسل صول في ذلك يطلب الصلح،

---

(١) هي جزيرة في البحر بينها وبين دهستان خمسة فراسخ وهما من جرجان مما يلي خوارزم.

(٢) هو حاكم طبرستان .

فقال يزيد بن المهلب : لا ، إلا أن ينزل على حكمي، فأبى، فأرسل إليه : إني أصالحك على نفسي ومالي وثلاثمائة من أهل بيتي وخاصتي، على أن تؤمنني فتنزل البحيرة ، فأجابه يزيد ، فخرج بماله وثلاثمائة ممن أحب ، فاستولى المسلمون على الجزيرة ، وقتل يزيد بعض من فيها من المقاتلة [1] .

فهذا الخبر فيه مواقف جهادية عالية ، منها :

١ - اهتمام يزيد بن المهلب بغزو بلاد جرجان وطبرستان ، وكانت هذه البلاد لوعورة أرضها وصعوبة مسالكها تصدُّ الغزاة من المسلمين ، وقد ذكر الإمام الطبري أن مصقلة بن هبيرة بن شبل الثعلبي الشيباني غزا جرجان في عهد معاوية رضي الله عنه في عشرة آلاف مجاهد فأصيب هو وجنده بالرَّويان ، وهي متاخمة لطبرستان ، فهلكوا في واد من أوديتها ، أخذ عليهم العدو بمضايقه فقتلوا جميعا، فهو يسمى وادي مصقلة، ولشهرة خبره كان يضرب به المثل : « حتى يرجع مصقلة من طبرستان » [2] . فكان لِمَاَ أصاب المسلمين في تلك الغزوة ولغيرها أثر على قادة المسلمين وجنودهم .

وقد جرى التوسع في الفتوحات شرقا حتى بلغ المسلمون في فتوحاتهم بلاد الصين ، بينما كانت بلاد جرجان وطبرستان دون خراسان، ومع ذلك تركها المسلمون، فكان اهتمام يزيد بن المهلب بغزو هذه البلاد أمرًا يذكر له .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٥ - ٥٣٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٥ - ٥٣٦ .

وقد جاء في رواية للطبري أن سليمان بن عبد الملك كان كلما افتتح قتيبة فتحًا قال ليزيد بن المهلب : أمَا ترى مايصنع الله على يدى قتيبة ؟ فيقول ابن المهلب : مافعلت جرجان التي حالت بين الناس والطريق الأعظم وأفسدت قومس وأبهرشهر ؟! [1] وهذا يبين بأن ابن المهلب قد اهتم بفتح هذه البلاد قبل أن يكون أميرًا على خراسان .

٢ - وفي هذا الخبر نماذج من التدابير الحربية الجيدة، فمن ذلك ماجرى من يزيد بن المهلب في كتابه إلى «صول» حاكم جرجان، حيث أخرجه بمكيدة ناجحة من مُتَمَنَّعٍ بلاده بجرجانٍ إلى الجزيرة التي لايستطيع أن يقاوم فيها طويلا، فاستطاع يزيد أن يأخذ جرجان بدون مقاومة تذكر، لأن أغلب جيوشها تحولت إلى الجزيرة التي تحصن بها أميرها « صول » ، ثم حاصرهم فيها حتى استسلم أميرهم .

ومن المواقف المذكورة في هذه الغزوة ماذكر الإمام أبو جعفر الطبري من خبر أبي محمد الثقفي قال: أصاب يزيد بن المهلب تاجًا بجرجان فيه جوهر ، فقال: أترون أحدًا يزهد في هذا التاج ؟ قالوا: لا ، فدعا محمد بن واسع الأزدي فقال: خذ هذا التاج فهو لك، قال: لا حاجة لي فيه ، قال: عزمت عليك ، فأخذه ، وخرج فأمر يزيد رجلا ينظر مايصنع به ، فلقى سائلا فدفعه إليه، فأخذ الرجُل السائلَ فأتى به يزيد وأخبره الخبر، فأخذ يزيد التاج وعوَّض السائل مالا كثيراً [2] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٥٣٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٦/٥٣٩ .

وهكذا كانت شـهرة هـذا الإمام الزاهـد العابـد في الزهـد والعفة والورع قـد وصلت إلى القـادة والأمراء ، فكـان يزيد بن المهلب يعلم أن محـمد بن واسع سـيزهد في ذلك التـاج، فأراد أن يظهـر للناس نموذجًا من البشـر قد سمت نفوسهم وعلت طموحـاتهم ، فتجاوزت مـايتنافس الناس عليـه من متـاع الدنيـا ، وحلَّقت إلى نعيم الآخـرة الخالد، فأصبح الجوهر النفيس عندهم يعادل أدنى عملة يمكن أن تقدم لسائل بائس .

لقد كـان يزيد بن المهلب وأمثـاله من العقـلاء يدركون المسـتوى الرفيع الذي بلغه محمد بن واسع وأمثاله ، ولكنهم لايستطيعون بلوغ ذلك المنسـتوى ، لأن نفوسـهم لم تتجـرد بعْدُ من حـب المال والجاه، ولأنهم لم تتمثل في أفكارهم عظمة الجنة ودرجاتها المتفاوتة في السمو والنعيم ، ولكنَّ وضع يزيد مع ذلك أفضل بكثير من الذين لم يَدُر في مخيلتهم أن أحدًا من الناس يزهد في متاع الدنيا .

فتح طبرستان :

ذكـر الإمام أبو جـعفـر محـمد بن جـرير الطبري عن عـدد من الشـيوخ أن يزيد بن المهلب لما صـالح حاكم جـرجان رغب في فـتح طبـرسـتـان ، فلما عـزم على المسيـر إليهـا ولَّى عبـد الله بن المعـمّر اليشكري على بيـاسان ودهستـان، وخلَّف معه أربعـة آلاف، ثم أقبل إلى أدنى جرجان مما يلي طبرستان ، واستعمل على أندرستان أسد بن عمرو - أو ابن عبد الله بن الرَّبعـة - وهي مما يلي طبرستان ، وخلَّفه في أربعـة آلاف ، ودخل يزيد طبـرسـتـان ، فـأرسل إليه حـاكـمهـا

الأصبهبـذ يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستـان فأبى يزيد ورجا أن يفتحها وأقام معسكرًا هناك .

ووجه يزيد ابنه أبا عـيينة في جيش لقـتال الأعداء، وكـان حاكم طبرستان قـد استنجد بأهل جيلان وأهل الديلم، فـالتقوا مع المسلمين في سفح جبل فانـهزم المشركون وتبعهم المسلمون حـتى انتهوا إلى فم الشعب فدخله المسلمون ، فرماهم المشركون من فوق الجبل فانهزم أبو عيـينة والمسلمون ورجعـوا إلى معسكر يزيد، ولـم يتـبعهـم المشـركون خوفا من هجوم جيش المسلمين عليهم .

وكتب الإصـبهبذ حـاكم طبرستان إلى المرزبان ابن عم فـيروز بن قـول وهو بأقـصى جـرجان مما يلـي البيـاسـان : إنا قـد قـتلنا يزيد وأصحابه فاقـتل من في البياسان من العرب، فخـرج بجيشه إلى أهل البياسان والمسلمون آمنون في منازلهم ، فقـتلوا المسلمين جميعًا وكانوا أربعة آلاف بقيادة عبد الله بن المعمَّر .

وبلغ يزيد والمسـلمين ذلك فـهـالهم وأعظمـوا ذلك وبلغـهـم أن المرزبان كتب إلى الإصبهبذ ليسد المنافذ على المسلمين ، وهذا يعني أن المسلمين قد وقعوا بين جيشين للأعداء، ففزع يزيد إلى حيان النبطي[1] وقال له : لا يمنعك ماكان مني إليك من نصـيحة المسلمين، قد جاءنا عن جرجان ماجاءنا ، وقد أخذ هذا بالطرق فاعمل في الصلح، قال: نعم ، فأتى حيان الإصبهبذ فقال: أنا رجل منكم ، وإن كان الدين قد

---

(١) هو من العجم وقد كان دخل في الإسلام وحسن إسلامه وتولى بعض الأعمال، وقد كان يزيد غرمه مائتي ألف بسبب إهانة وقعت منه لمخلد بن يزيد .

فرق بيني وبينكم فـإني لكم ناصح، وأنت أحب إلي من يزيد ، وقد بعث يستمد ، وأمداده قـريبة، وإنما أصابوا منه طرفا، ولست آمن أن يأتيك مالاتقوم له ، فأرح نفسك منه وصالحه، فإنك إن صالحته صيَّر حدَّه على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم مـن قتلوا، فصالَحَه على مبلغ كبيـر من المال ، وقد أرسل إليهم يزيد ذلك المال الذي صـالحهم عليه حيَّان النبطي [1] .

وهذا الذي قام به يزيد بـن المهلب من مصالحـة حاكم طبرسـتان يعتبـر من التدابير الحربية الناجـحة، وهذا الصلح وإن كان ظاهره ذلة للمسلمين ، حيث سيدفعون لذلـك الحاكم مبلغا كبيرًا من المال إلا أنه في الحقيقة نوع من الخداع الحربي، حيث أراد يزيد أن يتقي بذلك شر أحد الجيشين ليتفرغ للجيش الآخر، فإذا تم القضاء عليه رجع للجيش الذي صالحه في الوقت المناسب .

فتح جرجان مرة أخرى :

وقد ذكر الإمام الطبري فيما يرويه عن شيوخه أن يزيد بن المهلب لما صالـح أهل طبرسـتان قصـد لجرجـان ، فلما بلغ المرزبـان حاكم جرجان أن يزيد قد صالح حاكم طبرستان جمع أصحابه وأتى مدينة « وجاه » فتـحصن فيها ، وأقـبل يزيد حتى نزل عليها وحولهـا أشجار كثيفـة ولايعرف لها إلا طريق واحد، فأقـام محاصرًا لها سبـعة أشهر لايقدر منهم على شيء ، وكـانوا يخرجون في بعض الأيام فيـقاتلونه ويرجعون إلى حصنهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٥٣٩/٦ - ٥٤١ باختصار .

وفي يوم من الأيام خرج رجل من جيش يزيد من قبيلة طيء يتصيد[1] ، فأبصر وَعِلاً يرقى في الجبل فاتَّبعه ، وقال لمن معه : قفوا مكانكم ، وصعد في الجبل يقتص أثر الوعل، فما شعر بشيء حتى أطل على عسكر الأعداء، فرجع يريد أصحابه فخاف أن لايهتدي لتلك الثغرة إذا أراد العودة فجعل يُقطِّع قباءه ويعقد على الشجر علامات ، حتى وصل إلى أصحابه، ثم رجع إلى العسكر فأتى إلى عامر بن أينم الواشجي صاحب شرطة يزيد ، فرفع ذلك إلى ابني زُحَر بن قيس فأدخلاه على يزيد ، فقال له : أتريد أن تدخل «وجاه» بغير قتال ؟ قال : نعم ، فأعلَمَه بذلك الطريق الجبلي المطل على الأعداء ، فندب الناس فانتدب له ألف وأربعمائة ، فقال ذلك الرجل: الطريق لايحمل هذه الجماعة لكثرة الأشجار فيه، فاختار يزيد منهم ثلاثمائة فوجههم معه وأمَّر عليهم أحد قادته وقال له: إن غُلِبْتَ على الحياة فلا تُغلبنَّ على الموت، وإياك أن أراك عندي منهزما، وقال للرجل الذي أعلمه بذلك : متى تصل إليهم ؟ قال: غداً عند العصر فيما بين الصلاتين ، قال: امضوا على بركة الله فإني سأجهد على مناهضتهم غداً عند صلاة الظهر .

فساروا ، فلما قارب انتصاف النهار من غد أمر يزيد الناس أن يُشعلوا النار في حطب كان قد جمعه في حصاره إياهم، فصيَّره آكامًا، فأضرموه ناراً ، فلم تَزُل الشمس حتى صار حول عسكره أمثالُ

---

(١) وقيل إنه الهياج بن عبد الرحمن الأزدي من أهل طوس .

الجبال من النيران ، ونظر العدو إلى النار فهالهم مارأوا من كثرتها فخرجوا إليهم ، وأمر يزيد الناس حين زالت الشمس فصلَّوا وجمعوا بين الصلاتين ، ثم زحفوا إليهم فاقتتلوا .

وسار أصحاب تلك السرية بقية يومهم والغد ، فهجموا على عسكر الترك قبيل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيد والمسلمون يقاتلونهم من الوجه الآخر، فما شعر الأعداء إلا بالتكبير من ورائهم ففروا جميعًا إلى حصنهم، وركبهم المسلمون فأعطوا بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم ، ثم رجع إلى خراسان ، وأمَّر على جرجان جهم بن زحر الجعفي (١).

وهكذا نجح المسلمون في فتح إقليم جرجان ولقد كان من مظاهر توفيق الله تعالى ونصره لذلك الجيش أن ألهم ذلك الرجل الصياد إلى صعود ذلك الجبل الشاهق الوعر المكتظ بالأشجار ليطل على الأعداء فيكتشف عورةً لهم ، ثم يكون الفتح ونصر المسلمين من ذلك الطريق، ولقد كان ذلك الصياد عالي الهمة حينما حمل على عاتقه مسئولية كشف ذلك الطريق الذي كان به فرج المسلمين ، كما كان يزيد بن المهلب قائدا بارعًا حينما اغتنم تلك الفرصة فخطط للقضاء على الأعداء بإرباكهم من خلفهم والهجوم عليهم من أمامهم في وقت واحد .

وإن مما ينبغي الإشادة به موقف تلك السرية التي لايتجاوز عدد أفرادها ثلاثمائة ، حيث غامر أفرادها بالسير في تلك المجاهل ، ثم

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٥٤١ - ٥٤٣ .

بالهجوم على جـيش قوي كثيف من الخلف، إذ أن هناك احـتمال أن ينعطف عليهم ذلك الجيش فيبيـدهم ، فهذا مثل من شجاعة المسلمين العالية ومسارعتهم إلى البذل والتضحية .

* * *

٤ – جهاد بعض القادة في أواخر عهد بني أمية

جهاد المسيب بن بشر الرياحي :

ذكر الإمـام الطبري أن خاقان ملك التـرك جمعهم ووجّـههم إلى السُّغد ، فـكان على الترك كـورصـول، وأقـبلوا حتى نـزلوا قصـر الباهليّ.

قال : وقال بعضـهم : أراد عظيمٌ من عظماء الدّهاقين أن يتزوج امرأة من باهلة ، وكـانت في ذلك القصر ، فـأرسل إليها يخطبـها. فأبت، فاستجاش ورجا أن يسـبُوا مَنْ في ذلك القصر ، فيأخذ المرأة، فـأقبل كـورصول حـتى حصـر أهل القـصر ، وفـيه مـائة أهل بيت بذراريّهم ، وعلى سمرقـند عثمان بن عبـد الله بن مطرف وخافوا أن يبطئ عنهم المدد ، فصالحوا الترك على أربعين ألفًا ، و أعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة ، وندب عثمان بن عبد الله الناس ، فانتدب المسيّب ابن بشر الرياحيّ وانتدب مـعه أربعة آلاف من جميع القبـائل ، فقال شعبة بن ظهير : لو كان ها هنا خيول خُراسان ماوصلوا إلى غايتهم.

ثم ذكر بعض اسـماء من انتدب للقتـال من الأبطال إلى أن قال: فقـال المسيَّب بن بشر لما عـسكروا : إنكم تقدمون على حَلْبـة الترك، حلْبة خاقان وغيرهم ، والعـوَض إن صبرتم الجنة ، والعقاب النار إن فررتم ، فمن أراد الغزو والصبر فليقدم .

فـانصرف عنه ألف وثلثـمائـة ، وسار في البـاقين ، فلما سـار فرسخًا قال للناس مثل مقالته الأولى ، فاعتزل ألف ، ثم سار فرسخًا آخر فـقال لهم مـثل ذلك ، فاعـتزل ألف . ثم سار – وكـان دليلهم

الأشهب بن عبيد الحنظليّ - حتى إذا كان على فرسخين من القوم نزل فأتاهم ترك خاقان ملك قِيّ فقال : إنه لم يبقَ هاهنا دهْقان إلا وقد بايع الترك غيري ، وأنا في ثلثمائة مقاتل فهم معك ، وعندي الخَبر، قد كانوا صالحوهم على أربعين ألفًا ، فأعطوهم سبعة عشر رجلا، ليكونوا رَهْنًا في أيديهم حتى يأخذوا صلحَهم ، فلما بلغهم مسيركم إليهم قتل الترك مَنْ كان في أيديهم من الرهائن .

قال : وكان فيهم نهشل بن يزيد الباهليّ فنجا لم يقتَل ، والأشهب بن عبيد الله الحنظليّ ، وميعادهم أن يقاتلوهم غدًا أو يفتحوا القَصْر ، فبعث المسيّب رجلين : رجلا من العرب ورجلاً من العجم من ليلته على خيولهم ، وقال لهم : إذا قرُبتم فشُدُّوا دوابَّكم بالشَّجَر ، واعلموا علم القوم . فأقبلا في ليلة مظلمة ، وقد أجْرَت الترك الماء في نواحي القصر ، فليس يصل إليه أحدٌ ، ودنوا من القصر ، فصاح بهما الربيئة ، فقالا : لاتصحْ وادعُ لنا عبد الملك بن دثار ، فدعاه فقالا له : أرسلنا المسيّب ، وقد أتاكم الغياث ، قال: أين هو ؟ قال : على فرسخين ، فهل عندكم امتناع ليلتك وغدًا؟ فقال: قد أجمعنا على تسليم نسائنا وتقديمهم للموت أمامنا ، حتى نموت جميعًا غدًا . فرجعا إلى المسيَّب ، فأخبراه فقال المسيب للذين معه : إني سائر إلى هذا العدو ، فمن أحب أن يذهب فليذهب ، فلم يفارقه أحدٌ ، وبايعوه على الموت .

فسار وقد زاد الماء الذي أجروه حول المدينة تحصينًا ، فلما كان بينه وبينهم نصف فرسخ نزل ، فأجمع على بياتهم ، فلما أمسى أمر

الناس فشدّوا على خيولهم ، وركب فحثّهم على الصبر ، ورغّبهم فيما يصير إليه أهل الاحتساب والصبْر ، ومالهم في الدنيا من الشرف والغنيمة إن ظفروا ، وقال لهم : اكعَموا دوابّكم[1] وقُودوها ، فإذا دنوتم من القوم فاركبوها ، وشدّوا شدّةً صادقة وكبّروا ، وليكن شعاركم : يامحمد [2] ، ولاتتبعوا مُولّيًا ، وعليكم بالدوابّ فاعقروها ، فإنّ الدوابّ إذا عُقرت كانت أشدَّ عليهم منكم ، والقليل الصابر خيرٌ من الكثير الفشِل ، وليست بكم قلّة ، فإنّ سبعمائة سيف لايُضرب بها في عسكر إلاّ أوهنوه وإن كثر أهله .

قال : وعبّأهم وجعل على الميمنة كثير بن الدَّبوسيّ ، وعلى الميسرة رجلا من ربيعة يقال له ثابت قُطْنة ، وساروا حتى إذا كانوا منهم على غلوتين كبروا وذلك في السحَر ، وثار الترك ، وخالط المسلمون العسكَر ، فعقروا الدوابّ ، وصابرهم الترك ، فجال المسلمون وانهزموا حتى صاروا إلى المسيَّب ، وتبعهم الترك وضربوا عَجُز دابة المسيّب فترجَّل رجال من المسلمين ، فيهم البَختريّ أبو عبدالله المرائيّ ، ومحمد بن قيس الغَنَويّ - ويقال : محمد بن قيس العنبريّ - وزياد الأصبهانيّ ، ومعاوية بن الحجاج ، وثابت قطنة . فقاتل البَختريّ فقطعت يمينه ، فأخذ السيف بشماله فقطعت ، فجعل يذبُّ بيديه حتى استشهد . واستشهد أيضًا محمد بن قيس العنبريّ أو الغَنَوي وشبيب بن الحجاج الطائي .

---

(١) أي اربطوا أفواهها ، وذلك أقوى لها على تحمل الشدة والعطش .

(٢) هذا ليس من الاستغاثة لأن الاستغاثة بغير الله تعالى لم تكن معروفة عند التابعين لوضوح كونها من الشرك ، وإنما هو مجرد شعار يتعارفون به كما جاء في الخبر .

قـال : ثم انهـزم المشركـون ، وضـرب ثابت قُطْنة عظيـمًـا من عظمائهم، فقتله، ونادى منادي المسيّب، لاتتبعوهم ، فإنهم لايدرون من الرّعب ، اتبعـتموهم أم لا ! و اقصدوا الـقَصْر ، ولاتحملوا شـيئًا من المتاع إلا المال ولاتحملوا من يقدر على المشي .

وقال المسيّب : مَنْ حمل امـرأة أو صبيًا أو ضعيفًا حِـسْبَةً فأجرُه على الله، ومَنْ أبى فله أربعون درهمًا ، و إن كان في القصر أحدٌ من أهل عَهْدكم فاحمـلوه . قال : فقصدوا جميعًا القَـصْر ، فحملوا منْ كان فـيه ، وانتـهى رجلٌ من بني فُـقَيم إلى امـرأة ، فقالت: أغـِثْني أغاثك الله ! فـوقف وقال : دونك وعجز الفرس ، فـوثبت فإذا هي على عجُز الفـرس ، فإذا هي أفرسُ من رجل ، فتناول الفقـيمي بيد ابنها ، غلامًا صغيراً ، فوضعه بين يديه ، وأتَوْا ترك خاقان ، فأنزلهم قصره وأتاهم بطعام . وقال: الحقوا بسمرقند ، لايرجعوا في آثاركم. فخـرجوا نحو سمـرقند ، فقال لهم : هل بقي أحـد ؟ قالوا : هلال الحـريريّ ، قـال : لا أسلمه ، فـأتاه وبه بضع وثلاثـون جراحـة ، فاحتمله ، فبرأ ، ثم أصيب يوم الشعب مع الجنيد .

قال : فرجع الترك من الغـد ، فلم يروا في القصر أحدًا ، ورأوا قتلاهـم ، فقالوا :لم يكن الَّذين جاءوا من الإنس ، فقال ثابت قطنة:

فَدَتْ نفسي فوارسَ مِـن تميم ... غَدَاةَ الـرَّوع فـي ضَـنْكِ المقامِ

فدت نفسِي فـوارسَ أكنفوني ... على الأعـداء في رَهَـج القتَام

بقَصْـرِ الباهليِّ وقـد رأونـي ... أحامي حيث ضَنَّ به المحامِي

بسيفي بعد حَطْمِ الرُّمحِ قُدْمًا ... أذُودُهُـمُ بذي شُطَبٍ جُسَام

أكُرُّ عليهم اليَحْمُومَ كَرًّا ... ككرِّ الشَّرْبِ آنيَةَ المُدامِ
أكُرُّ به لدَى الغمراتِ حتى ... تَجلَّتْ لا يَضيقُ بها مَقامي
فلوْلا اللهُ ليس له شَرِيكٌ ... وضَرْبي قَوْنَسَ الملكِ الهمامِ
إذًا لَسعَتْ نساءُ بني دِثَارٍ ... أمامَ الترك بادِيَةَ الخِدَامِ !
فمَنْ مِثْلُ المسيَّبِ في تميمٍ ... أبى بِشْرٍ كَقَادِمةِ الحمامِ[1]

ففي هذا الخبر مثل جليل لما يصنعه الصبر والثبات وسمو الأهداف، فهؤلاء الذين لم يتجاوزوا سبعمائة قد انتصروا على جيش كبير يبلغ أضعافهم، وليس كل السبعمائة ثبتوا ، بل فرَّ أكثرهم لضراوة القتال وهول الصدام، ولم يثبت مع قائدهم المسيب بن بشر الرياحي إلا القليل، وبهؤلاء الذين ثبتوا حُسمت المعركة وتنزَّل نصر الله تعالى .

إن هؤلاء الأبطال الأشاوس أشبه شيء بالصخور الصلبة التي تتحطم أمام شموخها وعليائها أمواج الطوفان الهادر . . إنه طوفان مدمِّر يهدم البيوت ويقتلع الأشجار ، ويغير معالم الأرض، ولكنه يتفرق ويتشتت أمام صلابة الصخور ورسوخها .

لقد كان المسيب بن بشر رجلا عظيما حينما استصفى أصحابه ومحصهم فلم يقبل أن يتبعه إلا عُشَّاق الموت وطلاب الآخرة، لأن هؤلاء الأفذاذ هم الذين تتبدل بهم الموازين، وتتقرر بهم مصائر الأمم .

ونزل نصر الله تعالى على هذه الفئة القليلة الثابتة ، وانقذوا من في ذلك القصر من المسلمين المحصورين ، وأصيب الأعداء بالذهول

(١) تاريخ الطبري٦/٦٠٨ – ٦١١ ، وانظر البداية والنهاية ٩/ ٢٣٠ .

والحيرة مما حدث ، لأنه مما يشبه خوارق العادات ، وكذَّبوا أعينهم التي صوَّرت لهم أولئك الأبطال بأنهم من البشر ، وغلَّبوا ماتخيلته عقولهم الحائرة من أن الذين لقوهم كانوا من الجن .

جهاد الجُنَيد بن عبد الرحمن المُرِّي :

روى الإمام الطبري عن شيوخه من خبر غزو الجُنَيد بن عبدالرحمن المُرِّي أمير خراسان وبلادَ ماوراء النهر : أنه خرج غازيا في سنة اثنتي عشرة ومائة يريد طخارستان فنزل على نهر بَلْخ ، ووجَّه عُمارة بن حُرَيم إلى طخارستان في ثمانية عشر ألفًا وإبراهيم بن بسَّام الليثي في عشرة آلاف في وجه آخر ، وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سَوْرة بن الحرِّ أحدُ بني أبان بن دارم ، فكتب سورة إلى الجنيد: إن خاقان جاش بالترك فخرجتُ إليهم فما قدرت أن أمنع حائط سمرقند ، فالغوث .

فأمر الجنيد الناس بالعبور [1] فقام إليه المجَشَّر بن مزاحم السُّلَمي وابن بسطام الأزدي وابن صبح الخَرَقي فقالوا : إن الترك ليسوا كغيرهم لايَلْقَونك صفًا ولازحفا [2] وقد فرَّقت جندك ، فمُسلِم بن عبدالرحمن النيروز والبختريّ بهراة ، ولم يحضرك أهل الطالقان، وعمارة بن حُرَيم غائب [3] وقال له المجشَّر : إن صاحب خراسان لايعبر النهر في أقل من خمسين ألفا [4] ، فاكتب إلى عمارة فليأتك

---

(١) يعني بعبور نهر جيجون الذي يفصل خراسان عن بلاد ماوراء النهر .

(٢) يعني أنهم يقومون بالغارات المفاجئة .

(٣) يعني بطخارستان .

(٤) يعني من كان أميرا على خراسان قبل الجنيد لأن الجنيد حديثُ عهد بالولاية .

وأمهل ولاتعجل ، قال: فكيف بسَوْرة ومن معه من المسلمين ! لو لم أكن إلا في بني مرة [1] أو من طلع معي من الشام لعبرت ، وقال :

أليس أحقَّ الناس أن يشهد الوغى

وأن يَقْتل الأبطال ضخم على ضخم

وقال :

مـاعلَّتي مـاعلَّتِي ما علَّتِي   إنْ لـم أقاتلهم فجُزُّوا لِمَّتِي

قال : وعبـر فنزل « كِسَّ » وقد بعث الأشهب بن عبـيد الحنظلي ليعلم علم القوم ، فرجع إليه وقال : قد أتوك فتأهب إلى المسير .

وهنا نقف قليـلا لنتـأمل هذا المشهـد الذي برزت فـيه شـجاعـة الشجـعان في مقابل رأي أهل الـرأي ، فالمتأمل يرى في كلام الأمـير الجنيد وعزمـه وتصميمه على مـواجهة جيش الترك مـواقف عالية في الشجـاعة والشهامـة والرحمة بإخـوانه المسلمين المحاصرين بسـمرقند والعزم الأكـيد على حمايتـهم وإنقاذهم مهـما كلفه ذلك وجيـشه من متاعب .

لكنَّ رأي أهلِ الرأي له وزنه الكبـير في تقـدير ذلك الموقف لأن المُجَشَّر الـسُّلَمي وأصحابه أهل خبـرة طويلة بقتال الترك بينمـا الجنيد حديث عهد بذلك .

ومع كون الجُنيـد لم يقبل برأيهم فإنهم قـد أطاعوه وعبـروا النهر معه ولـم يخذلوه مع غلبة ظنهم بأن الترك سيقتطعونه وجيشه وستكون

---

(١) يعني أفراد قبيلته .

عليه هزيمة ونكبة كبيرة ، وهذا موقف يُذكر لهم في طاعة القائد .

قال : وبلـغ الترك [1] فعوّروا الآبار [2] التي في طـريق «كِسّ» ومافيها من الرَّكايا [3] ، فقال الجنيـد : أيُّ الطريقين إلى « سمرقند» أمثل؟ قالوا: طريق المحترقة ، فقال المجَشَّر بن مزاحم السُّلمي : القتل بالسيف أمثل من القتل بالنار ، إن طريق المحترقة فيه الشجر والحشيش ولم يُزرع منذ سنين فقـد تراكم بعضه على بعض ، فإن لقـيتَ خاقان أحرق ذلك كله فقـتلَنا بالنار والدخان ، ولكن خذ طريق العقبـة فهو بيننا وبينهم سواء .

فأخذ الجنيد طريق العقبة . . إلى أن قال: ومضى بالناس حتى دخل الشِّعب وبينه وبين مدينة سمرقند أربعة فراسخ، فصبَّحه خاقان في جمع عظيم، وزحف إليه أهل السُّغد والشاش وفرغانة وطائفة من الترك.

قال : فحمل خـاقان على المقدمة وعليها عثـمان بن عبد الله بن الشِّخِّيـر ، فرجعوا إلى العـسكر والترك تتبعـهم ، وجاؤوهم من كل وجه . . إلـى أن ذكر أن العدو قـصد للمـيمنة وفـيهـا تميم والأزد في موضع واسع فيه مجال للخيل .

قـال : وصبـر الناس يقـاتلون حتى أعَـيـوْا ، فكانت السيـوف لاتُحيك ولاتقطع شيئًا ، فقطع عـبيدهم الخشب يقاتلون به ،حتى ملَّ الفريقان ، فكانت المعانقة فتحاجزوا .

---

(١) أي بلغهم عبور المسلمين إليهم النهر .

(٢) أي دفنوها حتى لايستفيد منها المسلمون .

(٣) أي منابع الماء .

وذكر أنه استشهد في ذلك اليوم مئات من المسلمين ، وذكر أسماء عدد من أبطالهم [1] .

وهكذا انتهت هذه المعركة الهائلة التي قابل فيها المسلمون أضعافهم من الكفار بالتحاجز بين الطرفين ، وهذا يعني عدم انتصار أيٍّ من الفريقين على الآخر ، وهذا مثال على شجاعة المسلمين وثباتهم وصبرهم .

وماجاء في الرواية من قول الراوي « فكانت السيوف لاتحيك ولاتقطع شيئًا » دليل على الجهد الكبير الذي بذله المسلمون في القتال، حيث كلَّت السيوف ودثرت من كثرة الضرب بها .

إن من أبرز ماخلَّده المسلمون من عظمة في هذه المعركة غير المتكافئة أنه لم يُذكر أن الأعداء أسروا أحدًا من المسلمين ولاأن أحدًا منهم فَرَّ من المعركة ، وهذا الثبات العظيم هو الذي أذهل الأعداء فقرروا إنهاء المعركة مع ماكانوا يتوقعونه في البداية من المقدرة على سحق المسلمين وإبادتهم ، لقلتهم الظاهرة أمام كثرة أعدائهم .

ونظرًا لأن هذه المعركة تمت في أحد شعاب تلك المنطقة فقد اشتهرت بعد ذلك بيوم الشِّعب .

ومن المواقف التي ينبغي الإشارة بها في هذه المعركة ماذكره الإمام الطبري في سياق روايته من مواقف بعض الشهداء ، ومن ذلك ماذكره عن يزيد بن المفضَّل الحُدَّاني أنه حمل يوم الشِّعب على مائة بعير سويقا للمسلمين ، فجعل يسأل عن الناس ، ولايسأل عن أحد إلا

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧١ - ٧٤ .

قيل له : قد قُتل ، فتقدم وهو يقول: لاإله إلا الله ، فقاتل حتى قتل .

وذكر أنه قال لأمه بعد عودته من الحج : ادْعي الله أن يرزقني الشهادة .

وممن ذكر الطبري محمد بن عبد الله بن حوذان : قال عنه: فحمل سبع مرات يَقتل في كل مرة رجلا . ثم رجع إلى موقفه فهابه من كان في ناحيته ، فناداه ترجمان للعدو : يقول لك الملك : لاتُقبِل وتحوَّل إلينا فنرفض صنمنا الذي نعبده ونعبدك ، فقال محمد: أنا أقاتلكم لتتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده فقاتل واستشهد [(١)] .

وهكذا كان غَنَاء هذا البطل المجاهد عن كتيبة من المقاتلين لفرط شجاعته وإقدامه ، فلهذا كان الأعداء الذين هم بناحيته يهابون الإقدام على تلك الناحية وكأنهم يجابهون - بشخص هذا المجاهد - كتيبة كاملة ، ولقد ناداه الأعداء بذلك العرض الكبير لينحاز إليهم حتى يفقد المسلمون به الرجل القوي الشجاع الذي حمى ناحيته من الأعداء، ولكنه أجابهم بما يملؤ قلوبهم حسرة ، وذلك حينما بين لهم الهدف العالي الذي يقاتل من أجله المسلمون ولقد ظفر - رحمه الله- بالشهادة التي هي أفضل نهاية .

وممن ذَكَر الطبري النَّضْرَ بن راشد العبدي ، وكان دخل على امرأته والناس يقتتلون فقال لها : كيف أنت إذا أُتيت بأبي ضمرة[(٢)] في لَبْد [(٣)] مضرَّجا بالدماء ؟ فشقَّت جيبها ودعت بالويل ، فقال :

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧٤ .

(٢) يعني نفسه فهذه كنيته .

(٣) اللَّبْدُ البساط .

حسبــك، لو أَعولَتْ عليَّ كلُّ أنثى لعصيــتها شوقــا إلى الحور العين، ورجع فقاتل حتى استشهد رحمه الله [١].

وهكذا رأينا شوق هذا المجــاهد النبيل إلى الشهادة في ســبيل الله تعالى ، حيث لم يثنه عن الإقدام على الجهاد بكاء امرأته الشديد على فقده، ولقد قــارن بين متعة الدنيا ونعيم الآخــرة فأبان أنه لو جُمع له متاع الدنيا كله لم يعدل ماأعده الله سبحانه للشهداء من الحور العين، فضلا عما هو أعظم من ذلك من النعيم .

هذا وقد ذكــرنا سابقــا أن المسلمين التقــوا بالترك وكان المــسلمون بقيادة الجُنَيد بن عبد الرحــمن المُرِّي ، والتُّركُ بقيادة خاقان، وأن عدد المسلمين كــان أقل من التــرك بكثــيــر ، ومع ذلك ثبــتــوا لهم إلى أن تحاجزوا وأوقفوا المعركة .

لكن خاقــان عاد بجــيشه بعــد ذلك بيوم وفي ذلك يقــول الإمام الطبري في ســياق روايته : وكانوا لقــوا خاقان يوم الجمــعة ، فأرسل الجنيد إلى عبد الــله بن معمر بن سُمَير الــيشكريِّ أن يقف في الناحية التي تلي « كِسَّ» ويــحــبس من مــرَّ به ويحــوز الأثقــال والرِّجَّــالة ، وجاءت الموالي رجالة ليس فيهم غير فارس واحد، والعدو يتبعونهم، فثبت عبد الله بن معمر للعدو فاستشهد في رجال من بكر .

قال : فأصبحوا يوم السبت [٢] ، فأقبل خاقان نصف النهار، فلم ير موضعا للقتال فــيه أيسر من موضع بكر بن وائل، وعليهم زياد بن

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧٤ – ٧٥ .

(٢) يعني جيش المسلمين .

الحارث، فقصد لهم فقالت بكر لزياد : القوم قد كثرونا فَخَلِّ عنا نحمل عليهم قبل أن يحملوا علينا ، فقال لهم : قد مارست منذ سبعين سنة ، إنكم إن حملتم عليهم فصعدتم انهزمتم ،ولكن دعوهم حتى يقربوا ،ففعلوا ، فلما قربوا منهم حملوا عليهم فأفرجوا لهم، فسجد الجنيد،وقال خاقان يومئذ : إن العرب إذا أُحرجوا استقتلوا فخلُّوهم حتى يخرجوا ،ولا تعرَّضوا لهم فإنكم لاتقومون لهم.

قال : وخرج جَوارِ للجنيد يُوَلْوِلن ، فانتدب رجال من أهل الشام فقالوا : الله الله ياأهل خراسان : إلى أين : وقال الجنيد : ليلةٌ كليلة الجرَّاح ويوم كيومه [1] .

ففي هذا الخبر مواقف منها : أولاً ثبات عبد الله بن معمر اليشكري ومن معه من المسلمين لجيش يفوقهم كثيرا إلى أن استشهد في رجال معه رحمهم الله تعالى .

وثانيًا : موقف ثبات لبني بكر بقيادة زياد بن الحارث حيث صمدوا لجيش خاقان ، وفي كلام خاقان اعتراف للمسلمين بالشجاعة والإقدام حيث أوصى جيشه بأن لايصمدوا للمسلمين لأنهم لا يستطيعون ذلك .

وقول الجنيد « ليلة كليلة الجراح ويوم كيومه » يريد بذلك الجرَّاح ابن عبد الله الحكمي فارس أهل الشام وأمير أرمينية وقد انتصر على الروم والترك في وقائع عديدة إلى أن أُفرد في قلة من جيشه فهجم عليه الترك فقتلوه و من معه ، وذلك في العام نفسه الذي لقي فيه الجنيد خاقان والترك .

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧٥ .

جهاد أسد القسري :.

توفي الجنيد بن عبد الرحمن رحمه الله وتولى إمرة خراسان عاصم بن عبد الله الهلالي ، ثم تولاها بعده أسد بن عبد الله القسري ، وقد عَبَر بجيش المسلمين إلى بلاد ماوراء النهر ونزل بالخُتَّل، وعلم به خاقان فأقبل بجنوده وحال بينهما نهر بلخ فعبر خاقان بعد أن قتل من لم يعبر من المسلمين وأسر بعضهم ، وقد كان أسد أرسل الأثقال وهي الدواب والأطعمة ونحوها أمامه ومعها حامية بقيادة إبراهيم بن عاصم العُقيلي الجزري فعلم بذلك خاقان فمال عن جيش المسلمين يريد أخذ الأثقال لأنها لاتكلفه قتالاً كبيرًا .

واستشار أسد أهل الرأي فوقع الرأي على المسير نحو الأثقال لحمايتها ومن معها ، وقد كان أسد أرسل رسولا إلى إبراهيم بن عاصم يخبره بذلك فوصل إليه وعمل إبراهيم خندقا للحماية، وقد وصل إليه خاقان بجيشه وكانت بينهم مناوشة انتصر فيها المسلمون، ثم اطَّلع خاقان على مكان صالح للهجوم من خلف المسلمين فهجم عليهم وحاز أثقالهم وانحازوا عنه ، ثم انصرف عنهم خاقان حينما رأى جيش المسلمين مقبلا بقيادة أسد القسري (١) .

وفي هذا الخبر موقف يذكر لإبراهيم بن عاصم الجزري ومن معه من المسلمين حيث صدوا هجوم الترك رغم قلة المسلمين .

وموقف يُذكر لأسد بن عبد الله القسري حيث عزم على المسير

(١) تاريخ الطبري ٧/١١٣ - ١١٨ باختصار، وذلك في سنة تسع عشرة ومائة .

لإنقاذ المسلمين الذين كانوا يحمون الأثقال فأغَذَّ السير حتى وصل إليهم في الوقت المناسب فأنقذهم الله تعالى به .

المعركة الأخيرة مع خاقان :

يقول الإمام الطبري : فلما كان ليلة الأضحى قيل لأسد[1] : إن خاقان نزل « جزَّة » ، فأمر بالنيران فَرُفِعَتْ على المدينة [2] فجاء الناس من الرساتيق إلى مدينة « بَلْخ » فأصبح أسد فصلى وخطب الناس وقال: إن عدو الله الحارث بن سُرَيج [3] استجلب طاغيته [4] ليطفئ نور الله ويبدل دينه والله مُذِلّه إن شاء الله ، وإن عدوكم الكلْب أصاب من إخوانكم من أصاب ، وإن يرد الله نصركم لم يضركم قلتكم وكثرتهم ، فاستنصروا الله ، وقال : إنه بلغني أن العبد أقرب مايكون إلى الله إذا وضع جبهته لله ، وإني نازل وواضع جبهتي ، فادعوا الله واسجدوا لربكم وأخلصوا له الدعاء ، ففعلوا ، ثم رفعوا رؤوسهم وهم لايشكُّون في الفتح ، ثم نزل عن المنبر ، وضحَّى وشاور الناس في المسير ، فقال قوم : أنت شاب ولست ممن تخوَّف من غارة ، على شاة ودابة تخاطر بخروجك ! قال : والله لأخرجن، فإما ظفر وإما شهادة ، قال : وقال قوم : بل تخرج إليهم وتستنصر

---

(١) يعني أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان .

(٢) وذلك علامة على نداء أهل القرى المجاورة للتجمع ، وكان أسد قد نزل مدينة بلخ فأمر بالتجمع للجهاد .

(٣) هو من العرب المسلمين ولكنه ارتد على عقبه وتمرد على دولة الإسلام وحالف طغاة الكفار ضد المسلمين .

(٤) يعني خاقان .

الله عليهم، فوافق قولهم رأي أسد وماكان عزم عليه من لقائهم .

قال: ثم خرج فنزل بابًا من أبواب بلْخ وضُربت له قبة «فازتان»[1] وأُلصِق إحداهما بالأخرى ، وصلى بالناس ركعتين طوَّلهما، ثم استقبل القبلة ونادى في الناس : ادعوا الله وأطال في الدعاء ، ودعا بالنصر ، وأمَّن الناس على دعائه ، فقال : نُصرتم وربِّ الكعبة ثم انفتل من دعائه فقال : نصرتم ورب الكعبة إن شاء الله ، ثلاث مرات، ثم نادى مناديه : بَرِئَت ذمة الله من رجل حمل امرأة ممن كان من الجند .

قال : فنظر فإذا جارية على بعير ، فقال : سلوا لمن هذه الجارية؟ فذهب بعض الأساورة فسأل ثم رجع فقال : لزياد بن الحارث البكري - وزياد جالس - فقطَّب أسد وقال : لاتنتهون حتى أسطوَ بالرجل منكم يكرُم عليّ فأضرب ظهره وبطنه ، فقال زياد : إنْ كانت لي فهي حرة ، لا والله أيها الأمير مامعي امرأة فإن هذا عدو حاسد.

قال : ثم ارتحل وعلى مقدمته سالم بن منصور البجلي في ثلاثمائة ، فلقي ثلاثمائة من الترك طليعة لخاقان ، فأسر قائدهم وسبعة منهم معه وهرب بقيتهم ، فأتى به أسدًا ، قال : فبكى التركي، قال : مايبكيك ؟ قال : لست أبكي لنفسي ولكني أبكي لهلاك خاقان قال: كيف ؟ قال: لأنه قد فرق جنوده فيما بينه وبين مرو .

ثم ذكر التقاء الجيشين. .إلى أن قال : فلما التقوا حمل الحارث[2]

---

(١) يعني خيمتين من خيام الجيش .

(٢) يعني ابن سريح الذي كان مع خاقان .

ومن معـه من أهل السُّغد والبابيـة وغيرهم على الميسـرة وفيها ربـيعة وجُندانَ من أهل الشـام فـهزمـهم فلم يردهم شيء دون رواق أسـد، فشدَّت عليهم الميمنة - وهـم الأزد وبنو تميم والجوزجان - فما وصلوا إليهـم حتى انهزم الحـارث والأتراك ،وحمل الناس جـميـعًا ،فـقال أسد: اللهم إنهم عصوني فانصرهم،وذهب الترك في الأرض عباديد(١) لايلوون على أحـد ، فتبـعهم الناس مـقدار ثلاثة فراسخ يقـتلون من يقدرون عليـه ، حتى انتهـوا إلى أغنامهم فاسـتاقوا أكثـر من خمس وخمسين ومائة ألف شاة وداوبَّ كثيرة .

أما خاقان فإنه فر هاربا ومعـه الحارث بن سريج يحميه ، وكانت نهاية خاقـان على يد أحد قادته وهو كُورصول التـرقشي ،حيث لعب هو وإياه بالنَّرد فهـدده خاقان بقطع يده ، فتنحَّى كـورصول ، وجمع جمعا من أصحابه فبيَّت خاقان فقتله (٢) .

وبعد ففي هذا الخبر مواقف عالية ، فمنها عزم أمير خراسان أسد ابن عبد الله القسري على غزو خاقان والترك ، وماكان يتحلى به هذا الأمير من الشجاعة وقـوة الأمل بالنصر على الأعداء مع ماسبق منهـم من الإيقاع بالمسلمين والإضرار بهم .

ومن مواقفه في ذلك ماجاء في خطبته الرائعة يوم عيد الأضحى التي اشتملت على الخضوع لله تعالى واللجوء إليه وطلب النصر منه، في حال مؤثِّرة جعلت أفراد الجيش يرفعون رؤوسهم من السجود وهـم

---

(١) أي متفرقين في كل وجه .

(٢) تاريخ الطبري ٧/ ١١٩ - ١٢٥ باختصار .

لايشكُّون في النصر ، وبهـذا الدعاء الخاشع رفع من معنويـتهم وأقدم بهم على أعـدائهم وهم واثقون من نصـر الله تعالى ، ثم مـاجاء في دعائه الطويل بعد ذلك يوم أن التقى الصـفَّان ، وانصرافه من الدعاء وهو يبـشرهم بالنصـر على الأعداء ، وكل ذلك يدل على قـوة إيمانه وغزارة علمـه بالله تعالى ، حـيث ركَّز على أهم عـوامل النصر وهو التوكل على الله جل وعلا .

ومن المواقف المذكورة في هذه المـعركة ثبات أهـل الميمنة من تميم والأزد ومن معهم حـتى هزموا الأعداء بالرغم مما حصل على مـيسرة المسلمين من الهزيمة ، حـيث لم يفتَّ ذلك في أعضاد بقـية الجيش ، وهذا من أسرار عظمـة المسلمين في جهـادهم حيث لايؤثر فيـهم قتل قـادتهم ولاهزيمة بعـضـهم لأنهم إنما يقـاتلون غـالبا طلـبًا لإحـدى الحسنيين، إما النصر على الأعداء أو الشهادة في سبيل الله تعالى .

وهذا الثبات القـوي من الميمنة دفع بقية الجـيش إلى الإقدام على الأعداء حتى سحقوهم وشتتوا جمعهم .

وفي نهاية خـاقان عبر عظيـمة حيث تم قتله على يد أحـد قادته المقربين إليه ، ومن هذه العـبر أن الكفار مهمـا بلغ من تناصرهم فإن هدفهم هو جلب المصالح لأنفسهم وليس لديهم مبادئ سامية تحكمهم فإذا كانت مصالحهم في الاجتماع اجتمعوا على اعدائهم وإذا تعرضت مصالحهم الذاتية للخطر ضحَّى بعضهم ببعض وتفرقوا .

ومن ذلك سـوء النتـائج التي تتـرتب على اللعب بالنرد ونحـوه حيث ينتج عن ذلك العداوة والبغضاء التي قد يكون من نتائجها ذهاب مصالح أمة كما في هذا الخبر .

ومن ذلك أن الأعداء لايـجمعـهم مبـادئ سامية وإنما يجمـعهم شخصـية قائد قوي يخضـعون له فإذا ذهب ذلك القائد تفـرق أتباعه وتناحروا فيمـا بينهم كما حصل لأتباع خاقـان حيث لم تقم لهم بعده قائمة ، أما المسلمون فإنهم يمتازون على غيرهم بأن الذي يجمعهم هو سلطان الدين وليس للقائد في نظرهم وجود كبير ولا أثر مصيري فإذا هلك قائدهم فإن خلفه قادة يقومـون بالأمر بعده ويسيرون على نفس المنهج ، ولو فُرض أنهم تفرقوا بعد موت القائد أثناء المعركة فإنه تفرُّق مؤقت لأن الذي ألَّف بين قلوبهم وجمعهم هو الخضوع للدين والدين لايموت .

وهذا من الأسبـاب الأساسـية في تماسك المسلمين وبقـائهم تلك القرون العديدة يهيمنون على أكثر بلاد العالم .

* * *

الجهاد في المشرق

في

عهد العباسيين

انتقاض أمير طبرستان وجهاده :

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في هذه السنة [1] نقض إصبهبذ طبرستان العهد بينه وبين المسلمين ، وقتل من كان ببلاده من المسلمين .

وذُكِر أن أبا جعفر [2] لما انتهى إليه خبر الإصبهبذ ومافعل بالمسلمين، وجّه إليه خازم بن خزيمة وروْح بن حاتم ومعهم مرزوق أبو الخصيب مولى أبي جعفر ، فأقاموا على حصنه محاصرين له ولمن معه في حصنه ، وهم يقاتلونهم حتى طال عليهم المقام، فاحتال أبو الخصيب في ذلك فقال لأصحابه : اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي، ففعلوا ذلك به ، ولحق بالإصبهبذ صاحب الحصن فقال له : إني رُكِب مني أمرٌ عظيم ، ضُرِبتُ وحُلق رأسي ولحيتي. وقال له : إنما فعلوا ذلك بي تهمةً منهم لي أن يكون هواي معك ، وأخبره أنه معه، وأنه دليل له على عورة عسكرهم. فقبل منه ذلك الإصبهبذ، وجعله في خاصته وألطفه .

وكان باب مدينتهم من حجر يلقى إلقاءً يرفعه الرجال، وتضعه عند فتحه وإغلاقه ، وكان قد وكّل به الإصبهبذ ثقات أصحابه، وجعل ذلك نُوبًا بينهم ، فقال له أبو الخصيب : ماأراك وثقت بي، ولاقبلت نصيحتي ! قال : وكيف ظننتَ ذلك ؟ قال : لتركك الاستعانة بي فيما يعنيك ، وتوكيلي فيما لاتثق به إلا بثقاتك ، فجعل

---

(١) يعني سنة اثنتين واربعين ومائة .

(٢) يعني أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور .

يستعين به بعد ذلك ، فيرى منه مايحبّ إلى أن وثق به ، فجعله فيمن ينوب في فتح باب مدينته وإغلاقه ، فتولّى له ذلك حتى أنس به. ثم كتب أبو الخصيب إلى رَوْح بن حاتم وخازم بن خزيمة ، وصيّر الكتاب في نُشّابة ، ورماها إليهم ، وأعلمهم أن قد ظفر بالحيلة، ووعدهم ليلة سمّاها لهم في فتح الباب .

فلما كان في تلك الليلة فتح لهم ، فقتلوا من فيها من المقاتلة، وسبّوا الذراري ، وظُفر بالبحترية، وهي أم منصور بن المهدي، وأمّها باكند بنت الإصبهبذ الأصمّ - وليس بالإصبهبذ الملك ، ذاك أخو باكند - وظفر بشكْلة أم إبراهيم بن المهديّ ، وهي بنت خوناذان قَهرمان المصمُغان ، فمصّ الإصبهبذ خاتمًا له فيه سم فقتل نفسه [(١)].

هذا الخبر فيه بيان خدعة حربية عالية قام بها مرزوق أبو الخصيب مولى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، وقد استطاع أن يقوم بتلك الخدعة لكونه في الأصل من أهل تلك البلاد، وهذه تضحية كبيرة من أبي الخصيب لما قد يترتب على ذلك الأمر الذي أقدم عليه من عدم تصديق الأعداء له ووقوعه في أسرهم ، ولكنه قد استعد لاحتمال أسوإ النتائج في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين، وهذا يدل على إخلاصه وقوة إيمانه .

خروج أستادسيس ومن تبعه وجهادهم :

قال الإمام محمد بن جرير الطبري : فممّا كان فيها [(٢)] من ذلك

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٥١٢ - ٥١٣ .

(٢) أي في سنة خمسين ومائة .

خروج أستاذسيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من عامة خراسـان ، وساروا حتـى التقوا هم وأهل مَـرْوالروذ ، فخـرج إليهم الأجثم المَرْورُّوذيّ في أهل مَرْوالرّوذ ، فقاتلوه قـتالا شديدًا حتى قتل الأجثم ، وكثر القتل في أهل مَرْوالروذ ، وهزم عدة من القواد، منهم معـاذ بن مسلم بن معـاذ وجبرئيل بن يحـيى وحماد بن عـمرو وأبو النجم السجستاني وداود بن كـراز ، فوجه المنصور وهو بالبردان خازم ابن خزيمة إلى المهدي، فولاه المهدي محاربة أستاذسيس، وضمّ القواد إليه.

وذكر أن القائد خازم بن خزيمة اختلف عليـه قادة جيشه بتحريض من وزير المهدي معاوية بن عبيـدِ الله، فقدم خازم على المهدي وشكا إليـه ذلك فأفـرده بالقيـادة والتصـرف ، قال : فـانصرف خـازم إلى عسكره، فعمل برأيه، وحل لواء من رأى حل لوائه من القواد، وعقد لواء لمن أراد، وضمّ إليـه من كان انهزم من الجنود، فـجعلهم حـشواً يكثـر بهم من معـه في أخريات الـناس ، ولم يقدمـهم لما في قلوب المغلوبين من روعة الهـزيمة ، وكان من ضم إليه من هذه الطبـقة اثنين وعشـرين ألفا ، ثم انتخب سـتة آلاف رجل من الجند، فضـمهم إلى اثني عشر ألفا كانوا معه متخيرين ، وكان بكّارُ بن مسلم العقيلي فيمن انتخب ، ثم تعبأ للقتال وخندق . واستعمل الهيثم بن شعبة بن ظهير على ميمنته ، ونهار بن حصين السـعديّ على ميسرته، وكان بكار بن مسلم العقيلي على مقدمته وتُرارخُدا عليّ ساقته، وكان من أبناء ملوك أعاجم خـراسان ، وكان لواؤه مع الزِّبـرقان وعلمه مع مـولاه بسَّام، فـمكر بهم وراوغـهم في تنقـله من مـوضع إلى مـوضع وخندق إلى

خندق حتى قطعهم ، وكان أكثرهم رجالة ، ثم سار خازم إلى موضع فنزله ، وخندق عليه ، وأدخل خندقه جميع ماأراد ، وأدخل فيه جميع أصحابه ، وجعل له أربعة أبواب ، وجعل على كل باب منها من أصحابه الذين انتخب ، وهم أربعة آلاف ، وجعل مع بكار صاحب مقدمته ألفين، تكملة الثمانية عشر ألفا . وأقبل الآخرون ومعهم المروز والفؤوس والزُّبُل، يريدون دفْن الخندق ودخوله، فأتوا الخندق من الباب الذي كان عليه بكار بن مسلم، فشدّوا عليه شدة لم يكن لأصحاب بكار نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق .

فلما رأى ذلك بكار رمي نفسه،فترجل على باب الخندق ثم نادى أصحابه وقال : من قبَلي يؤتى المسلمون! فترجّل من معه من عشيرته وأهله نحو من خمسين رجلا ، فمنعوا بابهم حتى أجلوا القوم عنه، وأقبل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجلٌ كان مع أستاذسيس من أهل سجستان ، يقال له الحريش ، وهو الذي كان يدبر أمرهم ، فلما رآه خازم مقبلا بعث إلى الهيثم بن شعبة، وكان في الميمنة : أن اخرج من بابك الذي أنت عليه، فخذ غير الطريق الذي يوصلك إلى الباب الذي عليه بكار ، فإن القوم قد شغلوا بالقتال وبالإقبال إلينا ، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم فأتهم من خلفهم . وقد كانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم أبي عون وعمرو بن سلم بن قتيبة بن طخارستان. وبعث خازم إلى بكار بن مسلم:إذا رأيت رايات الهيثم بن شعبة قد جاءتك من خلفك فكبِّروا وقولوا: قد جاء أهل طخارستان. ففعل ذلك أهل الهيثم ، وخرج خازم في القلْب على الحريش السجستاني، فاجتلدوا بالسيوف جلاداً شديداً، وصبر بعضهم لبعض،

فبينا هم على تلك الحال إذ نظروا إلى أعلام الهيثم وأصحابه ، فتنادوا فيما بينهم : جاء أهل طخارستان ، فلما نظر أصحاب الحريش إلى تلك الأعلام ، ونظر من كان بإزاء بكار بن مسلم إليها ، شد عليهم أصحاب خازم فكشفوهم ، ولقيهم أصحابُ الهيثم ، فطعنوهم بالرماح ، ورموهم بالنُّشاب ، وخرج عليهم نهار ابن حصين وأصحابه من ناحية الميسرة ، وبكار بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم ، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف، فقتلهم المسلمون وأكثروا، فكان من قتل منهم في تلك المعركة نحوًا من سبعين ألفًا، وأسروا أربعة عشر ألفا ، ولجأ أستاذسيس إلى جبل في عدة من أصحابه يسيرة ، فقدّم خازم الأربعة عشر ألف أسير، فضرب أعناقهم، وسار حتى نزل بأستاذسيس في الجبل الذي كان لجأ إليه، ووافى خازمًا بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم بن قتيبة في أصحابهما ، فأنزلهم خازم ناحيةً ، وقال : كونوا مكانكم حتى نحتاج إليكم . فحصر خازم أستاذسيس وأصحابه حتى نزلوا على حكم أبي عون، ولم يرضوا إلا بذلك ، فرضي بذلك خازم ، فأمر أبا عون بإعطائهم أن ينزلوا على حكمه ، ففعل ، فلما نزلوا على حكم أبي عون حكم فيهم أن يُوثَق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد، وأن يُعتق الباقون وهم ثلاثون ألفًا ، فأنفذ ذلك خازم من حُكم أبي عون، وكسا كلّ رجل منهم ثوبين ، وكتب خازم بما فتح الله عليه، وأهلك عدوّه إلى المهديّ ، فكتب بذلك المهدي إلى أمير المؤمنين المنصور [1].

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٢٩ - ٣٢ .

فهذا الخبر فيه مواقف منها :

أولا : ماكان من قائد الجيش خـازم بن خزيمة حينما أدرك الخلل في تنظيم عـسكره فتلافى ذلك قـبل مواجهـة الأعداء وأصلح مـاكان بحـاجة إلى إصـلاح ، وهذا يدل على وعـي قيـادي ، لأن من أهم أسباب النصر طاعة القائد وحسن اختيار الأعوان .

ثانيًا : ماقـام به من المكر بالأعداء ومراوغتهم حـيث صار ينتقل من موضع إلى موضع فكان ذلك سببا في تفرق جيش الأعداء ، لأن أكثرهم مشاة فحركتهم في التنقل بطيئة .

ثالثًا : ماقام به من إقامة الخندق حول جيش المسلمين ، وهذا أمر ضروري فيما إذا كان الجـيش في بلاد الأعداء ، فمن المحتمل أن يأتوا من كل جهة ، فيكون الخندق وسيلة دفـاعية حتى يتدبر القائد الخطط الحربية المناسبة .

رابعًا : موقف لبكار بن مسلم العقـيلي حينما ثبت لما فر جنوده، فحفظ الباب الذي وكل به هو ومن ساعـده من رجال عشيرته، وهذا أثر من آثار حـسن اخـتيـار القـادة ، فلو كـان مثـل جنوده في الهلع والدهشة لفر معهم ولدخل الأعداء من ذلك الباب .

خامسًـا : في هذا الخبر خطة حربيـة بارعة وضعهـا قائد الجيش خازم بن خزيمة ، حيث خطط لمباغتـة الأعداء من خلفهم مع الهجوم عليهم من الأمام وإيهامهم بوصـول مدد جديد للمسلمين، فكان ذلك سببا في هزيمتهم ، وهكذا تظهر نتائج الرأي السديد في الحرب، حيث يوفـر القائد ذو الرأي الحـصيف والتـفكير المبـدع جهـودًا كبيـرة على

المسلمين في إنهاء الحروب لصالحهم بأقل التضحيات .

سادسًا : موقف قيادي ناجح من خازم بن خزيمة ، حيث قبل حكم أبي عون بإعتاق جنود الأعداء بعد القبض على قائدهم وأقاربه، لأن في ذلك تأليفًا لأولئك الجنود، وقد أضاف إلى ذلك موقفا إنسانيّا نبيلا، وذلك بكسوة كل جندي من هؤلاء ثوبين، وإذا علمنا أن عددهم ثلاثون ألفا يكون قد أنفق عليهم ستين ألف ثوب، وهذا يقتضي صرف مبلغ كبير من المال ، ولاشك أن لهذا الموقف من أبي عون ثم من خازم أثرا على أولئك الجنود ، حيث سيكونون عونًا للمسلمين في المستقبل ، أو على الأقل سيسلكون سبيل السلامة فيأمن المسلمون شرهم .

* * *

فهرس الجزأين الثالث عشر والرابع عشر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة